أعلام المسلمين

٦٧



محمد محمد حسن شُرَّاب

دار القلم

دمشق



أَمِينُ الأُمَّةِ، وَفاتِحُ الدِّيارِ الشَّامِيَّةِ

مُحَمَّدُ مُحَمَّد حَسَن شُرَّاب


أبو عبيدة عامر بن الجراح
أمين الأمة، وفاتح الديار الشامية

الطبعة الأولى
١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

هٰـــذَا الرَّجُـــل

قال رسول الله ﷺ :

« إنَّ لكلِّ أمَّة أميناً، وإنَّ أميننا أيتها الأمة : أبو عبيدة بن الجراح ».

رواه البخاري

وقال رسول الله ﷺ :

« . . . وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة ».

أخرجه الترمذي

«عليكم بالهيِّن الليِّن الذي إذا ظُلم لم يَظْلِم، وإذا أُسيء إليه غفر، وإذا قُطِعَ وَصَل، رحيمٌ بالمؤمنين، شديدٌ على الكافرين : عامر بن الجراح».

أبو بكر الصديق

« غيَّرتنا الدنيا كُلَّنا، غَيْرَكَ يا أبا عبيدة ».

« إن أدركني أجلي وأبو عبيدة حيٌّ استخلفته ».

« لكنّي أتمنَّى بيتاً ممتلئاً رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح ».

عمر رضي الله عنه

قال أبو عبيدة رضي الله عنه :

« أيُّها النَّاس؛ إن هذا الوجع ـ أي الطاعون ـ رحمة بكم،

ودعوة نبيكم، وموت الصالحين قبلكم، وإن أبا عبيدة يسأل الله أن يقسم له منه حظَّه»؛ فطُعِن، فمات.

رواه الطبري بإسناده

«أيها الناس إني امرؤ من قريش، وما منكم من أحمرَ ولا أسودَ يفضُلني بتقوى، إلاَّ وَدِدْتُ أنّي في مِسْلاخه».

أبو عبيدة

«والله إنه لخيرُ مَنْ بقي على الأرض».

«قد فُجعتم برجلٍ ما أزعم أنّي رأيتُ عبداً أنقى صدراً، ولا أبعد من الغائلة، ولا أشدَّ حبّاً للعامّة، ولا أنصحَ لها منه».

معاذ رضي الله عنه

«نزل عمرُ الشام... فقال: أين أخي أبو عبيدة؟... فسار معه حتى أتى منزله، فنزل عليه، فلم يَرَ في بيته إلاَّ سيفه وترسه ورحله. فقال له عمر: لو اتخذت متاعاً، فقال: يا أمير المؤمنين، إن هذا سيبلغنا المقيل».

جمع من الرواة

«سُئلت عائشة: مَنْ كان رسول الله مستخلفاً لو استخلفه؟ قالت: أبو بكر، فقيل لها: ثم من بعد أبي بكر؟ قالت: عمر، ثم قيل لها: من بعد عمر؟ قالت: أبو عبيدة بن الجراح؛ ثم انتهت إلى هذا».

في صحيح مسلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قصة هذا الكتاب

أما بَعْدُ: فقد قال رسول الله ﷺ: «تجدونَ النَّاسَ مَعَادن: خيارهم في الجاهلية، خيارهم في الإسلام إذا فَقِهوا»[1]. قال ابن حجر: « تجدون الناس معادن »[2] أي أُصولاً مختلفة، والمعادن: جمع معدن، وهو الشيء المستقر في الأرض، فتارة يكون نفيساً، وتارة يكون خسيساً، وكذلك الناس. وقوله: « خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام »: وجه الشبه، أنَّ المعدن، لما كان إذا استخرج ظهر ما اختفى منه ولا تتغير صفته، فكذلك صفة الشرف، لا تتغير في ذاتها، بل مَنْ كان شريفاً في الجاهلية، فهو بالنسبة إلى أهل الجاهلية رأسٌ. فإن أسلم، استمرّ شرفه، وكان أشرف ممن أسلم من المشروفين في الجاهلية.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب ٦١ ـ باب ١.

(٢) فتح الباري: ٦/ ٥٢٩.

والمراد بالخيار والشرف وغير ذلك: مَنْ كان متَّصفاً بمحاسن الأخلاق، كالكرم والعفة والحِلْم وغيرها. متوقياً لمساويها كالبخل والفجور والظُّلم وغيرها.

قصدت من رواية هذا الحديث النبويّ إلى القول: إنَّ الإسلام ـ سلوكاً وفقهاً ـ هو الذي خلَّد ذكْر رجال، كانوا سيكونون في طي النسيان وفي تيه الوجود، لو لم يتَّخذوا الإسلام ديناً، ومحمَّداً عليه السلامُ إماماً وصاحباً.

فإذا رجعنا إلى تاريخ الجاهليين من عرب وعجم، فإننا لا نجد فيه إلا ترجمة قائد، أو ملك، أو شاعر، أو فيلسوف. فأين تراجم الذين أعانوا الملك في بناء مُلْكه؟ وأين الجنود الذين خاضوا المعارك ودافعوا عن حياض القبيلة أو المُلْك؟ وأين الذين حفظوا قصائد الشاعر وتغنوا بها؟ وأين تلامذة الفيلسوف الذين تأثَّروا بفكره؟.. لا نجد أحداً من هؤلاء الأتباع والأصحاب.

فإذا دخلنا إلى ديار الإسلام لنسأل عمَّن أسَّسوا البناء، ورفعوا قواعده، فإننا نجد آلافاً من التراجم للرجال والنساء، قد ذُكِر لكل واحد جُهده في إقامة الدولة الإسلامية، وحُفِظ لكلِّ مَنْ أسهم حظُّه من الذكر...

إنَّه لم يُحْصَ ـ في تاريخ البشرية ـ أصحاب نبيّ أو زعيم، كما أُحصي أصحاب محمد ﷺ.

ففي كتاب (الإصابة في تمييز الصحابة) لابن حجر العسقلاني (١١٠٠٠) أحد عشر ألف ترجمة. فذكر فيه كلَّ مَنْ اتَّصل بسبب قريب أو بعيد، بالنبي ﷺ، ممن عُرِفَ خبره، ورويت له قصة حياةٍ؛ وقسَّمَ كتابه أربعة أقسام:

الأول: فيمن وردت صحبتُه بطريق الرواية عنه، أو عن غيره.

الثاني: فيمن ذُكِر في الصحابة من الأطفال الذين وُلدوا في عهد النبي ﷺ لبعض الصحابة من النساء والرجال، ممن مات رسول الله ﷺ وهو دون سنّ التمييز، لغلبة الظن أن النبيّ ﷺ رآهم لتوفر دواعي الصحابة على إحضارهم أولادهم عند النبيﷺ، عند ولادتهم ليحنكهم ويسميهم ويبرّك عليهم.

الثالث: المخضرمون من المسلمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، ولم يرد أنّهم اجتمعوا بالنبيّ، ولا رأوه، وهؤلاء الصحابة بالسماع.

الرابع: فيمن ذُكِرَ في الكتب على أنَّهم من الصحابة على سبيل الوهم والغلط.

وتعريف الصحابيّ الذي كُتِبَ له خلود الذكْر وعلوّ السند: هو مَنْ لقي النبيَّ ﷺ مؤمناً به ومات على الإسلام، فيدخل فيمن لقيه مَنْ طالت مجالسته له أو قَصُرَت، ومَنْ روى عنه أو لم يَرْوِ، ومَنْ غزا معه، أو لم يغزُ، ومن رآه رؤية ولم يجالسه، ومَنْ لم يره، لعارض، كالعمى.

ولما كان الفقه سبباً للتمييز، وكان الفِقْهُ متَّصل النسب بالنبي ﷺ، فقد نال شرف الخلود، أو خلود الشرف، كلُّ مَنْ اتَّصل بسبب إلى هذا العلم الموصول النسب بالنبي.. ومن أجل هذا خَلُدَ ذكر آلافٍ من التابعين وتابعيهم، الذين نقلوا هذا العِلْمَ عن الصحابة الذين شافهوا النبيَّ ورأوْه.. وفي كتاب (تهذيب التهذيب) لابن حجر أكثر من اثني عشر ألف راوٍ للحديث النبوي، من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومَن تبعَهُم.

هؤلاء الصحابة الذين كتب الله لهم شرف الصحبة، وخلود الذكْر الحسن، بما عملوا في سبيل الدعوة، وبما فقهوا. منهم مَن قضى نحبه في العهد النبوي، ومنهم مَنْ بقي ينتظر، وما بدَّلوا تبديلاً.

وأبو عبيدة عامر بن الجرَّاح من هؤلاء الرجال الذين أجبروا التاريخ على تدوين وجودهم، وإذاعة مناقبهم، وكانت ولادة هذا الوجود في الإسلام، وبالإسلام.

لقد عاش أبو عُبيدة ما يقرب من نصف عمره في الجاهلية، فلم نجد في مدونات التاريخ ما يدلُّ على حياته ووجوده، فلمّا أسلم بزغ نجمه وذاع اسمُه، وعلا صيتُه، ووجدنا التاريخ يسعى وراءَه ويتتبع خطواته.

وقد عاش أبو عُبيدة في الإسلام مدَّتين: مُدَّة الصحبة في الحياة النبوية ومدَّة ما بعْدَ وفاة النبيّ عليه الصلاة والسلام، أيام الخلافة الراشدة.

وسيرة أبي عُبيدة في صحبة النبي عليه الصلاة والسلام، تُعدُّ في رأينا جزءاً من السيرة النبويّة. فالنبيُّ جاهد ونشر الدعوة في أصحابه وبأصحابه، والصحابة كانوا يعملون بتوجيه ورعاية النبي ﷺ، وكان سلوك الصحابة هو التطبيق العملي للتشريع القرآني، والسنَّة النبوية، وما كان من سلوك أصحابه قويماً سكت عنه، وما كان معوجّاً قوَّمه.

وفي مرحلة ما بَعْدَ الصحبة النبوية: عاش المسلمون بتطبيق التعاليم القرآنية والسنة النبوية، ومرحلة الاجتهاد فيما جدَّ من الأحداث.. وأكثر اجتهاداتهم تتَّصل بالتراتيب الإدارية للدولة الإسلامية، وبخاصة بعد اتّساع الفتوحات.

ومصادر القسم الأول من حياة أبي عُبيدة، كتب الحديث

ة، وتراجم الصحابة، وأخباره في هذه المدة
ت النبوية والسرايا، ولم تكن غزوة إلا ورسول
م تكن سريَّة إلاَّ بأمر رسول الله ﷺ؛ يُعيّنُ أميرها،
ور هدفها، وما يلتحق رجلٌ بغزوة أو سريَّة إلاَّ بموافقة
رسول الله ﷺ، حيث كان يستعرض الجُند قبل الانطلاق إلى
المقصد، فيُجيز مَنْ يجيزه، ويردّ مَنْ يردّه.

فأفعال رسول الله ﷺ في الغزوات سُنّة، وأفعال أصحابه المرافقين له في الغزوة سُنَّة: فإن فَعَلَ أحد أصحابه أمراً وكان حسناً أقرَّه عليه وسكت عنه، وإن رأى في عمل أحدهم اعوجاجاً، نبَّه عليه وقوَّمه.

وأفعال الصحابة أثناء السريَّة التي لم يحضرها رسول الله ﷺ سنة أيضاً، لأنَّهم يطبقون في مدة غيبتهم عن رسول الله ﷺ ما حفظوا من آيات الوحي وما عرفوا من السنَّة، فإذا لم يجدوا واضطروا إلى العمل اجتهدوا، وأخبروا رسول الله ﷺ بما اجتهدوا فيه عند عودتهم إلى المدينة، فإمَّا أن يقرّهم وإما أن يردَّ اجتهادهم.

جاء في الأحاديث الصحيحة عن عمرو بن العاص قال: «احتلمتُ في ليلة باردةٍ في غزوة ذات السلاسل، فأشفقتُ أن أغتسل فأهلَك، فتيمَّمتُ ثم صليتُ بأصحابي الصُّبح، فذكروا

ذلك للنبي ﷺ فقال: ياعمرو، صليت بأصحابكَ وأنتَ جُنُب؟ فأخبرتُه بالذي منعني من الاغتسال، وقلتُ: إنّي سمعتُ الله يقول: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء: ٢٩]، فضحك رسول الله ولم يقل شيئاً»[١] .

وروى البخاري[٢] عن عمّار بن ياسر قال: بعثني رسول الله في حاجة فأجنبتُ فلم أجد الماء، فتمرغتُ في الصعيد كما تمرَّغ الدابة، فذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ فقال: إنَّما كان يكفيك أن تصنع هكذا (صفة التيمم).

وفي غزوة سِيف البحر، التي كان أميرها أبو عُبيدة، أنهم جاعوا ثم وجدوا حوتاً كبيراً فترددوا في الأكل منه، فأفتاهم أبو عبيدة بجواز الأكل منه، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ عندما عادوا إلى المدينة فأقرَّهم، وطلب منهم أن يطعموه منه إن حملوا شيئاً، فجاءَه أحدهم بقطعة منه فأكلها.

وبناءً على الشواهد السابقة، فإنّني لم أقبل في أخبار أبي عُبيدة في مدَّة صحبته للنبيّ ﷺ، إلا الرواية الصحيحة سنداً ومتناً، وليس عندي فَرْقٌ بين الحديث النبويّ الدالّ على فقه

---

(١) انظر فتح الباري: ١/ ٤٥٤.

(٢) صحيح البخاري: كتاب ٧، باب ٨.

العبادات، والسيرة النبوية، بمعنى المغازي النبويّة التي تدلُّ على فقه الجهاد. وقد فرّق بعضهم بين الأحاديث التي يؤخَذ منها فقه العبادات، والأحاديث والأخبار التي تتَّصل بالترتيبات الإدارية والاجتماعية، مثل نصوص المعاهدات، والكتب النبويّة في الصلح.. وهذا خطأ فادح لأنَّ الدين لم يأتِ للعبادة فقط، وإنما أتى للعبادات وإقامة نظام الحكومة التي تحرس البلاد، وتدفع عن الدين، وقد وضع رسول الله ﷺ قبل وفاته أسساً لدولة، تبقى بعد مماته.

والتأريخ يصفُ واقعاً حضارياً، يدلُّ على مستوى الرقي الفكري والصناعي والاجتماعي للأمَّة، والبيئة التي يصفها؛ والأمور في التاريخ تقاس بزمنها وبيئتها.

وفي باب الفتوح الإسلامية بخاصة ـ وكان قادة الفتوح من الصحابة ـ أدى قبول الروايات الهالكة، إلى تشويه صورة العرب المسلمين بخاصة، والعرب بعامّة، ووقع في أحبولة الكذب: فيلسوف المؤرخين ابن خلدون في مقدمته، التي عدَّها بعضهم فتحاً جديداً في بابها وموضوعها، أنَّ العرب الفاتحين كانوا في طور البداوة، وأنه «قُدِّمَ لهم الخبز المرقق، فكانوا يحسبونه رقاعاً، وعثروا على الكافور في خزائن كسرى فاستعملوه في عجينهم ملحاً»[1]. وزعم أن عرب الحجاز كانوا

---

(١) المقدمة : الفصل / ١٥.

في أرض غير ذات زرع ولا ضرع.. ويأكلون العقارب والخنافس، ولم يستثنِ قريشاً من هذا الوصف[1].

ولستُ بصدد تفنيد هذه المزاعم، ولكن الرجوع إلى دراسة الأحاديث والأخبار الصحيحة تُثبت بطلان هذه المزاعم؛ مع العلم أنَّ أنواع المآكل والمشارب، لا تدلُّ على رقيّ أو انحطاط، فالناس يأكلون ما تشتهيه أنفسهم وما يجدونه في بلادهم.. فالذين يُعدّون في أعلى درجات السُلَّم الحضاري اليوم يأكلون الضفادع وسرطان البحر، ودود الحلزون، ومنهم مَنْ يأكل الحمير والكلاب والقطط... وما يأكلون هذا من قلَّة.. وما يأكله هؤلاء يُوجد منه الكثير في بلادنا، وتعافه نفوسنا؛ إمَّا لحرمته، وإمَّا لأننا لم نألفه.

* * *

أما المرحلة الثانية من حياة أبي عُبيدة في الإسلام، فهي متَّصلة بالشام وفتح الشام.. وأخبار فتح الشام أهملها رواة الأحاديث والباحثون عن العِلْم الشرعي، مع أنَّ قادة فتوح الشام كانوا جميعاً من الصحابة، وشارك فيها مئات من الصحابة، وفي هذه الفتوح طبَّق الصحابة آيات التشريع والسنة النبوية، واجتهدوا في أمور طرأت. وقد تأخر زمنُ بعض الصحابة الذين شهدوا الفتح، إلى زمن التابعين، حيث كثر الرواة الباحثون عن

---

(١) المقدمة: فصل ٢٧/ ١٧٧.

السنة والآثار؛ ومن الصحابة الذين شهدوا فتح الشام، وعاشوا في زمن التابعين الرواة: معاوية بن أبي سفيان، وأبوه أبو سفيان، وعبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، وأبو هريرة، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص... وغيرهم.

ومع ذلك، قلَّما نجد أخباراً متَّصلة إلى الصحابة في فتح الشام، ما عدا نُتفاً صغيرة تتصل بزيارة عمر بن الخطَّاب الشام؛ أما تفصيل رحلات عمر إلى الشام فلم يرد فيها شيء بأسانيد متصلة صحيحة، مع أنَّ كلَّ حركة من حركات عمر بن الخطاب فيها فِقْهٌ، وجميع أقواله من الفقه والسنَّة، وحتى تفصيل رحلته إلى بيت المقدس، ودخوله المسجد الأقصى، لم تُرْوَ بأسانيد صحيحة متَّصلة، مع العلم أنه رافق عُمر في هذه الرحلة جمْعٌ غفير من الصحابة.

وكانت معركة أجنادين، ومعركة اليرموك، من المعارك الفاصلة في تاريخ الإسلام، فهما يشبهان في أثرهما معركة بَدْر في العهد النبوي، ومعركة القادسية في العراق، وحضرهما شيوخ الصحابة، ومع ذلك لم أقرأ قصة المعركتين بسند متَّصل صحيح عن مُشاهد أو مُشارك، وإذا وجدت خبراً متَّصلاً، وجدت ضعفاً في بعض حلقات الرواية.

هناك فَرْقٌ بين رواية السيرة وتدوينها، وبين رواية فتوح

الشام؛ فالسيرة النبوية اشتغل بها رواة الحديث بوصفها مادة للفقه الإسلامي، ورويت عن الصحابة المشاهدين، وأخذها عنهم كبار التابعين الذين عاصروا انتشار الكتابة والتدوين في الصحف، وكانت بيئة رواتها محدودة وهي المدينة النبوية، ويحفظ هذه السيرة جمعٌ كبير من أهل المدينة، فكل بيوت المدينة شاركت في هذه السيرة، وشاهدتها، فحفظها الابن عن أبيه، والحفيد عن جدّه.

أمّا أخبار فتوح الشام، فقد ظهر لي أنَّها بقيت قصصاً تروى مُدَّة قرن أو يزيد، وقد تفرَّق الذين شاركوا فيها وشاهدوها، فمات بالطاعون جمعٌ كبيرٌ منهم، وانتقل جَمْعٌ منهم إلى العراق، وهو جيش خالد الذي قدم معه إلى الشام، وانتقل عمرو بن العاص بجمْع منهم إلى مصر لفتحها، ومَنْ بقي منهم في الشام تفرَّقوا في قطر واسع تتعدَّد مدنه وقراه.. ثم جاء رواة فتح الشام في وقت متأخر لجمع أخبار الفتح، مما نتج عنه اختلاف في الروايات، ودخلها الوضع، والزيادة والتحريف.

فرواة فتح الشام الذين أخذ عنهم الذين دوَّنوا التاريخ هم:

ابن إسحاق (٨٥ ـ ١٥١ هـ).

وسيف بن عُمر (وفاته ١٧٠، أو ١٨٠، أو ٢٠٠هـ).

والوليد بن مسلم (١١٩ ـ ١٩٥هـ).

ومحمد بن عمر الواقدي (١٣٠ ـ ٢٧٠هـ).

وعلي بن محمد المدائني (١٣٥ ـ ٢٢٠هـ).

ومحمد بن عبد الله الأزدي (. . . ـ ٢٣١هـ).

والبلاذري (. . . ـ ٢٧٠هـ).

وابن عساكر (٤٩٩ ـ ٥٧١ هـ). . .

هؤلاء رواة فتوح الشام، وليس فيهم من أهل الشام المتقدّمين إلا الوليد بن مسلم، وأما ابن عساكر فهو من أهل الشام المتأخّرين، والآخرون كانوا من أهل العراق، ونلاحظ أنّ أكثرهم كانوا بعيدين عن بيئة الفتح، وأقدمهم بدأ طلب الرواية بعد مرور أكثر من مئة سنة على تمام الفتح.

هذا البُعد الزمني عن زمن الفتح، وتتابع الحكايات الشفوية، وامتزاج الرواية بالعصبية ـ فالأزدي يعتني برواية قصص الأزد، وسيف برواية قصص بني تميم ـ مع وجود حلقات في سلسلة الروايات من المجاهيل أو المتهمين بالكذب. . كلّ هذه العوامل وغيرها أدى إلى صعوبة الوصول إلى الحقيقة في كل حادثة وقصة.

فاختلفوا في أعيان الصحابة الذين حضروا الفتوح؛ حيث

ذكروا ضرار بن الأزور فيمن حضر فتوح الشام، بينما نجد روايات تذكر موته أيام حرب الردَّة. ويبدو أنَّهم خلطوا بينه وبين ضرار بن الخطاب.

وحصل تحريف في الأمكنة؛ فقالوا: إن الطاعون بدأ انتشاره من عمواس في فلسطين، وظهر لي أنه محرفة عن (عماتوس) في غور الأردن الشرقي.

واختلفوا في زمن المعارك الكبرى وترتيبها.

واختلفوا في قادة فتوح الشام الذين انطلقوا من المدينة.

وهل ذهب أبو عبيدة إلى الشام، قائد جيش، ثم قائداً عامّاً. أم ذهب جندياً في جيش، ثم جاءَته القيادة العامة زمن عُمر؟

والصحيح الذي لم يُختَلَف فيه:

أنَّ فتح الشام بدأ زمن أبي بكر، وتمَّ في زمن عمر.

وأن أبا عُبيدة أصبح أميراً على الشام في خلافة عمر بن الخطاب، وأنه مات بالطاعون.

وما اختلفوا فيه، أثبتُّ فيه ما أثبتُّ بَعْدَ اجتهادٍ معتمداً على ثلاثة عناصر:

الأوَّل: معاينة البيئة الجغرافية التي شَهِدَتْ قصة الفتح.

والثاني: الجمع بين الروايات: فهؤلاء الذين رووا تاريخ فتوح الشام، لم يخترعوا الأخبار، وإنَّما رووا ما وصل إليهم، وفي كل رواية حقيقة صغرى أو كبرى، وزيادة ونقص، ونأخذ منها ما نرجح عندنا أنه الحقيقة، ونضيفه إلى حقيقة جزئية أخرى، حتى تتمّ الصورة.

والثالث: معايشة حال الرجال الذين قادوا الفتح:

فأبو عُبيدة صحابيٌّ عاش زمن الصحبة من البداية حتى النهاية، ولازم رسول الله ﷺ حوالي عشرين سنة، وظهر من إخلاصه ونشاطه في خدمة الدعوة ما جعله من أقرب المقرّبين إلى رسول الله ﷺ، وشهد له بذلك رسول الله ﷺ، وشهد له الصحابة بعد وفاة رسول الله ﷺ، حتى كان من المقدّمين للخلافة الراشدة.

ونظرنا في شخصية أبي عُبيدة، وما طبعه الله عليه من السجايا، وجمعنا بين التربية المكتسبة من الصحبة وبين الموروث الذي يجري في عروق أبي عبيدة.. فقد نشأ في بطنٍ من بطون قريش لم تكن له زعامة في مكة، وروينا أنه كان يحفر القبور لأهل مكة، وكان متواضعاً مطواعاً للحق، رقيق الطباع، ليناً لإخوانه محبوباً من عشرائه.

وجاءَته إمارة الشام، فأعطاها من تربيته المكتسبة التي

أخلص لها ومن طبعه الودود الموروث، وبهذه الصفات فسّرنا الروايات، ورجّحنا رواية على أُخرى.

ويميلُ بعض الكتّاب في تصوير الشخصيات التاريخية، إلى استعارة الأسلوب الروائي الذي يستعين بالخيال الأدبي والإبداع الفنيّ، ويحاول الاقتراب من صُور أبطال الملاحم الأسطورية، فيختلق مسرح الأحداث أو يُزخرفه حتى يُخرجه عن واقعه الجغرافي، ويلهث وراء الغرائب التي يرويها القُصّاص والوعّاظ، لتقديم المَثَل الأعلى الذي لا يُجارى في الأخلاق والإقدام والإخلاص.

فرغبتُ عن ذلك كلّه في ترجمة أبي عُبيدة، لأن الله قد أغناه بما لهُ من المناقب والمحامد عن كلِّ إبداع فنيّ أو تصوير ملحمي. فالتزمتُ الواقع التاريخي، لأنَّ سجلَّ أبي عبيدة حافل بالمُثُل الواقعية التي تُعدُّ أسطورة في حياة أبطال الملاحم.

فقد كان أبو عُبيدة أحد البدريين، وانتصار المسلمين في بَدْر ملحمة ولكن أحداثها واقعية، وكلّ صحابيّ حضر بدراً قدَّم صوراً ملحميّة واقعية، ومشاركة الملائكة في المعركة واقع لأن الله أخبر عنه في القرآن الكريم، وأخبر عنه الرسول الكريم ﷺ وأحسَّ المسلمون آثاره. وإلا كيف تفسّر وقوف ٣١٩ مسلماً، أمام ألف مشرك؟ وكان المسلمون في فقرٍ وقلة عتاد ولم يكونوا

خارجين لقتال.. وكيف تفسّر كثرة القتلى والأسرى من المشركين؟ إنها ملحمة، ولكنها واقعية.. وكل من حضرها من المسلمين أنزل الله عليه من الشجاعة والثبات ما لا يكون عند الأمم الأخرى إلا من نسج الخيال. ولذلك رفضتُ قول الرواة إن أبا عبيدة قتل أباه يوم بَدْر، لأنه خبرٌ لم يَثْبُتْ، ولأن نسبة الفعل إلى أبي عُبيدة لا يزيده رفعة وشجاعة عما كان منه يوم بدْر.

وثباتُه في أُحد للدفاع عن رسول الله ﷺ ساعة تولّى جَمْعُ المسلمين، يُعدُّ من المواقف النادرة في حياة الأبطال، وفيه فضيلة لا تضاهيها ولا تقاربها فضيلة، وهي تعليل هَتْمه بنزع حلقتين من وجه رسول الله ﷺ.

وهزيمة مئات الألوف من الروم في اليرموك بالقلَّة القليلة من المسلمين ليس لها مثيل في تاريخ الأمم القديمة والحديثة، فكيف لا يكون المجد إذا كان أبو عبيدة أمير المؤمنين في هذه المعركة.

وثباتُه يوم الطاعون مع المسلمين يواسيهم ويخفف مصابهم ويدفن شهداءَهم، يندر أن يوجد له مثيل في تاريخ القوّاد والأبطال...

إنَّها مُثُلٌ عليا حقيقية، يعجز الخيال الأدبي والخلْق الملحمي أن يأتي له بمثيل.. ولو تناوله الأسلوب الروائي بما له من الخصائص لأفسده، لأنَّه يكون قد صنع خيال الخيال، وأسطورة الأسطورة، وهذا فاسدٌ.

وبَعْدُ: فقد كانت النيَّة بنظم أبي عُبيدة في عِقْد «أعلام المسلمين» معقودة منذ سنوات خلت، عندما كنت مجاوراً في المدينة النبوية، وكان الأستاذ محمد علي دولة يستعجلني للكتابة، ولكنني أجَّلتُ البدء وسوَّفت في الوفاء، لأنني أومن بوجوب معايشة البيئة الجغرافية التي تكتب عن تاريخها، وتاريخ رجالاتها، لأنها تمكّنك من الوصول إلى درجة من التمثُّل (المحاكاة) تستطيع بها أن تتذوّق طعم الحياة التي كان يعيشها أولئك الأقوام، فتكتب عن الحدث التاريخيّ وكأنّك تراه ساعة وقع.

وقد عاش أبو عُبيدة أحداث حياته في مكّة، والمدينة النبويّة، والشام.

أما مكة، فقد أكرمني الله بقصدها والعيش فيها مرات كثيرة، للحج والعمرة. وفي كل مرة أقصد فيها مكة كنتُ أرجع إلى المصادر التاريخية والجغرافية التي تتحدَّث عن مكّة في القرن الأول، فإذا نزلت مكة تمثَّلت حال الناس الأوائل،

واجتهدتُ أن أعيش في أماكن وجودهم، حتى ارتسمت مكة القديمة في مخيلتي فلا تكاد تفارقها.

وأما المدينة النبويّة، فقد جاورتُ فيها خمسة وعشرين عاماً، وكتبتُ مجلَّدات في تاريخها القديم، وجغرافيَّتها القديمة، حتى غابت عن عيني معالمها الحديثة وشوارعها الواسعة، ومسجدها في توسُّعاته التركية والسعودية، وما أكاد أرى منها إلا قديمها.

ولم يبقَ إلا الشام وهو مسرح أحداث كبرى في حياة أبي عُبيدة، وفي الشام موطني، ومسقط رأسي ومرابع طفولتي وشبابي ومنهل علْمي، ولكنني غبتُ عنه طويلاً، ومن سنة ١٣٨٤ ـ ١٤١٤هـ ما أُلمَّ به إلا مصطافاً مستجماً زائراً للأهل. والمعايشة تفرض الملازمة الطويلة والسكن. فلما كتب الله لي العودة إلى أرض الشام، عاودتني الهمة، للوفاء لأبي عُبيدة بحقّه علي. وفضل أبي عبيدة عليّ كبير فهو من الرجال الذين حرَّروا شامنا من ظُلم الروم، وأعادوه إلى الجزيرة العربية الأم، وجمعوا شمل أبنائه بأبناء عمّتهم في قلب الجزيرة، ونقلوا إلينا نور الهداية الذي أُوحي به إلى نبيِّنا محمد ﷺ.

فاتَّخذت في (داريّا) الشام دار إقامة، وهي من المسارح التي شهدت أحداث فتح الشام بقيادة أبي عبيدة، وكانت داريَّا من مواطن الجيل الأول من القبائل اليمانية التي هبَّت للجهاد والانضمام إلى أبناء عمّهم الذين سبقوهم في سكنى الشام قبل

الإسلام.. فَنَزَلَتْ في داريا قبيلة خولان، وفيها استقرَّ سيد التابعين في الشام أبو مسلم الخولاني. ومن داريا قمت برحلات لتتبّع آثار الفاتحين، فطوَّفت بأبواب مدينة دمشق القديمة ووقفتُ طويلاً عند باب الجابية الذي دخل منه أبو عبيدة يوم الفتح وعرَّجت على مرج الصَّفَّر، ورحلتُ إلى بُصرى ونواحي اليرموك وديار حوران، وعاصمتها (أذرعات) درعا. وزرتُ غور الأردن الشرقي، حيث يرقد أبو عبيدة، ووصلتُ إلى وادي العربة من الناحية الشرقية، وقصدتُ لواء غزَّة لأرى موقع (دائن) بالقرب من دير البلح، فإن كنتُ قد وفيتُ أبا عبيدة حقَّه في هذا الكتاب، فذلك فضْلٌ من الله، وإن قصَّرتُ، فهو جهد مُقِلٍّ تضاءل أمام عظمة المطلوب.

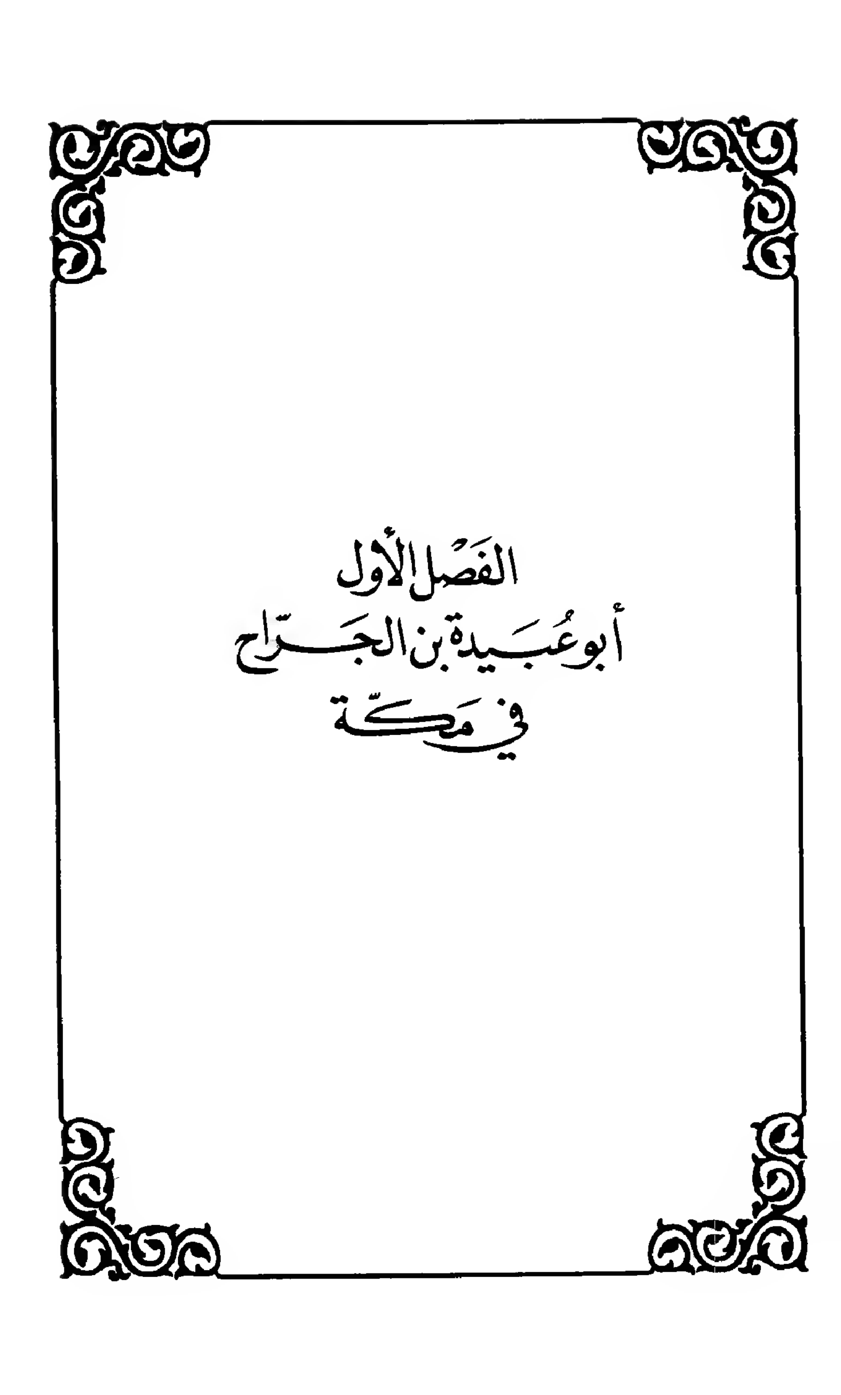
وماذا ينفع أبا عبيدة مدحي له، بعد قول الله تعالى في أصحاب رسول الله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ...﴾ [آل عمران: ١١٠] وبعد قول رسول الله ﷺ: «لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجرَّاح».

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

محمد محمد حسن شرّاب

داريا ـ الشام





الفصل الأول
أبو عبيدة بن الجراح
في مكة



أبو عُبَيدة بن الجَرّاح في مَكّة

١ ـ الموطن الأول (مكّة):

وهو أشهر أسمائها وأكثرها استعمالاً.

و«مكة» بدون وصف. وقولهم: «مكة المكرَّمة» وصف زائد على الأصل، نشأ في القرون المتأخّرة. وذكرها القرآن بلفظ «مكة» فقال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ [الفتح: ٢٤].

وذكرها القرآن بلفظ «بكة» فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦].

وذُكِرَت في القرآن بلفظ «أم القُرى» بقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢].

وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ وهو مكة.

وتحرر عندنا أن لها اسماً واحداً، هو مكة، أو بكَّة، فهما لغتان لِعَلم واحد. فالميم والباء تتعاقبان في لغة الغرب، مثل قولهم: أمر راتِب وأمر راتم، والنبيط والنميط ـ في اسم موضع بالدهناء.

أما «أم القرى» و«البلد الأمين» فهما صفتان، لخاصيتين في مكة. أما «أم القرى» فلأنها أعظم القرى شأناً.

وأما كونه «أميناً» فهو فَعِيْل بمعنى مفعول، من أَمنه، لأنَّه مأمون الغوائل، كما وُصِف بالآمن في قوله تعالى: ﴿حرماً آمناً﴾ بمعنى ذي أَمْن.

ومكَّة: مِن أقدم مدن الأرض، وقد تكون أقدم مدينة فتاريخها المعروف المدون من عهد إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام حوالي سنة ١٩٠٠ ق.م.

ولكن وجودها سابق على هذا التاريخ، بوصفها دوحة عامرة بالسكان، يقصدها الناسُ من كلّ فجّ عميق.

بدليل أن البيت العتيق (الكعبة) كان موجوداً قبل إبراهيم، لقوله تعالى على لسان إبراهيم ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧] وكان دعاء إبراهيم ساعة وضع ابنه إسماعيل وأمّه هاجر في بقعة مكة، ولم يكن بناءُ إبراهيم قد حصل بَعْدُ. ولم يكن اختيار إبراهيم بقعة مكة

لإسكان ابنه وأمّه فيها، من رأيه، وإنما كان وحياً من الله، ومن حكمة اختيار هذا الموضع: تجديد وإحياء مكان البيت العتيق، بَعْد خرابه وخلوّه من السكان مدة لا يعلمها إلا الله.

وقد أفادت الدراسات الجيولوجية والتاريخية، أن صحارى بلاد العرب وأرضها القفراء اليوم، كانت في عهد من عهود التاريخ مروجاً خضراء آهلة بالسكان، لأن غيوم الرياح الغربية الشمالية كانت تصل إلى وسط الجزيرة قبل أن تفقد رطوبتها، فتنهال الأمطار على قممها العالية وتجري في وديانها أنهاراً، فتروي أراضيها وتسقي مروجها. ولعلَّ عُمقَ الأودية التي نشاهدها اليوم ما يشير إلى شيء من حقيقة هذا الرأي.

وذكر الله في القرآن أقواماً من الجاهلية الأولى البعيدة، أنهم كانوا أهل صناعة وزراعة، ولكن مواطنهم اليوم خالية من آثار الناس.. من هؤلاء قوم عاد، حيث قال: ﴿ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الشعراء: ١٣٢ ـ ١٣٤].

وقوم ثمود حيث قال: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ [الشعراء: ١٤٦ ـ ١٤٨].

وذكر القرآن ما بين اليمن والشام فقال: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا

لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [سبأ: ١٨].

فقول إبراهيم: ﴿ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾ يعني في زمانه، ولا يمنع هذا أنها كانت عامرةً فيما خلا من الأيام.

بدليل أن البيت العتيق (الكعبة) كان موجوداً قبل إبراهيم، وأن الأنبياء كانوا يحجُّونه، ولا يعلمون مكانه حتى بوَّأه الله لإبراهيم وأعلمه مكانه[1].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾ [آل عمران]، والأولية تعمّ المواطن كلها التي يسكنها ناسٌ من خلق الله. وقال ﴿للناس﴾ وهو جنس يدلُّ على الكثرة، وهذا يقتضي وجود العمران والسكان.

ونحن نعتقدُ أن الموطن الأول لآدم على الأرض، قد كان في مكة. وقوله تعالى ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [البقرة: ٢١٣] هذه الأمة كانت في مكة ونواحيها، وهي الأُمَّة العربية، ومنها تشعَّبت الشعوب، وانتشرت في الأرض للاستيطان. وكانت اللغة العربية هي اللغة الأمّ، ومنها نشأت اللهجات واللغات، لتباعد الشعوب، وانقطاع التواصل بين الأصل والفرع. والله أعلم.

---

(١) فتح الباري: ٦/ ٤٠٢.

وفي التاريخ المحقق الثابت أن أول مَنْ سكن بقعة مكة بعد خرابها، إسماعيل وأمُّه هاجر. حيث جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل ـ وهي تُرضعه ـ من فلسطين، حتى وضعها عند البيت عند دوحةٍ، وليس بمكة يومئذٍ أحدٌ وليس بها ما، فوضعهما هنالك ووضع عندهما جراباً فيه تمرٌ وسقاءٌ فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقاً، فتبعتْه أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم، أين تذهبُ وتتركنا بهذا الوادي الذي ليسَ فيه إنسٌ ولاشيء.. وجعلت أم إسماعيل تُرضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما في السقاء، عطشت وعطش ابنها، وجعلتْ تنظر إليه يتلوَّى، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، حتى وصلت إلى جبل الصَّفا تنظر هل ترى أحداً، وفعلت ذلك بين الصفا والمروة سبع مرات ـ فذلك سَعْي الناس بينهما ـ وفي آخر الشوط السابع، وَجَدَتْ ماءَ زمزم قد تفجَّر، فشربتْ وأرضعتْ ابنها.. فكانت كذلك حتى مرَّت رُفقةٌ من جُرْهُم فرأوا طائراً عائفاً، فقالوا: إنَّ هذا الطائر ليدور على ماء، لَعَهْدُنا بهذا الوادي، وما فيه ماء؛ فأرسلوا من يستطلع لهم الأمر، فرجع فأخبرهم بالماء، فأقبلوا، وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم. فنزلوا، وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا

معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشبَّ إسماعيل، زوَّجوه امرأة منهم[1].

وفي رواية البخاري: «وشبَّ الغلامُ وتعلَّم العربية منهم» أي: مِنْ جُرهم.

وتأويل هذا أنَّه أخذ لهجتهم التي تسمى العربية، فلغة إبراهيم وإسماعيل وهاجر كانت عربية أيضاً، ولكنهم كانوا يتكلَّمون اللهجة العربية الكنعانية، وهي إحدى لهجات العربية القديمة التي سبقت العربية القرآنية، كما أن عربية جُرهم، ليست هي العربية القرشية القرآنية، وإنما هي لهجة أو طَور من أطوار العربية.

والتقاء إسماعيل بقبيلة جُرهم، هو التقاء الفرع بالفرع، فإبراهيم عربي أمُّوري هاجرَ قومُه من جنوب الجزيرة العربية إلى وادي الرافدين منذ أربعة آلاف سنة قبل الميلاد أو يزيد، وقبيلة جرهم أيضاً عربية يمانية من الجنوب، وهو تفسير قوله تعالى: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الحج: ٧٨] في خطاب عرب صدر الإسلام.

---

(١) البخاري، كتاب الأنبياء، باب ٩؛ وهذا هو الصحيح. أما قول التوراة الكاذبة، أن أمه زوَّجته امرأة مصرية، فلا يصحُّ.

وتفسير قول رسول الله ﷺ لقوم من قبيلة أَسْلَم الخُزاعية: «إنَّ أباكم إسماعيل كان رامياً»[1]. وقول أبي هريرة في قصة هاجر: «فتلك أُمُّكم يا بني ماء السماء» في خطاب الأوس والخزرج. فالعربُ أُمَّة واحدة، ليس فيها عربٌ «مستعربة» كما يزعم النسَّابون. فنسل إسماعيل عربي أصيل وليس مستعرباً، وإنما قال النسَّابون ما قالوا، لجهلهم بأصول العرب الأموريين والكنعانيين، وجهلهم بلغاتهم.

وبعد أن عمرت مكة بجُرهم، ونَسْلِ إسماعيل مدةً لا يعلمها إلا الله، سادتْ في مكة قبيلة تُسمَّى خزاعة، ثم جاءَت قريش، بدءاً بقصيّ بن كلاب.

وقريش لقب وُضِعَ لعدد من البطون التي يتصل نسبها بإسماعيل بن إبراهيم، ولا يُعلم على وجه اليقين متى بدأ هذا اللقب، ومَنْ أول مَنْ تلقَّب به.

فقيل: أول مَنْ نُسبَ إلى قريش قُصيّ بن كلاب. وأنه عندما فرغ من نفي خُزاعة من الحرم تجمَّعت إليه قريش، فسمّيت يومئذٍ قريشاً لحال تجمُّعها، والتقريش: التجمع. وقيل: لتلبُّسهم بالتجارة، وقيل: من التقريش وهو أخْذ الشيء

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب ١٤.

أولاً فأول. وقيل: قريش: دابة في البحر، لا تدع دابةً في البحر إلا أكلتها، فجميع الدواب تخافها... وهناك أقوال أخرى في «أول مَن تسمَّى قريشاً» وفي «علَّة الاسم»، وليس فيها قولٌ أقوى من قول، فكلُّها اجتهادات تعتمد على معنى من معاني الاسم المفترضة.

وكان المسجد الحرام - منذ بنى إبراهيمُ الكعبة إلى أن آل الأمر إلى قصيّ بن كلاب - الجد الخامس للرسول ﷺ - فسحةً واسعة حول الكعبة، ولم يكن حول الكعبة دُورٌ مشيدة، أو جدار محاطة بالمسجد الحرام، حيث كانت القبائل التي قطنت مكة - من جرهم، وخزاعة وقريش - يسكنون في شعاب مكة، ويتركون حول الكعبة تعظيماً لشأنها. فلمَّا آل الأمر إلى قُصيّ واستولى على مكة، وعلى مفتاح الكعبة من خزاعة، جمع قومه من بطون قريش وأمرهم أن يبنوا بمكة حول الكعبة بيوتاً من جهاتها الأربع، حيث كانوا يقطنون ظاهر مكة وشعابها، وكانوا إذا أرادوا دخول مكة، لا يدخلون على جنابة، ولا يقيمون بها إلا نهاراً، فإذا أَمْسَوْا خرجوا إلى الحلِّ. فقال لهم قصيّ: إن سكنتم حول البيت هابتكم الناس، ولم تستحلّ قتالكم.

فبدأ قصيّ أولاً، وبنى دار الندوة في الجانب الشمالي، ثم قسَّم قُصي باقي الجهات بين قبائل قريش. فبنت قريش دورها

حول الكعبة وشرعت أبوابها نحو الكعبة، وتركوا للطائفين مقدار مدار المطاف، وجعلوا بين كل دارين من دورهم مسلكاً شارعاً فيه باب يُسلك فيه إلى المطاف، وجعلوا بناء الدور مدوَّراً، حتى لا يكون بينها وبين الكعبة شَبَهٌ في البناء من جهة التربيع، وجعلوا ارتفاع تلك الدور أقل من ارتفاع الكعبة، ولذلك كانت تُرى الكعبة من أنحاء مكَّة المكرَّمة كلها، لأنَّها كانت أعلى من الدور التي بُنيت حولها.

وسُمِّي كلّ من بنى حول الكعبة بيتاً من قبائل قريش (قُريش البواطن)، ثم تكاثرت البيوت بتكاثر السكان، حتى تعلقت الدور بشعاب مكة في العصر النبويّ.

من هذا يتحرَّر أنه لم يكن في الجاهلية ذِكْرٌ للمسجد الحرام، لأنه لم يكن في التشريع الجاهلي صلاة يؤدُّونها حول الكعبة، وإنَّما كان المعتاد عندهم الطواف حول الكعبة فقط. وكانت لهم مجالس حول الكعبة في الصباح والمساء، ويستظلون من الشمس بظلّها فقد كانوا يتتبعون الأفياء في مجالسهم، ويتحادثون في شؤونهم العامة والخاصة، فإذا ذهب الفيء قامت قريش من مجالسها؛ وكان مدار المطاف في الزمن الجاهلي أشبه بمجلس عمومي يجتمع فيه الناسُ كافة ويتذاكرون في مصالحهم، أما دار الندوة فلم يكن يُسمَح بالدخول فيها إلاَّ لأناس مخصوصين.

فلما جاء الإسلام، واعتنقه أفراد من أهل مكة، وفُرضت الصلاة بعد الإسراء، كان مَن أسلم منهم يستخفي بصلاته عن المشركين في داره وفي شعاب مكة لئلا يناله الأذى من المشركين، ولم يصلّ أحد من المسلمين قبل الهجرة حول الكعبة، إلا ما كان من رسول الله ﷺ، وأبي بكر، وغيرهما على سبيل النادر القليل. فالمسجد الحرام، يُطلَق ويُراد به عين الكعبة، كما قال تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٥٠]؛ إذ لم يقل أحد من المسلمين بالاكتفاء بالتوجُّه إلى استقبال المسجد المحيط بالكعبة، وهذا هو أصل حقيقة اللفظ، وهو المعني بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ [آل عمران: ٩٦]. وهو المعني بقول رسول الله ﷺ لما سأله أبو ذر عن أول مسجد وُضِعَ أول، فقال: «المسجد الحرام».

وقد يطلق المسجد الحرام ويُراد به المسجد المحيط بالكعبة، وهو الغالب في الاستعمال على وجه التغليب المجازي. كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الإسراء: ١]. على قول مَنْ روى أنَّ النبي ﷺ كان نائماً في المسجد المحيط بالكعبة.

وبقي أهل مكة على دين التوحيد بعد اسماعيل دهراً طويلاً، إلى أن جاء عمرو بن عامر بن لُحيّ الخزاعي، فكان أول مَنْ غيَّر

دين إبراهيم، ونصب الأوثان في مكة؛ لما روى البخاري في صحيحه[1]: قال رسول الله ﷺ: «رأيتُ عمرو بن عامر الخزاعي يجرُّ قُصْبَه في النار...».

قيل: إنه خرج إلى الشام وبها يومئذٍ (العماليق)، وهم يعبدون الأصنام، فاستوهبهم واحداً منها، وجاء به إلى مكة فنصبه إلى الكعبة وهو (هُبَل).

(والعماليق) لقب يطلقه العرب على سكان الشام قبل الإسلام، وهناك روايات تعيّن اسم العماليق الذين أخذ منهم الصنم، وهم (المؤابيون) الذين كانوا يقيمون في مملكة (مؤاب) شرقي نهر الأردن. وقد امتدّ وجود المؤابيين قروناً طويلة، ولا يُعرف متى قصد عمرو بن لحي أرضهم، ونميل إلى أن ذلك كان قبل ميلاد المسيح، فقد ذُكر المؤابيون في التاريخ ما بين حوالي ٢٠٠٠ قبل الميلاد، إلى القرن الثاني قبل الميلاد. وذكر اسم (مآب) في الفتوحات، وكان يُراد بها نواحي الكرك في شرقي الأردن. ولكن بلاد الشام أصبحت في العهد الروماني تدين بالنصرانية، ولم يُذكَر أن أهلَ بلدة كانوا يعبدون الأصنام عند فتح الشام. وهذا يدلُّ على أنَّ الوثنية انتقلت من الشام إلى مكة قبل ميلاد المسيح عليه السلام.

---

(١) كتاب (٦١)، باب (٩).

٢ ـ الأصولُ والفروعُ:

أراد الله أن يهجر إبراهيم بلدته (أور) أو (كوثى) على الشاطىء الغربي من نهر الفرات، فارتحل إلى فلسطين، وفيها رزقه اللهُ ببكره إسماعيل من زوجه هاجر الفلسطينية أرضاً، الكنعانية نسباً. ولحكمة أرادها الله تعالى، حمل إبراهيم ابنه الرضيع إسماعيل، وأمّه هاجر، وقدِمَ بهما إلى الحجاز، وأسكنهما بوادٍ غير ذي زرع عن بيت الله المحرَّم، وكان البيت إذاك مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله. فوضعهما عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذٍ أحد، وليس بها ماء. فوضع عندهما جراباً من تمر وسقاءً فيه ماء، ورجع إلى فلسطين. ولم تمضِ أيام حتى نفد الزاد والماء، عندئذٍ تفجَّرت بئر زمزم بفضل الله، فصارت قوتاً لهما وبلاغاً إلى حين. . ثم جاءت قبيلة جُرهم فقطنت مكة بإذن من أم إسماعيل. . ولما شبَّ إسماعيل تزوَّج امرأة من جرهم، وهي ابنة مضاض بن عمر، كبير جرهم وسيدهم.

ورزق الله إسماعيل من ابنة مضاض اثني عشر ولداً ذكراً، تشعَّبت منهم اثنتا عشرة قبيلة سكنت كلها في مكة مدة، ثم انتشرت هذه القبائل في أرجاء الجزيرة، ثم أُدرجت أحوالهم في

غياهب الزمان، إلاَّ أولاد (نابت) و (قيدار).

وقد ازدهرت حضارة أولاد (نابت) الأنباط في شمال الحجاز، واتخذوا البتراء عاصمة لهم، ولم يكن يستطيع أحد مناوأتهم حتى جاء الرومان فقضوا عليهم. ويرى الشيخ سليمان الندوي أن ملوك آل غسان، والأوس والخزرج لم يكونوا من آل قحطان، ولم يأتوا من جنوب الجزيرة، وإنما كانوا من آل نابت بن إسماعيل، وبقاياهم في تلك الديار[1]. وهي نظرية مقبولة، وليس في الأقوال الأخرى ما هو أقوى منها؛ فالقول بأنَّ الأوس والخزرج من اليمن هاجروا بعد خراب سد مأرب، رواية مقصورة على مَن قال بها، وليس لها سندٌ موصولٌ، وليس لها شواهد. ومن شواهد نسبة الأوس والخزرج إلى نبت بن إسماعيل أبيات منسوبة إلى المنذر بن عمر بن حرام، جدّ حسان بن ثابت، حيث يقول:

ورثنا من البهلول عمرو بن عامر
وحارثةَ الغطريف مجداً مُؤَثَّلاً

مآثر من آل النَّبيتِ بن مالك
ونَبْتِ بنِ إسماعيل ما إن تحوَّلا

---

(١) تاريخ أرض القرآن : ٢/٧٨.

وأما قيدار بن إسماعيل فلم يزل أبناؤه بمكة يتناسلون هناك حتى كان منه عدنان وولده (مَعَدّ) ومنه حفظت العرب العدنانية أنسابها، وعدنان هو الجدُّ الحادي والعشرون في سلسلة النسب النبوي.

فهو: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مُرَّة بن كعب بن لؤي، بن غالب بن فهر بن مالك بن النَّضْر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مُضَر بن نزار بن معدّ بن عدنان[1].

ويُظنُّ أنَّ عدنان، كان في زمن بختنصّر، أو نبوخذنصر (٥٥١ق.م). فقد كان عيسى قبل محمد عليهما الصلاة والسلام بحوالي ستمئة سنة، ونبوخذنصر وجد قبل الميلاد بحوالي ستة قرون. والجدود بين محمد وعدنان عشرون جداً، فإذا حسبنا متوسط أعمار الأقدمين ستين سنة، يكون المجموع ١٢٠٠سنة بين محمد ﷺ، وعدنان. والله أعلم.

وقد تفرَّقت بطون معدّ بن عدنان من ولده «نزار» ـ قيل لم يكن لمعدّ غيره ـ فكان لنزار أربعة أولاد، تشعَّب منهم أربعة قبائل عظيمة:

إياد، وأنمار، وربيعة، ومُضَر.

---

(١) البخاري: كتاب(٦٣)، باب(٢٨).

وهذان الأخيران هما اللذان كثرتْ بطونهما واتَّسعت أفخاذهما: فكان من ربيعة: أسد بن ربيعة، وعنزة، وعبد القيس، وبكر وتغلب وحنيفة وغيرها.

وتشعبت قبائل مُضر إلى شعبتين عظيمتين:

قيس عيلان بن مضر. وبطون إلياس بن مضر.

فمن قيس عيلان: بنو سُلَيم، وبنو هوازن، وبنو غطفان. ومن غطفان عبس وذبيان وأشجع.

ومن الياس بن مُضر: تميم بن مُرَّة، وهذيل بن مدركة، وبنو أسد بن خزيمة، وبطون كنانة بن خزيمة.

ومن كنانة: قريش، وهم أولاد فِهْر بن مالك بن النضر ابن كنانة.

وانقسمت قريش إلى قبائل شتى؛ من أشهرها:

جُمح، وسهْم، وعديّ، ومخزوم، وتيْم، وزُهرة، وبطون قصي بن كلاب وهي: عبد الدار بن قُصيّ، وأسد بن عبد العزى بن قصي وعبد مناف بن قُصيّ.

وكان من عبد مناف أربع فصائل: عبد شمس، ونوفل، والمطّلب وهاشم.

وبيت هاشم هو الذي اصطفى الله منه محمداً عليه الصلاة السلام ابن عبد الله بن عبد المطّلب بن هاشم.

ولما كثُر أولاد عدنان تفرَّقوا في أنحاء شتَّى من بلاد العرب. فهاجرت عبد القيس وبطون من بكر بن وائل وبطون من تميم إلى البحرين فأقاموا فيها.

والبحرين هنا المنطقة الشرقية من السعودية وما جاورها.

وأقامت تغلب بالجزيرة الفراتية، وسكنت بنو تميم بادية البصرة.

وأقامت بنو سُلَيْم بالقرب من المدينة (يثرب) من وادي القرى (العلا) إلى خيبر إلى شرقي المدينة إلى حدّ الجبلين.

وسكنت ثقيف بالطائف.

وهوازن في شرقي مكة.

وبقي بتهامة بطون كنانة. وأقام بمكة وضواحيها بطون قريش، وكانوا متفرقين لا تجمعهم جامعة حتى نبغ فيهم قصي بن كلاب فجمعهم، وكوَّن لهم وحدة شرَّفتهم ورفعت أقدارهم.

وَلِيَ زعامة مكة بعد وفاة إسماعيل: ابناه، نابت وقيدار، ثم ولي الأمر بعدهما جدَّهما مضاض بن عمرو الجرهمي، فانتقلت

زعامة مكة إلى جُرهم . . ومضت الدهور والأيام، ولم يزل أمر أولاد إسماعيل ضئيلاً لا يُذكر، حتى ضعف أَمْر جُرهم قبل ظهور بختنصر، وأخذ نجم عدنان السياسي يتألق في سماء مكة منذ ذلك العصر، بدليل ما جاء بمناسبة غزو بختنصر للعرب، فإن قائد العرب لم يكن جرهمياً.

وتفرَّقت بنو عدنان إلى اليمن عند غزوة بختنصر الثانية سنة ٥٨٧ق.م، فلما انكشف ضغطُ بختنصَّر رجع معدّ إلى مكة فلم يجد من جرهم إلا جرشم بن جلهمة فتزوج بابنته معانة فولدت له نزاراً. وساءَ أمرُ جُرهم بمكة بعد ذلك، وضاقت أحوالهم، فظلموا الوافدين إليها، واستحلوا مال الكعبة، فكان هذا يغيظ العدنانيين، ويثير فيهم الحميّة، ولما نزلت خُزاعة بمرّ الظهران ورأت نفور العدنانيين من الجراهمة، قامت بمعونة من بطون عدنان ـ وهم بنو بكر بن عبد مناف بن كنانة ـ بمحاربة جُرهم حتى أجلتهم عن مكة، وسيطرت عليها.

فقال شاعرُ الجراهمة يبكي مجدهم:

كأن لم يكن بين الحُجون إلى الصّفا
أنيسٌ ولم يَسمر بمكّةَ سامرُ

بلى نحن كنّا أهلها فأبادنا
صروف الليالي والجدود العواثرُ

واستبدّت خزاعة بأمر مكة قروناً، حتى ظَهرَ قصيّ بن كلاب فقاد قريشاً ووحَّد بطونها، وطرد خُزاعة، واستولى على زعامة مكة.

٣ ـ الاسم والنسب:

عامر بن عبد الله بن الجرَّاح بن هلال بن أُهَيْب بن ضبَّة بن الحارث بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خُزيمة بن مُدركة بن إلياس بن مُضر بن نزار بن مَعَدّ بن عدنان.

ويقفون في نسبته عند فهْر، فيقولون «الفهري» وقيل: إنَّ «فهر» هو قريش، وأول مَن تلقَّب بقريش.

شُهر بكنيته والنسبة إلى جدّه، فيقال: أبو عُبيدة بن الجرَّاح.

يجتمع مع النبي محمد ﷺ عند «فِهْر» بن مالك.

فالنبيُّ ﷺ من أولاد غالب بن فِهر.

وأبو عبيدة من أولاد الحارث بن فِهْر.

ولم تذكر المصادر التاريخية شيئاً عن نشاط أبي عُبيدة في الجاهلية، فبدأ تأريخ حياته يوم إسلامه. ونقل ابن هشام وغيره، أنَّه أسلم قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم[١] ابن أبي الأرقم.

---

(١) دار الأرقم: كانت على الصفا، أو قريباً منه. وهي الدار التي كان=

٤ ـ ترتيبه في السابقين إلى الإسلام:

لا يُعرف ترتيب أبي عبيدة بين السابقين إلى الإسلام، ولكن ابن هشام في السيرة[١] ذكره في عُصْبة أسلمتْ بعد ثمانية نفر[٢] سبقوا إلى الإسلام، فيهم الأرقم بن أبي الأرقم[٣]، فهل أسلمت هذه العصبة في يوم واحد؟ لا نعرف الجواب، والأرجح أنهم أسلموا متفرّقين في أيامٍ، وكان ترتيبهم بأجمعهم بعد الثمانية السابقين، وقبل مَنْ ذكر بَعدَهم.

فروى ابن سعد في الطبقات[٤] عن عثمان بن الأرقم أنه قال:

= رسول الله ﷺ يلتقي فيها المسلمين سرّاً، قبل إسلام عمر بن الخطاب، أو قبل أن يبلغ عدد المسلمين أربعين رجلاً. ويذكر بعض المؤرخين أن رسول الله ﷺ اتَّخذ هذه الدار مركزاً للدعوة من السنة الخامسة من النبوَّة. وتضاف الدار إلى الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، من السابقين إلى الإسلام توفي سنة ٥٥هـ.

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٢٥٢).

(٢) السابقون إلى الإسلام: خديجة زوج النبي، وزيد بن حارثة، وعليّ بن أبي طالب، وأبو بكر، وعثمان بن عفان، والزبير بن العوَّام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقَّاص، وطلحة بن عبيد الله، وهؤلاء تسعة، والقول إنهم ثمانية، يراد به «من الرجال أو من الذكور».

(٣) هم: أبو عبيدة، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد، زوج أم سلمة، والأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، وعثمان بن مظعون، وعُبيدة بن الحارث بن عبد المطَّلب، وسعيد بن زيد، وخباب بن الأرتّ.

(٤) طبقات ابن سعد: ٣/ ٢٤٢.

أنا ابن سابع سبعة في الإسلام، أسلم أبي سابع[1] سبعة، وكانت داره بمكة على الصفا وهي الدار التي كان النبي ﷺ يكون فيها أول الإسلام، وفيها دعا الناسَ إلى الإسلام، وأسلم فيها قوم كثير.. ودُعيتْ دارُ الأرقم دار الإسلام. وإذا كان الأرقم سابع سبعة، فما ترتيب أبي عبيدة بين الرجال الذين ذُكِروا معه؟ ليس عندنا رواية مسندة تخبر عن ترتيبه[2]، ويكفيه سابقة أن يكون ممن التقاهم رسول الله ﷺ في دار الأرقم، قبل أن يبلغ المسلمون أربعين رجلاً، وأنه صاحبُ رسول الله ﷺ من أول الدعوة، وأنه حفظ القرآن منذ تباشير فجره الأولى.. وأوذي في سبيل الله، فصبر. ونقل ابن سَعْد[3] أنه هاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية في رواية محمد بن إسحاق، ومحمد بن عمر، ولم يذكره موسى بن عُقبة.

وقال الذهبي: إن كان هاجر إلى الحبشة، فإنه لم يُطلْ بها اللَّبث[4].

---

(١) قوله: سابع سبعة، يريد سابع سبعة من الرجال، ولا يعدّون علياً لكونه كان صبياً في حجر النبي، ولا يعدُون زيد بن حارثة لكونه مولى رسول الله ﷺ ومن أهل بيته.

(٢) زعم عبد الرحمن الباشا في كتابه «صور من حياة الصحابة، أنه أسلم في اليوم التالي لإسلام أبي بكر، وليس فيما أخبر به سندٌ صحيح.

(٣) انظر الطبقات (٣/ ٤١٠).

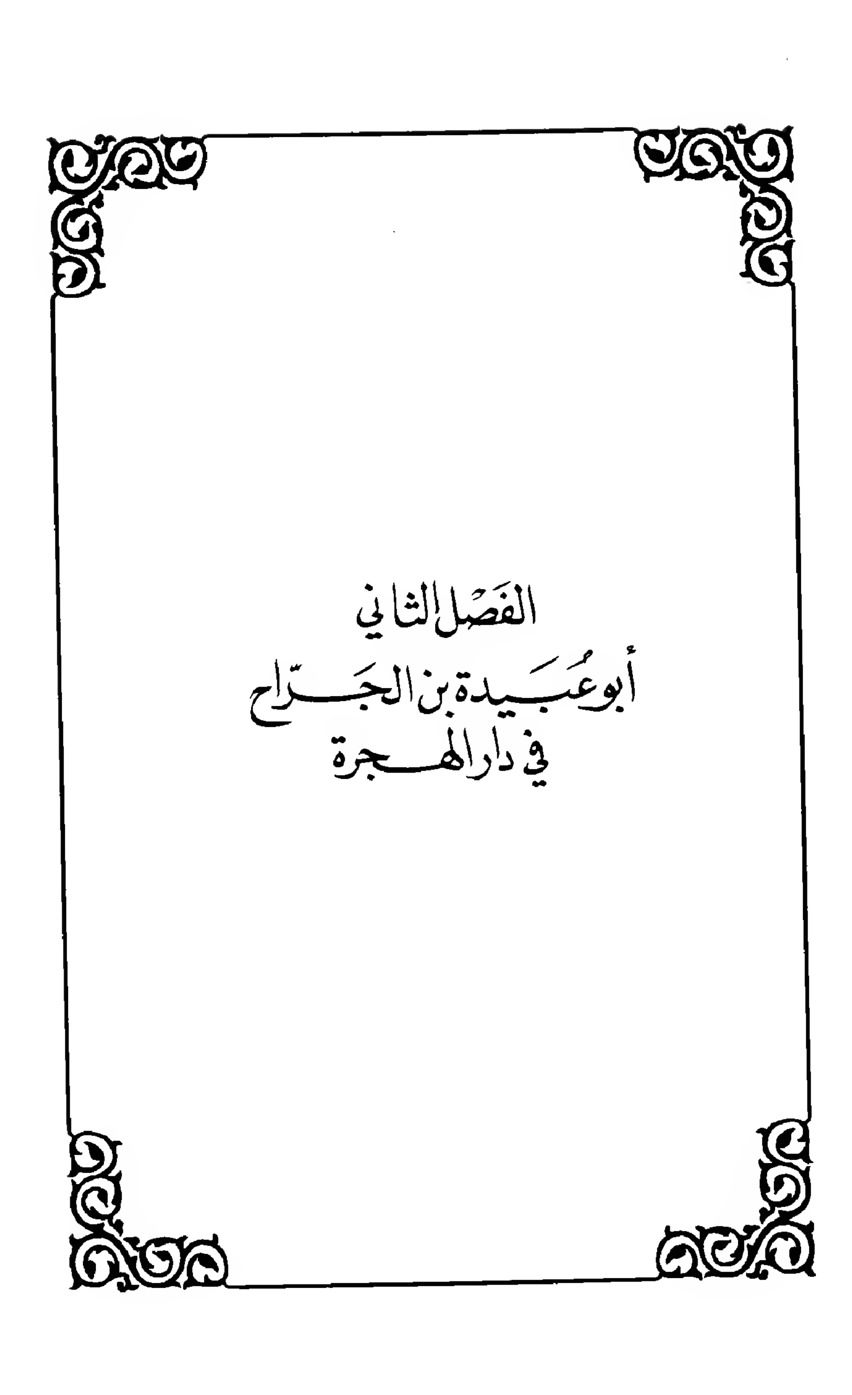
(٤) انظر: السير (١/ ٨).

قلتُ: لعله هاجر إلى الحبشة الهجرة الأولى، وعاد مع العائدين إلى مكة، ولم يرجع إلى الحبشة[1].

* * *

(١) كانت بداية اضطهاد المسلمين في مكة أو اخر السنة الرابعة من النبوة، واشتدَّت في أواسط السنة الخامسة، وفي رجب سنة خمس من النبوة هاجر أو فوج من الصحابة إلى الحبشة، وكان عددهم اثني عشر رجلاً وأربع نسوة. . . فبلغهم أن قريشاً قد أسلمت فرجعوا إلى مكة في شوال من السنة نفسها، فلما كانوا دون مكة ساعة من نهار، عرفوا أن قريشاً ما زالت على كفرها، فرجع منهم مَنْ رجع إلى الحبشة، ودخل مَنْ دخل مستخفياً، أو في جوار رجلٍ من قريش.. ثم اشتدَّ عليهم وعلى المسلمين البلاء، فأشار عليهم رسول الله ﷺ بالهجرة إلى الحبشة مرة أخرى، فهاجر من الرجال ثلاثة وثمانون رجلاً وثماني عشرة امرأة.





الفَصْل الثاني

أبو عُبَيدة بن الجَرّاح في دار الهجرة



أبو عُبَيدة بن الجَرّاح في دار الهجرة

١ ـ مقدّمات الهجرة إلى المدينة:

في آخر السنة العاشرة من المبعث توفي أبو طالب ـ عم النبيّ ﷺ ـ فحزن لوفاته، لأنه كان يحوط النبيّ ويغضب له، ويردُّ عنه كلَّ مَنْ يؤذيه.

عندئذٍ خرج رسول الله ﷺ إلى ثقيف بالطائف يدعوهم إلى نصره، فلما امتنعوا منه، رجع إلى مكة، فكان يعرض نفسه على قبائل العرب في مواسم الحج. وقدَّر اللهُ أن يلتقي قوماً من الخزرج ـ سكان يثرب ـ فلما رآهم النبيُّ ﷺ قال: مَنْ أنتم؟ قالوا: من الخزرج. قال: أفلا تجلسون أحدّثكم؟ قالوا: نعم. فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. وكان مما صنعَ الله لهم، أن اليهود كانوا معهم في بلادهم ـ وكانوا أهل كتاب ـ وكان الأوس والخزرج أكثر منهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا: إنَّ نبيّاً سيُبعثُ الآن، قد أظلَّ زمانُه، نتبعه، فنقتلكم معه. فلما كلَّمهم النبيُّ عرفوا النعت، فقال

بعضهم لبعض: لا تسبقنا إليه يهود، فآمنوا وصدقوا، وانصرفوا إلى بلادهم ليدعوا قومهم، فلما أخبروهم لم يبقَ دورٌ من قومهم إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ.

«وكان يوم بُعاث[1]، يوماً قدَّمه الله لرسوله، فقدم رسول الله ﷺ المدينة وقد افترق ملؤهم ـ الأوس والخزرج ـ وقُتِلَتْ سرواتُهم وجرحوا، فقدّمه الله لرسوله في دخولهم في الإسلام»[2].

وقد مرَّ لقاء رسول الله ﷺ الأنصار بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى:

مرحلة اللقاء الأول، عندما عرض عليهم الإسلام لأول مرَّة، في السنة العاشرة من المبعث، وكانوا ستة نفر من الخزرج..

---

(١) يوم بُعاث: من أيام الحرب بين الأوس والخزرج قبل الإسلام، وهو آخرها، كان قبل الهجرة بخمس سنوات. وبُعاث: مكان في المدينة أُضيف اليوم إليه.

(٢) صحيح البخاري، كتاب (٦٣)، باب (١). إنَّ مقتل رؤساء الأوس والخزرج في «بُعاث» خفف من التزاحم على الزعامة والأنفة من الدخول في الإسلام خوف فقدان السلطان والزعامة، وما كان عِنادُ زعماء مكة إلاَّ لهذا السبب.

المرحلة الثانية: بيعةُ العقبة[1] الأولى:

في اللقاء الأول بين رسول الله ﷺ، وأهل يثرب، أسلم تسعة نفر، في موسم الحج سنة ١١ من النبوة، وواعدوا رسول الله ﷺ إبلاغ رسالته إلى قومهم. وكان من أثر ذلك أن جاء في الموسم التالي - موسم الحج سنة ١٢ من النبوّة، تموز سنة ٦٢١م - اثنا عشر رجلاً منهم خمسة من الستة، وسبعة غيرهم. فيهم اثنان من الأوس، والبقية من الخزرج، فاتَّصل هؤلاء برسول الله ﷺ عند العقبة بمنى، فبايعوه. وبَعَثَ معهم مُصعب بن عُمير، ليعلِّم المسلمين شرائع الإسلام ويفقِّههم في الدين، ولينشر الإسلام بين الذين مازالوا على الشرك.

المرحلة الثالثة: بيعة العقبة الثانية:

في موسم الحج في السنة الثالثة عشرة من النبوة - حزيران ٦٢٢م - حضر لأداء مناسك الحج بضعٌ وسبعون نفساً من

---

(١) العقبة: الجبل الطويل يعرض للطريق فيأخذ منه، والعقبة: طريق في الجبل وَعْرٌ. والعقبة التي بويع رسول الله ﷺ فيها، بين مكة ومنى، وفيها الجمرة الكبرى، وهي مدخل منى من الغرب وحدّه الغربي. وقولهم: بيعة العقبة الأولى: «الأولى» وصف لبيعة، فهناك البيعة الأولى في العقبة، والبيعة الثانية في العقبة أيضاً.

المسلمين من أهل يثرب.. وجرت اتصالات سريَّة أدَّت إلى اتّفاق الفريقين على أن يجتمعوا في أوسط أيام التشريق في الشعب الذي عند العقبة، حيث الجمرة الأولى من منى، وتمَّت البيعة الثانية[1]:

* على السمع والطاعة في النشاط والكسل.
* وعلى النفقة في العسر واليسر.
* وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
* وعلى أن تقوموا في الله لا تأخذكم في الله لومة لائم.

وبعد أن تمَّت البيعة طلب رسول الله انتخاب اثني عشر زعيماً يكونون نُقباء على قومهم يكفلون المسؤولية عنهم في تنفيذ هذه البيعة، فكانوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس.

٢ ـ طلائع الهجرة إلى المدينة:

بعد أن تمت بيعة العقبة الثانية، ونجح الإسلام في تأسيس وطن له، وسط صحراء تموج بالكفر والجهالة، أذن رسول الله ﷺ للمسلمين بالهجرة إلى هذا الوطن «يثرب».

وفي يوم الإثنين ثامن ربيع الأول سنة من ١٤ من النبوة،

---

(١) رواه الإمام أحمد بإسناد حسن، وصحَّحه الحاكم وابن حبَّان.

السنة الأولى من الهجرة ـ ٢٣/ ٩/ ٦٢٢ م ـ وصل رسول الله ﷺ قرية قباء في عوالي المدينة النبويّة.

بدأت هجرة المسلمين قبل هجرة النبي ﷺ، وتابع المسلمون هجرتهم من بَعْد، ولم تنتهِ الهجرة إلا يوم فتح مكة «لا هجرة بعد الفتح».

واختيار المدينة دار هجرةٍ، لم يكن اختياراً بشريّاً، وإنَّما هو بوحي إلٰهي، لما في الحديث الصحيح: «رأيتُ في المنام أني أُهاجر من مكة إلى أرض بها نخل فذهب وهلي إلى أنها اليمامة أو هجر فإذا هي المدينة»[١].

والحديث «إنّي أُريتُ دار هجرتكم ذات نخلٍ بين لابتين».

وروى البخاري خبر أوائل المهاجرين عن البراء بن عازب قال: أوّل مَنْ قدِمَ علينا مُصعب بن عمير[٢]، وابنُ أم مكتوم،

---

(١) البخاري ـ فتح الباري (٧/ ٢٢٦)؛ وصحيح مسلم (٤/ ١٧٧٩).

(٢) هناك روايات تقول: إنَّ أول مَنْ قدم المدينة من المهاجرين أبو سلمة بن عبد الأسد، والصحيح هو ما رواه البخاري، أما أبو سلمة فإنه توجَّه إلى المدينة بعد العقبة الأولى فراراً من أذى المشركين، قبل أن يؤذن بالهجرة. ورواية البخاري تنصُّ على الذين هاجروا بأمر رسول الله، للإقامة في المدينة.

وكانوا يُقرئون الناس، فقدم بلالٌ وسعد وعمار بن ياسر، ثم قدم عمر بن الخطاب في عشرين من أصحاب النبيّ ﷺ، ثم قدم النبيُّ . . »[1].

وقد ذكر ابن حجر[2] أسماء ثلاثة عشر رجلاً ممن رافقوا عمر بن الخطاب في الهجرة، ولم يذكر منهم أبا عبيدة بن الجرَّاح.

أما في السيرة النبويَّة لابن هشام ـ باب «ذكر المهاجرْين إلى المدينة» ـ فذكر أسماء المهاجرين ومنازلهم في المدينة، ولم يذكر منهم أبا عبيدة.

ولم أجد مصدراً يحدّد يوم وتاريخ هجرة أبي عبيدة، مع أنه كان من السابقين الأولين إلى الإسلام، وثبت أنّ له مكانة كبيرة عند رسول الله ﷺ، فلماذا سكت المؤرخون عن ذكرِ اسمه في المهاجرين؟

واكتفى ابن سعد بذكْر هجرته فقال: لما هاجرَ أبو عبيدة بن الجرَّاح من مكة إلى المدينة، نزل على كلثوم بن الهَدْم[3]. ولم

---

(١) كتاب مناقب الأنصار، باب(٤٦).

(٢) الفتح (٧/ ٢٦١).

(٣) الطبقات لابن سعد (٣/ ١٠).

يحدد تأريخاً أو يوماً، أو رفقة.

والذي أستطيع أن أجزم به أنَّ أبا عبيدة هاجر قبل هجرة النبيّ ﷺ إلى المدينة. لأن ابن سعد قال: «وخرج المسلمون جميعاً إلى المدينة، فلم يبقَ بمكة منهم إلا رسول الله، وأبو بكر وعليّ، أو مفتون محبوس، أو مريض، أو ضعيف عن الخروج». ولم يكن أبو عبيدة واحداً ممن ذكرهم ابن سعد. فلم تذكر المصادر أن أبا عبيدة لقي أذى من أهله الأقربين بعد إسلامه، ولم يكن لبني فهر زعامة في قريش يحرصون عليها ويدافعون عنها، وتجعلهم يشاركون في إيذاء مَنْ أسلم من قومهم. وذكر ابن سعد عدداً من بني فهر السابقين إلى الإسلام الذين شهدوا معركة بَدر[١]، وأهل بدر في الطبقة الأولى من المسلمين.

٣ ـ المؤاخاة:

استقبل الأنصار إخوانهم المهاجرين بكرم الضيافة، والودّ والإيثار، وفتحوا لهم بيوتهم. فأنزل كلُّ صاحب سَعَةٍ من الأنصار، رجالاً من المهاجرين في بيته، فآووهم ونصروهم وآسوهم، وصاروا في أكرم نُـزُل.

---

(١) المرجع السابق (٣/٤٠٩ ـ ٤١٨).

ونقل ابن سعد أن أبا عبيدة لما هاجر من مكة إلى المدينة نزل على كُلْثوم بن الهدْم الأوسي[1].

وبعد وصول رسول الله ﷺ إلى دار الهجرة، آخى بين المهاجرين والأنصار على المواساة وكانوا يتوارثون، إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥]. فألغي التوارث، وبقيت المواساة والمؤازرة والإعانة في النفقة إلى حين اليُسر. قال السهيلي: آخى رسول الله بين أصحابه ليُذهب عنهم وحشة الغربة ويستأنسوا من مفارقة الأهل والعشيرة، ويشدّ بعضهم أزر بعض، فلما عزَّ الإسلام واجتمع الشمل وذهبت الوحشة، أبطل المواريث وجعل المؤمنين كلهم أخوة، وأنزل الله ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ . . .﴾ [الحجرات: ١٠] يعني في التوادد وشمول الدعوة.

وصورة المؤازرة التي تمت، قدَّم البخاري مثالها فيما رواه في كتاب مناقب الأنصار، باب «إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار».

---

(١) كلثوم بن الهدْم بن امرىء القيس الأوسي. كان شيخاً كبيراً، ومات بَعْد قدوم رسول الله ﷺ بيسير. وهو أول مَنْ مات من الأنصار في الإسلام.

قـال : «لما قدم المهاجرون المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع الأنصاري. فقال لعبد الرحمن: إني أكثر الأنصار مالاً فاقسم مالي نصفين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك وسمها لي أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها. قال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك. أين سوقكم؟ فدلُّوه على السوق- يريد العمل في التجارة -..».

وروى البخاري عن أبي هريرة قال: قالت الأنصار: اقسم بيننا وبينهم النخْل، قال رسول الله: لا. فقال الأنصار: تكفونا المؤونة ونشرككم في الثمرة. قالوا: سمعنا وأطعنا..

وقد اختار رسول الله ﷺ لكل مهاجر أنصارياً يؤاخيه، لتوزيع المؤونة على الأنصار كافة، وإشعار كل أنصاريّ أن عليه واجباً، وأنه نال حظه من المشاركة في شرف النصرة.

واختلف الرواةُ في ابتداء المؤاخاة، فقيل: بعد الهجرة بخمسة أشهر، وقيل: بتسعة أشهر، وقيل: وهو يبني المسجد، وقيل: قبل بنائه، وقيل: قبل بدر بسنة وثلاثة أشهر.

وليس عندنا أسانيد صحيحة بأسماء المهاجرين وإخوانهم من الأنصار إلا ثلاثة: عبد الرحمن بن عوف، وأخوه سعد بن الربيع. وسلمان الفارسي، وأخوه أبو الدرداء. وثالثهم صاحبنا أبو عبيدة بن الجراح:

روى مسلم في الصحيح عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ آخى بين أبي عبيدة بن الجراح وبين أبي طلحة[1] ـ باب مؤاخاة النبي بين أصحابه ـ ورواه أيضاً الإمام أحمد[2].

ونقل ابن سعد في الطبقات «أن رسول الله ﷺ آخى بين أبي عُبيدة بن الجرَّاح وسالم مولى أبي حُذيفة».

ونقل ابن حجر عن الواقدي أن رسول الله ﷺ آخى بين أبي عبيدة وبين سعد بن معاذ[3].

ورواية الواقدي تخالف الروايات الصحيحة، فسعد بن معاذ، أنصاري، وأبو طلحة أنصاري؛ وشهد بأخوّة أبي طلحة لأبي عبيدة أعلام الرواة الصادقين الموثوقين. والواقدي لا يُؤخَذُ قوله إذا تفرَّد، فكيف إذا عارض الروايات الصحيحة؟.

---

(١) أبو طلحة: اسمه زيد بن سهل بن الأسود الخزرجي. هو زوج أم سُليم بنت ملحان، أم أنس بن مالك خادم رسول الله. اختلفوا في زمن إسلامه، فقال بعضهم إنه شهد العقبة. ويخالفه رواية زواجه من أم سليم وأنه كان كافراً، وخطب أم سُليم فشرطت عليه الإسلام فأسلم، وذكروا جميعاً أنه بدريّ.

(٢) المسند (٣/ ١٥٢).

(٣) الإصابة (٢/ ٢٥٣).

ولكننا نتوقف عن قول ابن سعد، بأنَّ أخوّة أبي عبيدة كانت مع سالم مولى أبي حذيفة. وهذا يُعدُّ من المهاجرين لأن مولاه أبا حذيفة من المهاجرين، وقد يُعدُّ أنصارياً لأنه كان عبداً لزوج أبي حذيفة الأنصارية فأعتقتْه، فتبنّاه أبو حذيفة، ولما بطل التبنِّي أصبح مولاه.

فإن عُدَّ أنصارياً، فإنه لن يكون أخاً لأبي عُبيدة بصفته الأنصارية، لأن الحكمة من مؤاخاة المهاجري للأنصاري، المؤازرة بالمال، وسالم لا يملك مالاً.. ويبدو أن ابن سعد عدَّه أخاً لأبي عُبيدة بوصفه من المهاجرين بناءً على روايات ذكرت أن رسول الله ﷺ آخى بين المهاجرين أولاً، ثم آخى بين المهاجرين والأنصار؛ فقد روى الحاكم «أن النبي آخى بين الزبير وابن مسعود، وطلحة والزبير، وعبد الرحمن بن عوف وعثمان... وذكر جماعة، قال: فقال عليٌ: يا رسول الله، إنك آخيتَ بين أصحابك فمن أخي، قال: أنا أخوك». والمعروف أن مستدركات الحاكم فيها الصحيح والضعيف، وقد يكون فيها الموضوع.

ولذلك أنكر ابن تيميّة المؤاخاة بين المهاجرين، وخصوصاً مؤاخاة النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب. قال: لأن المؤاخاة شرعت لإرفاق بعضهم بعضاً، ولتأليف قلوب بعضهم على بعض، فلا معنى لمؤاخاة النبي لأحد منهم، ولا لمؤاخاة مهاجري لمهاجري.

فردَّ عليه ابن حجر في الفتح[1] فقال: هذا ردٌّ للنصّ بالقياس، وإغفال عن حكمة المؤاخاة، لأن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة، فآخى بين الأعلى والأدنى ليرتفق الأدنى بالأعلى، ويستعين الأعلى بالأدنى، وبهذا تظهر مؤاخاته لعلي، لأنه هو الذي كان يقوم به من عهد الصبا من قبل البعثة واستمرّ.

ولكن جواب ابن حجر ليس بالقويّ، لأنَّ المهاجرين بعامّة كانوا فقراء والميسورون منهم قلَّة قليلة.. وأما العشيرة، فإن أكثر مَنْ ذُكروا من قبائل متكافئة؛ فطلحة والزبير من بطنين كبيرين، وأبو بكر وعمر كذلك، وعبد الرحمن بن عوف وعثمان كذلك، فليس في هؤلاء مَنْ يُعَدُّ أعلى والآخر أدنى..

ولو قيل: إن المؤاخاة الأولى كانت في مكّة، لكان أقرب إلى التصديق وبخاصة في أيام الشدّة، أو أن المؤاخاة كانت في الحبشة.. أما في المدينة دار الهجرة، فلا معنى لوجود المؤاخاة مرتين، مع أنها موجودة في نفس المؤمنين بدون تعيين وتقسيم، فجميعهم إخوان يهرعون إلى مواساة بعضهم بعضاً.

---

(١) الفتح (٧/ ٢٧١).

كذلك لا يصحُّ ما رواه ابن إسحاق وغيره، أنَّ رسول الله كتب «صحيفة» تنظم العلاقات بين المهاجرين والأنصار. وإن كانت بعض فقرات الصحيفة صحيحة في المعنى، وإنما الذي ننكره تحديد الحقوق والواجبات بين المؤمنين في عهد مكتوب: فالحياة كان ينظمها القرآن بنزوله حسب الحاجة الطارئة، وكذلك كان رسول الله يُصلح بعض العادات الجاهلية، فتتحوّل إلى سنَّة نبوية.

٤ ـ موقع بيت أبي عُبيدة بن الجرَّاح في المدينة النبويّة:

لقد سعدتُ بالجوار النبويّ في المدينة النبوية خمساً وعشرين سنة، من سنة ١٣٨٩، إلى ١٤١٤هـ، ولا أذكر ما يوافقها بالتأريخ الشمسي، فلم نكن نؤرخ يومها إلا بالتاريخ العربي الإسلامي القمري.

أمضيت هذه المدَّة مُدرِّساً، وباحثاً مستمتعاً في تأريخ المدينة أرضاً وسكاناً وأحداثاً، حتى أمشي في شوارعها وأزقتها وأوديتها فلا أرى أمامي إلا المدينة النبويَّة في عهدها الأول، عالية سامقة شامخة تباهي عواصم العالم كلها، وتتقزَّم حتى تنمحي العمارات الشاهقة، والطريق العريضة الإسفلتية، وأرى الأضواء الكهربية باهتة شاحبة مظلمة، أمام أضواء أهل هاتيك

القرون. وقد تتبَّعتُ آثار أعلامها، ومعالمها وأحداثها الحربية والاجتماعية، وقرأت جلَّ ما كُتِبَ فيها، وسطرت بمداد الودِّ والحبِّ والهيام والعشق مجلَّدات في تأريخ هذه البلدة الطيّبة، وكتبتُ عشرات المقالات في وصف جمالها.. ولكنني لم أعثر على مكانٍ يُشار إليه أنه كان مسكن أبي عبيدة بن الجرَّاح، في محيط المدينة النبويَّة التي اختطها النبي ﷺ حول المسجد النبويّ، وأَسْكَنَ فيها أصحابه من المهاجرين الأولين السابقين، والمهاجرين الذين تتابعوا إلى يوم الفتح.. فخالد بن الوليد له بيت، ومعاوية له بيت، والعباسُ عم النبي ﷺ له بيت، وهؤلاء قدموا إلى المدينة بعد الفتح. وفي كتاب «المدينة» لابن شبّه صفحات خصصها لبيان أماكن دور المهاجرين، وأحياء بطون قريش من المهاجرين، وفعل مثله أيضاً السمهودي في «وفاء الوفا» ولكنهما لم يذكرا أبا عبيدة ممن كانت له دار في الخطة النبويّة. وعنون ابن شبّه «دور بني محارب بن فهر» وذكر رجلاً وامرأة، وأبو عبيدة من أبناء الحارث بن فهر، ولكنه لم يذكر فيمن امتلكوا أرضاً أو بنوا بيتاً.

قلتُ: ربما جهل المؤرخون مكان بيته فلم يذكروه، وربما كان أبو عبيدة يسكن حيث نزل أول قدومه مهاجراً إلى المدينة. فقالوا: إنه نزل على كلثوم بن الهدم، وكان كلثوم يسكن في نواحي مسجد قباء، في جنوب المسجد النبوي، وفي رواية أن

رسول الله ﷺ نزل على كلثوم بن الهدم أول وصوله إلى قباء، وسواءٌ أصح هذا أم لم يصحّ، فإنّه يقرّب لنا معرفة مكان نزول أبي عبيدة، ومكان منزله إن كان قد ابتنى بيتاً حيث نزل.

٥ ـ في سبيل الله، لنشر الدعوة وإقامة الدولة الإسلامية:

لم يسكت غضب المشركين المكّيين بعد هجرة المسلمين إلى المدينة، ولم يشفِ غيظهم ما قاموا به من التنكيل بالمسلمين، وما فعلوا بهم عند الهجرة من مصادرة الأموال والتعذيب، بل زادهم غيظاً أن فاتهم المسلمون ووجدوا مأمناً ومقرّاً بالمدينة، فكتبوا إلى عبد الله بن أبيّ ابن سلول ـ وكان الأوس والخزرج مجتمعين عليه، وكادوا يجعلونه ملكاً ـ وإلى أصحابه المشركين يقولون لهم: «إنكم آويتم صاحبنا، وإنا لنقسم بالله لتقاتلُنّه أو لتخرجنّه، أو لنسيرنَّ إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونستبيح نساءَكم» [أبو داود ـ باب خبر النضير].

فلمّا بلغ الكتابُ عبد الله بن أبيّ ومَنْ كان معه من عبدة الأوثان، اجتمعوا لقتال رسول الله ﷺ، فلما بلغ ذلك النبيَّ ﷺ، لقيهم فقال: لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ وما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءَكم وإخوانكم؟ فلما سمعوا ذلك من النبيّ ﷺ، تفرَّقوا.

لقد امتنع عبد الله بن أبيّ عن إرادة القتال، لما رأى خوراً أو رشداً في أصحابه، ولكنه كان متواطئاً مع قريش، فكان لا يفوّت فرصة لإيقاع الشرّ بين المسلمين والمشركين، ويضمُّ معه اليهود ليعينوه على ذلك، ولكن حكمة النبي ﷺ كانت تطفيء نار شرّهم حيناً بعدَ حين.. وبدأ المشركون يبعدون المسلمين عن المسجد الحرام؛ فقد ذهب سعد بن معاذ الأنصاري إلى مكة معتمراً، فتهدده أبو جهل، فقال له سعد: والله لئن منعتني هذا لأمنعنَّك ما هو أشدُّ عليك، طريقك إلى المدينة (للتجارة في الشام).

وأرسلت قريش إلى المسلمين تقول: لا يغرنَّكم أنَّكم أفلتّهم منا إلى يثرب، سنأتيكم فنستأصلكم في عُقر داركم.. فكان المسلمون لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه.

وفي ظل هذه الظروف أوحى الله إلى رسوله الإذن بالقتال في قوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]، ثم نزل قوله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٠].

ثم أُمروا بالقتال مطلقاً في قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُواْ﴾ [التوبة: ٤١]، واختار رسول الله ﷺ بدايةَ أن يبسط المسلمون سيطرتهم على طريق قريش التجارية المؤدّية

من مكة إلى الشام، واتَّبع لتنفيذ هذه الخطة أسلوبين:

الأول: عَقْدَ معاهدات الحلف أو عدم الاعتداء مع القبائل التي كانت مجاورة لهذه الطريق، أو كانت تقطن ما بين هذه الطريق وما بين المدينة.

والثاني: إرسال البعوث إلى هذه الطريق.

فكانت البداية سرايا وبعوثاً عسكرية، هي أشبه بالدوريات الاستطلاعية، وكان المطلوب منها الاستكشاف والتعرُّفُ على الطرق المحيطة بالمدينة والمسالك المؤدية إلى مكة، وعقد المعاهدات مع القبائل، وإشعارُ مشركي يثرب ويهودها وأعراب البادية، بأن المسلمين أقوياء، وإنذار قريش عقبى طيشها حتى تفيق من غيها، علَّها تمتنع عن إرادة قتال المسلمين في عُقْرِ دارهم، ويصير المسلمون أحراراً في إبلاغ رسالة الله في ربوع الجزيرة العربية.

أ ـ في غزوة بدر الكبرى:

أول معركة من معارك المسلمين الفاصلة، ووصفت هذه الغزوة بالكبرى لسببين:

الأول: أنها سُبقت بغزوة إلى المكان نفسه «بدر»، في شهر ربيع الأول سنة ٢هـ. وتسمى غزوة بدر الأولى، أو غزوة

سفوان. فقد أغار كرز بن جابر الفهري في قوَّات قليلة على مراعي المدينة ونهب بعض المواشي، فخرج رسول الله ﷺ في سبعين رجلاً لمطاردته حتى بلغ وادياً يقال له «سفوان» من ناحية بدر، ولكن لم يدرك كرزاً، فرجع من دون حرب.

السبب الثاني: لوصفها بالكبرى، أنها كانت كبرى المعارك التي خاضها المسلمون في تأثيرها ونتائجها: فكل حربٍ بين فريقين تقع فيها معركة تؤْذن بنصر أحد الفريقين، مع ما يسبقها ويلحقها من المعارك. ففي فتح الشام بقيادة أبي عبيدة، كانت معركة «اليرموك» هي الفاصلة التي آذنت بزوال دولة الروم من الشام، ومثلها «القادسية» في العراق، وفيما بَعْدُ كانت معركة «حطين» أيام صلاح الدين، قاصمة الظهر للصليبيين. وفي صدِّ التتار عن بلاد الإسلام كانت «معركة عين جالوت» فاصلةً في إيقاف زحفهم. كذلك كانت معركة «بدر الكبرى»، فقد أعطت قوة وفألاً حسناً وشجاعةً، ونال المشركين منها الضعف والجبن والشؤم.

* **أبو عبيدة بن الجرَّاح من البدريين**: ليس من اختصاص هذا الكتاب، التوسُّع في تأريخ الغزوات النبويَّة، وإنما أذكر من الغزوة ماله صلة قريبة أو بعيدة بصاحب الترجمة أبي عبيدة بن الجرَّاح.

ومن المتَّفق عليه أن أبا عبيدة حضر غزوة بدر الكبرى،

وأبلى مع غيره من المهاجرين والأنصار بلاءً حسناً. . أظهر قوَّة العقيدة الإسلامية في قلوبهم. وأكثر ما ظهرت قوة العقيدة في لقاء المهاجرين بأهل مكة المشركين، فعامَّة المهاجرين من قريش، وجلُّ جيش مكَّة من قريش، وبين هؤلاء وهؤلاء قرابة ونسب ورحم، وربما كان الأب في جيش والابن في جيش آخر، وكان الأخ كافراً، وشقيقه مسلماً، والخال مع المشركين، وابن الأخت مع المسلمين. . والتقى الفريقان في المعركة، وقُتِلَ مَنْ قُتِلَ من المشركين القرشيين بأيدي المسلمين القرشيين، ونقل الأخباريون أن أبا بكر كاد أن يقتل ابنه عبد الرحمن، وأن مصعب بن عمير قتل أخاه، وأن عمر بن الخطَّاب قتل خاله، ولستُ بصدد تحقيق هذه الأخبار، ولكنني أقف عند خبر يتصل بأبي عبيدة عامر بن الجرَّاح.

*** هل قتل أبو عبيدة أباه يوم بدر:**

لقد تناقلت كتبُ المغازي، والتاريخ والتفسير، أن أبا عُبيدة قتل أباه يوم بدْر كافراً، وتمسَّك بهذا الخبر كثير من الوعَّاظ وخطباء المساجد، ورجال الدعوة الإسلامية في العصر الحديث، وأذاعوه شاهداً لجواز أو وجوب خروج الابن على أبيه إذا اختلفا في الاتجاه السياسي أو المشرب الحزبي، مع اتفاقهما في أصل الدين.

فهل يصحُّ شيء من الطرق القائلة بأن أبا عبيدة قتل أباه يوم بدر؟

الجواب: إنَّ أبا عبيدة لم يقتل أباه يوم بدر، وليس في هذا خبر صحيح أو حسن أو ضعيف.

فقد نُقل الخبر في تاريخ دمشق، قال: وأخرج الحافظ من طريق البيهقي عن عبد الله بن شوذب.

وقال ابن حجر في الإصابة: وهو فيما أخرجه الطبراني عن عبد الله بن شوذب. وقال السيوطي في أسباب النزول. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شوذب قال: نزلت هذه الآية في أبي عبيدة حين قتل أباه يوم بدر: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وأخرجه الحاكم من طريق ضمرة بن ربيعة الفلسطيني عن عبد الله بن شوذب.

فكلُّ طرق الخبر تنتهي عند عبد الله بن شوذب، وعبد الله بن شوذب ولد سنة ٨٦هـ وتوفي سنة ١٥٧هـ. قالوا: إنه ثقة في رواية الحديث، ولكنَّهم يوثقون روايته عندما تكون مسندة متَّصلة الإسناد إلى الصحابي الذي سمع من رسول الله. ولو أنه قال: قال رسول الله.. دون إسناد، ما قبل أحدٌ روايته، فهو ليس تابعياً صغيراً، ولا تابعياً كبيراً، وهم لا يقبلون مرسل التابعي الكبير، فكيف يقبلون معضل تابع التابعين، وإذا كانوا يتشدَّدون في الأحاديث التي تتعلق بالحلال والحرام، ويتساهلون فيما عداها،

فإن هذا الخبر يتصل أيضاً بسنَّة جهادية، وهو متَّصل بالسيرة النبويَّة، لأن القصة حصلت في معركة بدر التي شهدها رسول الله ﷺ، وكلُّ ما حصل في المعركة علم به رسول الله ﷺ، وسكوته عليه يجعله سنَّة. . ومن الحقِّ ألا نقبل مثل هذا الخبر إلاَّ إذا كان صحيحاً. . وهذا الخبر لا يصحُّ سنداً ولا متناً: أما السند فهو معضل، لأنَّ عبد الله بن شوذب بعيدٌ جداً عن زمن الحدث، وهو رجل خراساني بصري شامي، لم يرحل إلى المدينة منبت الأخبار التي حصلت في العصر النبوي. ولا يصحُّ متناً، لأنَّ ابن عساكر نقلَ عن المفضَّل بن غسان أنَّ الواقدي كان ينكر أن يكون أبو أبي عبيدة أدرك الإسلام، وينكر قول أهل الشام إن أبا عُبيدة لقي أباه في زحفٍ فقتله، وقال: سألتُ رجالاً من بني فِهْر، منهم زفر بن محمد وغيره، فقال: توفي أبوه قبل الإسلام.

فالخبرُ إذن نشأ في الشام، وذاع في الشام، ولم يعرفه أهل الحجاز، ومثل هذا الخبر لو كان حصل، لتناقله أهل المدينة، ولكان ذاع بين قبيلة بني فِهْر، لأنه خبر غريب، وتميل النفوس إلى سماع الغرائب وروايتها.

قد يقال: إن الواقدي غير موثوق عند المحدّثين.

قلتُ: ولكنه إخباري واسع الاطلاع، وينقلون عنه لترجيح الآراء، وقد وصل خبره بسؤال بني فهر عن شيخهم، فعبد الله بن شوذب ثقة خبره منقطع معضل، والواقدي ضعيف خبره موصول.

فإذا جعلنا الخبرين سواء في المنزلة، نخلص إلى القول: إن الخبر لا أصل له، وأصل اختراع القصة بيان سبب نزول آخر آية من سورة المجادلة، وقد حرص بعض المفسّرين على ذكر سبب نزول لكل آية فاخترعوا كثيراً من الأخبار، وملؤوا تفاسيرهم بالأخبار الكاذبة.

وقد نقل الزمخشري في الكشاف أقوالاً أخرى في سبب نزول هذه الآية.

فروي أنها نزلت في أبي بكر، وذلك فيما زعموا أن أبا قحافة سبَّ رسول الله، فصكَّه ـ أبو بكر ـ صكَّةً سقط منها. فقال له رسول الله ﷺ: أو فعلته؟ قال: نعم، قال: لا تَعُد. قال: والله لو كان السيفُ قريباً مني لقتلته.

وقيل: في أبي عبيدة بن الجرَّاح، قتل أباه الجرَّاح في يوم أحد.. وليس في يوم بدر.

وفي أبي بكر دعا ابنه يوم بدْرٍ إلى البراز، وقال لرسول الله ﷺ: دعني أكن في الرعلة الأولى، قال: متِّعنا بنفسك يا أبا بكر، أما تعلمُ أنّكَ عندي بمنزلة سمعي وبصري.

وفي مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يوم أُحد ـ وليس يوم بدر.

وفي عمر قتل خاله العاص بن هشام يوم بدر.

وفي علي وحمزة وعبيدة بن الحارث، قتلوا عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر.

وأرى أنها لم تنزل في شيء مما ذكروا، أو فيمن ذكروا؛ لأن سياق الآيات يتحدَّث عن المنافقين، وتُقرأ الآية في سياقها من الآيات من الآية الرابعة عشرة إلى آخر السورة ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ [المجادلة: ١٤] وكان المنافقون يتولَّون اليهود ويناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين، ويحلفون كذباً أنهم من المسلمين، ويثبّطون مَنْ لقوا عن الدخول في الإسلام.

وفي الآية الأخيرة، وضع الله مقياساً نزن به الرجال، ونميز به العدوّ من الصديق، ومَنْ نوادد ونصاحب، ومَنْ نتجنَّب، فليس هناك صديق لطرفين متعادلين، وإنما هو صديق أو عدوّ، والمقياس هو الموادّة، فقال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ﴾[المجادلة: ٢٢].

قال الزمخشري في الكشاف قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا﴾

من باب التخييل، خيّل أن من الممتنع المحال أن تجد قوماً مؤمنين يوالون المشركين، والغرض به أنَّه لا ينبغي أن يكون ذلك وحقه أن يمتنع، ولا يوجد بحالٍ؛ مبالغة في النهي عنه والزجر عن ملابسته والتوصية بالتصلب في مجانبة أعداء الله ومباعدتهم والاحتراس من مخالطتهم ومعاشرتهم، وزاد ذلك تأكيداً وتشديداً بقوله: ﴿ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ ﴾، وبقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ ﴾، وبمقابلة قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ [المجادلة: ١٩] بقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ﴾، فلا تجد شيئاً أدخل في الإخلاص من موالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه، بل هو الإخلاص بعينه.

وهذه المعاني لا توافق حال أبي عُبيدة، فلم يكن أبو عبيدة، يوالي أباه، ولم يكن يوادّه، وقد فهم بعض العلماء أن الآية ترسم المنهج في التعامل مع الفاسقين الذين ينتمون إلى المسلمين، ولا يطبقون تعاليم الإسلام، فنُقِلَ عن الثوري أنه قال: كانوا يرون أنها نزلت فيمن يصحب السلطان. وعن عبد العزيز بن أبي روَّاد أنه لقيه المنصور ـ الخليفة العباسي ـ في الطواف، فلما عرفه، هرب منه، وتلا الآية.

وروي أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم لاتجعل لفاجر ولا لفاسق عندي نعمة أكافئه بها، فإني وجدتُ فيما أوحيت إلي

﴿ولا تجد قوماً . . ﴾ الآية .

لقد عرض عبد الرحمن الباشا قصة أبي عبيدة في «صور من حياة الصحابة»، عرضاً أدبياً، ومن شأن الأدباء أن يختاروا العناصر المثيرة في ترجماتهم، وأن لا يتحرَّوا صحة الأخبار، فلما وصل إلى قوله: «فلما ضاق به ذرعاً ضرب رأسه بالسيف ضربةً فلقت هامه فلقتين ، فخرَّ الرجل صريعاً بين يديه» .

وكأن الأديب أحسَّ أنه عرض قصة تدمي القلب وتصدع الرأس، فأراد أن يخفف وقع خاتمة القصة على نفس قارئه فقال: « لا تحاول ـ أيها القارىء الكريم ـ أن تخمّن مَن يكون هذا الرجل الصريع .

أما قلتُ لك: إن عُنْفَ التجربة فاق حسبان الحاسبين وجاوز خيال المتخيّلين .

ولقد يتصدع رأسك إذا عرفت أن الرجل الصريع هو عبد الله بن الجرَّاح والد أبي عبيدة» .

هل أخطأ أبو عبيدة ـ إن كان قد فعل ما نُسب إليه؟ لا أدري وما أعرف الجواب، ولكن عبد الرحمن الباشا الأديب، أحس بأن ماقيل، يصعب هضمه، فأراد أن يبرر فعلته فقال: «لم يقتل أبو عبيدة أباه، وإنما قتل الشرك في شخص أبيه . . » إنه تبرير

أدبي، لا يمنع انغلاق رأس قارىء قصة أبي عبيدة؛ يستوي في ذلك المؤمن والكافر. وأين هذه القصة من قوله تعالى: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ ﴾ [لقمان: ١٥] فهذه صورة أب ليس مشركاً فقط، وإنما هو يجاهد ابنه ليجعله مشركاً، وليس بعد الشرك ذنب، ومع ذلك أمر الابن بمصاحبة أبيه في الدنيا بالمعروف.

ب ـ في غزوة أُحد:

كانت غزوة أُحد في السنة الثالثة من الهجرة في شوال. وأُضيفت إلى «أُحد» اسم الجبل الذي يقع بطرف المدينة الشمالي، ويُرى بالعين من المدينة، وهو من المشاهد التي يزورها الذين يشدُّون الرحال للصلاة في المسجد النبوي، حيثُ قبر حمزة بن عبد المطّلب عمّ النبي ﷺ، الذي استشهد في غزوة أُحد.

وقد مرَّت أحداث الغزوة بمرحلتين:

المرحلة الأولى: انتصر فيها المسلمون، وتبدَّد شملُ المشركين.

المرحلة الثانية: كان فيها مقتلة كبيرة من المسلمين وأُصيب النبيُّ ﷺ: فشُجَّ وجهه، وكُسِرَت رباعيته، وجُرحت وجنته

وشفته السفلى من باطنها، ووهى منكبه من ضربة سيف، وجحشتْ ركبته. وروى عبد الرزاق عن الزهري قال: ضرب وجه النبي ﷺ يومئذٍ بالسيف سبعين ضربة، وقاهُ اللهُ شرَّها كلها. ويحتمل أن يكون أراد بالسبعين حقيقتها أو المبالغة في الكثرة.

وثبت أن أبا عُبيدة بن الجرَّاح حضر غزوة أُحد، وأنَّه كان من الذين ثبتوا في ميدان المعركة عندما كانت النكسة، وأنه كان من المدافعين عن النبي ﷺ.

*قصة وقوع ثنيتي أبي عبيدة:

ذكروا من صفات أبي عبيدة أنه كان أثرم الثنيتين. وقالوا: ما رُؤِيَ هتْمٌ[1] قطُّ أحسن من هَتْم أبي عبيدة.

وذكروا أن السبب في هتمه، أنه نزع يوم أُحد الحلقتين اللتين دخلتا من المغفر في وجنة رسول الله، بثنيتيه، فانقلعت ثنيتاه، فحسن ثغره بذهابهما.

وقصَّة وقوع ثنيتي أبي عبيدة رواها ابن سعد[2] عن

---

(١) هَتَمَ فَاهُ يَهْتِمُهُ: أَلْقى مُقَدَّمَ أسنانه، كأَهْتَمَهُ: انكسرت ثناياهُ من أُصولها، فهو أَهْتَمُ. وتَهَتَّمَ: تَكَسَّر (القاموس المحيط).

(٢) الطبقات (٣/ ٤١٠).

محمد بن عمر الواقدي عن إسحاق بن يحيى عن عيسى بن طلحة عن عائشة، قالت: سمعتُ أبا بكر يقول: لما كان يومُ أُحد، ورمي رسول الله ﷺ في وجهه حتى دخلت في أجنتيه (وجنتيه) حلقتان من المغفر، فأقبلتُ أسعى إلى رسول الله ﷺ وإنسان قد أقبل من قبل المشرق يطير طيراناً، فقلت: اللهم اجعله طاعة أو «طلحة» حتى توافينا إلى رسول الله، فإذا أبو عبيدة بن الجرَّاح قد بدرني فقال: أسألك بالله يا أبا بكر إلا تركتني فأنزعه من وجنة رسول الله ﷺ، قال أبو بكر: فتركتُه، فأخذ أبو عبيدة بثنيةٍ إحدى حلقتي المغفر فنزعها، وسقط على ظهره، وسقطت ثنية أبي عبيدة، ثم أخذ الحلقة الأخرى بثنيته الأخرى، فسقطت، فكان أبو عبيدة في الناس أثرم (أهتم).

ونقل ابن هشام[1] الخبر عن ابن إسحاق عن عبد العزيز الدراوردي عن إسحاق بن يحيى بن طلحة. . وبقية الإسناد السابق.

ونقله ابن القيِّم[2] بدون إسناد.

وابن كثير[3] بدون إسناد.

---

(١) السيرة (٢/ ٨٠).
(٢) زاد المعاد (٣/ ٩٧).
(٣) الفصول (١٣٠).

وروى القصة الحاكم[1] بالإسناد نفسه.

ونقل القصة مهذب تاريخ دمشق في ترجمة أبي عبيدة، بدون إسناد عن أبي بكر.. ويبدو أنَّ إسناده المحذوف، هو إسناد الروايات السابقة.

هذا، وزعم الحاكم أن الحديث على شرط البخاري ومسلم، ولم يخرّجاه، فسألت شيخنا المحدّث أبا سليم حسين بن سليم أسد الداراني، عن أحكام الحاكم على ما يرويه من الأحاديث، فأخبرني أن أحكام الرجل لا يعتدُّ بها، فكم من حديث قال إنه على شرط الشيخين، ثم ظهر أنه ساقط الإسناد والمتن.

ففي إسناد الحديث عند جميع الرواة إسحاق بن يحيى بن طلحة، نقل ابن حجر في تهذيب التهذيب أقوال علماء الجرح فيه. فقال يحيى بن سعيد: ذاك شبه لا شيء.

وقال علي بن المديني: نحن لا نروي عنه شيئاً.

وقال صالح بن أحمد عن أبيه: منكر الحديث، ليس بشيء.

وقال عبد الله بن أحمد عن أبيه: متروك الحديث.

وقال ابن معين: ضعيف ليس بشيء ولا يكتب حديثه.

---

(١) المستدرك (٣/ ٢٦٦).

وقال البخاري: يتكلَّمون في حفظه.

وقال النسائي: ليس بثقة، متروك الحديث.

وقال أبو زرعة: واهي الحديث.

وقال أبو حاتم: ضعيف الحديث ليس بقوي ولابمكان أن يعتبر به.

وقال ابن سعد: مات بالمدينة في خلافة المهدي، وهو يُستضعف.

وقال ابن حبان: كان رديء الحفظ سيِّىء الفهم يخطىء ولا يعلم، ويروي ولا يفهم، قال: ثم سبرتُ أخباره، فأدى الاجتهاد إلى أن يُترك ما لم يُتابع عليه، ويحتج بما وافق الثقات.

وضعَّفه آخرون غير مَن ذكرتُ[1].

وقد نقل ابن عساكر عن الواقدي قوله: ويقال إن الذي نزع الحلقتين من وجه رسول الله، عقبة بن وهب بن كلدة، ويقال: أبو اليُسر، وأثبت ذلك عندنا عقبة.

ونقل ابن حجر[2] في ترجمة عقبة بن وهب: عن الواقدي قوله: وهو (أي: عقبة بن وهب) الذي نزع الحلقتين من وجنتي

---

(١) انظر تهذيب التهذيب (١/ ٢٥٤).

(٢) المرجع السابق (٢/ ٤٩٢).

رسول الله، عالجهما هو وأبو عبيدة بن الجرَّاح، حدَّثني بذلك ابن أبي الهاد عن أبيه.

هذا، وتعليل هتْم أبي عبيدة بنزع الحلقتين بثنيتيه، فيه نظر، ولايكاد يُفهم، ولا يُتصوَّر كيف وقع.. فإذا دخلت الحلقة في الوجنة، فإنها لن تكون بعيدة الغور، وإذا نشبت، فإنها لن تكون شديدة اللصوق، ولا شكَّ أن علوق السن بمكانها يكون أقوى أضعافاً مضاعفة من علوق الحلقة باللحم، ونزعها بالسن لن يؤدي إلى كسرها أو خلعها.

فإذا صحَّ أنَّ أبا عبيدة نزع الحلقتين، أو شاركه فيهما عقبة بن وهب، فإنَّ هتْم أبي عبيدة لن يكون متسبباً عن ذلك الفعل.. فقد يكون هتم أبي عبيدة قديماً، فعلَّله الراوي بهذه القصة. وربما يكون أبو عبيدة قد أُصيب في المعركة إصابة أدَّت إلى خلع ثنيتيه أو كسرهما، كضربه بحجر، أو وقوعٍ على وجهه وما أشبه ذلك. والله أعلم.

جـ ـ في «ذات السلاسل»:

ذات السلاسل: اسم مكان أُضيفت إليه «سريَّة» قال البخاري: وهي غزوة لخْم وجُذام. أو هي بلاد بليّ ـ على وزن فعيل ـ وعُذْرة وبني القين. ولم يستطع أحدٌ من الجغرافيين القدماء والمحدثين

أن يجد بقعة أو بلدة بهذا الاسم، ولا يُعرف لماذا سمّيت بهذا الاسم. ربما كانت ماءً تتَّصف أرضه بصفات خاصة، قد تكون سلاسل من الرمال، أو الأودية، أو الجبال، وربما تكون «ذات السلسل» بمعنى الماء العذب، ثم جمعت لتعدد الآبار والمياه فيها، بمعنى: الأرض ذات المياه الكثيرة العذبة.

ولكن الذي نجزم به أن هذه البلاد تقع في شمال السعودية وجنوب الأردن، لأن القبائل المذكورة كانت تسكن هذه الديار، ابتداءً من تيماء فالعلا فتبوك فالعقبة؛ فديار عُذرة: كانت من وادي القرى ـ وادي العلا اليوم ـ إلى تبوك إلى تيماء. وديار جُذام كانت بين تبوك والبحر. ويُرجَّح أن أرض عُذرة منها، لقربها من بلاد جِران العود، حيث ذكرها الشاعر فقال:

وفي الحيِّ ميلاءُ الخمارِ كأنَّها
مَهَاةٌ بهَجْلٍ من أديم تَعَطَّفُ[1]
يشَبّهها الرائي المُشَبِّه بيضةً
غدا في الندى عنها الظليمُ الهجنّفُ[2]

---

(١) المهاة: بقرة الوحش، سميت بذلك لبياضها على التشبيه بالبلورة أو الدرة، وتشبه بها المرأة في بياضها، وفي سعة عينيها. والهجل: المطمئن من الأرض.

(٢) الظليم: ذكر النعام. وهجنّف: جاف.

بوعساءَ من ذات السلاسل يلتقي
عليها من العلقىٰ نباتٌ مُؤَنَّفُ[1]

وقد ذكرها الراعي النميري أيضاً.

وقد ذكر ابن سعد أن ذات السلاسل، وراء وادي القرى (العلا) بينها وبين المدينة عشرة أيام إلى الشمال. واليوم يساوي مسيرة ما بين أربعين إلى خمسين كيلاً. وهو تحديد قريب مما ذكرناه.

وقد بوَّب البخاري في كتاب المغازي باب «غزوة ذات السلاسل»، وروى عن أبي عثمان: «أن رسول الله ﷺ بعث عمرو بن العاص على جيش ذات السلاسل» ولم يذكر تفصيلاً.

وروى أحمد في المسند عن عامر الشعبي، تفصيل القصة، وفيها ذكْرٌ لأبي عبيدة، فقال: بعث رسول الله جيش ذات السلاسل، فاستعمل أبا عُبيدة على المهاجرين، واستعمل عمرو بن العاص على الأعراب، فقال لهما: تطاوعا. قال: وكانوا يؤمرون أن يغيروا على بكر فانطلق عمرو فأغار على قُضاعة، لأن بكراً أخواله، فانطلق المغيرة بن شعبة إلى أبي

---

(١) الوعساء: الأرض اللينة تغيب فيها الأرجل، والعلقىٰ: شجر تدوم خضرته في القيظ.

عبيدة فقال: إن رسول الله استعملك علينا وإن ابن فلان قد ارتبع أمر القوم، وليس لك معه أمر، فقال أبو عبيدة: إن رسول الله أمرنا أن نتطاوع، فأنا أطيع رسول الله وإن عصاه عمرو.

والخبر إسناده ضعيف، لإرساله، لأن الشعبي لم يدرك عمر، ولم يدرك أبا عبيدة. ورواية ابن سعد[1] تعطي تفسيراً آخر للغزوة، قال: بلغ رسول الله ﷺ أن جمعاً من قضاعة تجمَّعوا يريدون أن يدنوا إلى أطراف المدينة النبوية، فدعا عمرو بن العاص فعقدْ له لواءً، وبعث معه ثلاثمئة من سراة المهاجرين والأنصار، وأمره أن يستعين بمن يمرُّ به من بليّ وعذرة وبلقين، فلما قرب من القوم بلغه أن لهم جمعاً كثيراً، فبعث إلى رسول الله ﷺ يستمدّه، فبعث إليه أبا عُبيدة بن الجرَّاح في مئتين وبعث معه سراة المهاجرين والأنصار فيهم أبو بكر وعمر، وأمره أن يلحق بعمرو وأن يكونا جميعاً ولا يختلفا، فلحق بعمرو، فأراد أبو عبيدة أن يؤم الناس فقال عمرو: إنما قدمت عليَّ مدداً وأنا الأمير، فأطاع له بذلك أبو عبيدة وكان عمرو يصلّي بالناس.

وروى ابن عساكر القصة عن موسى بن عقبة، بألفاظ قريبة من رواية ابن سعد.

---

(١) الطبقات (٢/ ١٣١).

وروى ابن هشام عن ابن إسحاق، ولكنه ذكر السبب أن رسول الله ﷺ بعثه يستنفر العرب إلى الشام، ذلك أن أم العاص بن وائل كانت امرأة من بليّ، فبعثه رسول الله إليهم يستألفهم لذلك.

فظهر من روايات موسى بن عقبة، وابن سعد، وابن إسحاق، مخالفة لرواية الإمام أحمد في بعض الألفاظ؛ وفي رواية أحمد طعن في عمرو بن العاص لأنها جعلته يغير الوجهة التي وجهه رسول الله ﷺ إليها. وفيها أن عمرو بن العاص يعصي أمر رسول الله ﷺ.

وخلاصة القصة أن أبا عبيدة خرج مدداً لعمرو بن العاص، وأن أبا عبيدة سلَّم الإمارة لعمرو امتثالاً لأمر رسول الله ﷺ ألاَّ يختلفا. وفي القصة منقبة لأبي عُبيدة بأنه شديد الامتثال لأوامر رسول الله ﷺ، وأنه يقدّم وحدة المسلمين على كل مطلب. وفيها أنه قاد جماعة فيهم أبو بكر وعمر.

وفي القصة شاهد على جواز تأمير المفضول على الفاضل، إذا امتاز المفضول بصفة تتعلَّق بتلك الولاية. حيث تأمَّر عمرو بن العاص على جيش فيهم أبو بكر وعمر، وإن كان ذلك لا يقتضي أفضليته عليهم.

فقد روى ابن حجر في الفتح[1] أن عمرو بن العاص أمرهم في تلك الغزوة ألاَّ يوقدوا ناراً، فأنكر ذلك عمر، فقال له أبو بكر: دعه فإنَّ رسول الله لم يبعثه علينا إلاَّ لعلمه بالحرب.

د ـ أبو عبيدة أمير غزوة سيف البحر، أو غزوة الخَبَط:

السِّيْف: بكسر السين وسكون الياء: ساحل البحر، والمقصود هنا: ساحل البحر الأحمر، من جهات مدينة ينبُع، ويبعدُ عن المدينة النبوية حوالي ١٨٠ كيلاً عن طريق بَدْر. أما الخط المستقيم بين البحر والمدينة فهو أقل من ذلك بكثير، ولكن الجبال العالية تحجز الطريق، فتطول المسافة. وأكثر جهاته من نواحي المدينة كانت مسكونة من قبيلة جُهينة، وكانت الغزوة إلى أرض جُهينة، كما صرَّح مسلم في روايته.

وسمّيت الغزوة غزوة «الخَبَط» بفتح الخاء والباء، هو ورق شجر السلم.. حيث جاع الجيش ولم يجد طعاماً، فأكلوا ورق شجر السلم، كانوا يخبطونه بالعصيّ فيسقط.

وقد بوَّب البخاري لهذه الغزوة في كتاب المغازي «باب غزوة سِيْفِ البحر» وهم يتلقَّون عيراً لقريش، وأميرهم أبو عبيدة.

---

(١) الفتح (٨/ ٧٥).

ومجمل أحداث الغزوة كما نقلها البخاري ومسلم: عن جابر بن عبد الله: بعث رسول الله ﷺ بعثاً نحو الساحل، وأمَّر عليهم أبا عبيدة بن الجرَّاح، وهم ثلاثمئة، فلما كانوا ببعض الطريق فَنِيَ الزاد، فأمر أبو عُبيدة بأزواد الجيش فجمعها، قال جابر: فكان يقوتنا كلَّ يوم قليلاً قليلاً حتى فني، فلم يكن يُصيبنا إلا تمرةٌ تمرة.

قال الذي سمع من جابر: ما تغني عنكم تمرة؟

قال جابر: كنا نمصُّها كما يمصُّ الصبيّ الثدي ثم نشرب عليها الماء، فتكفينا يومنا إلى الليل.. قال جابر: لقد وجدنا فقْدها حين فَنِيَتْ، فأصابنا جوع شديد حتى أكلنا الخَبَط، فسمي ذلك الجيش جيش الخبط. قال: ثم انتهينا إلى البحر، فإذا حوت مثل الظَّرب (الجبل الصغير) فأكلنا منه نصف شهر وادَّهنا من ودكه حتى ثابت إلينا أجسامنا. فأخذ أبو عبيدة عظماً من عظامه، فمرَّ الراكب تحته. وفي رواية لمسلم: فأخذ أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً فأقعدهم في وقب عينه.. يريد بيان كبر حجم هذا الحوت.

قال جابر: فلما قدمنا المدينة ذكرنا ذلك للنبي ﷺ، فقال: كلوا رزقاً أخرجه الله، أطعمونا إن كان معكم. فأتاه بعضهم بعضوٍ فأكله، وكانوا قد صنعوا منه قديداً وحملوه معهم.

ويُستفاد من هذه القصَّة:

١ ـ أن أبا عُبيدة كان يؤمَّر على السرايا في العهد النبويّ، وهذا يدلُّ على ظهور نبوغه العسكري والإداري في عهد النبي ﷺ.

٢ ـ القيادة الناجحة التي أنقذت الجيش من الهلاك لفناء الطعام، وذلك عندما جمع التمر في مزودٍ واحد، لئلا تتفاوت الأرزاق بين الجنود، ثم فرقها في كل يوم تمرةً لتكفي الجيش أياماً أكثر.

٣ ـ إنَّ قلَّة الزاد وشحّ الموارد لا تمنع من الجهاد.

هـ ـ سريّة أبي عبيدة بن الجرَّاح إلى ذي القَصَّة[١]:

ذكر هذه السرية ابن سعد[٢]، وابن هشام في السيرة وهو يَعدّ أسماء السرايا.

---

(١) ذو القصة: موضع في الشرق من المدينة النبوية، في الطريق إلى العراق، أو في طريق القصيم التي تمرّ بمطار المدينة، ثم بركة العاقول.
والقصة: الجصُّ أو الجير الذي يستخدم في البناء. وكانوا يأتون منه بالقصة إلى المدينة، فسمي بذلك. وقد اختلفوا في بُعده عن المدينة.
وذكر ابن سعد أنهم خرجوا من المدينة بعد صلاة المغرب فوصلوه قرب الفجر، وهذا يعني أنها على مسافة حوالي خمسة وعشرين كيلاً من المدينة نحو الشرق. لأن القافلة كانت تسير في اليوم (النهار والليل) مسافة لا تزيد على خمسين كيلاً.

(٢) الطبقات (٢/ ٨٦).

وذكر تفصيل قصتها ابن سعد فقال:

ثم سريّة أبي عُبيدة بن الجرّاح إلى ذي القصّة في شهر ربيع الآخر سنة ست من مهاجر رسول الله ﷺ.

قالوا: أجدبت بلاد بني ثعلبة وأنمار، ووقعت سحابة بالمراض إلى تَغْلميْن. والمراض على ستة وثلاثين ميلاً[1] من المدينة، فسارت بنو محارب وثعلبة وأنمار إلى تلك السحابة، وأجمعوا أن يغيروا على سَرْح المدينة وهو يرعى بهيفا، موضع على سبعة أميال من المدينة، فبعث إليهم رسول الله أبا عبيدة بن الجرّاح في أربعين رجلاً من المسلمين حين صلّوا المغرب، فمشوا إليهم حتى وافوْا ذا القصّة مع عماية الصبح، فأغاروا عليهم، فأعجزوهم هرباً في الجبال، وعادت السرية إلى المدينة مع الغنائم.

و ـ في يوم سقيفة بني ساعدة:

السقيفة: العريش يكون أمام البيت، أو يكون منفرداً عنه، يتَّخذ مجلساً ينتدي فيه القوم، وربّما سمّي الصُّفَّة. ولذلك قال

---

(١) الميل عند العرب، علامة توضع في طريق المسافرين ليهتدىٰ بها، وتعرف المسافات، وبين الميل والميل مدّ البصر، وقدّر بأربعة آلاف ذراع، حوالي ٢,٥ كيل (٢٥٠٠متر).

الأزهري: السقيفةُ كل بناءٍ سُقِفَ به صُفَّة مما يكون بارزاً. أو هو ظلة كانوا يجلسون تحتها.

وأما بنو ساعدة الذين أُضيفت إليهم السقيفة، فهم حَيٌّ من الأنصار، وهم بنو ساعدة بن كعب بن الخزرج.

وكان مكانها في الجهة الشمالية الغربية من المسجد النبويّ، تبعد عنه مئات الأذرع عند بئر اسمها «بضاعة»، وبعد توسُّع المسجد النبويّ أصبحت غرب المسجد. وكان يُعرف مكانها على وجه التحديد قبل التوسعة الأخيرة للمسجد النبوي، ووُضع على المكان علم يدل عليه. وزرع في المحل حديقة. ثم مُحي كل أثر لها كما محي غيره، وبني مكانها العمارات الفندقية، دون وضْع علم يدلُّ على مكانها.

وكنتُ أظنُّ أن مكانها لو دخل في المسجد، لكان من الواجب الدلالة عليه في داخل المسجد، لأنه يمثل تاريخاً فريداً من عُمر الأمّة.

في هذا المكان عُقِد أول مجلس شورى في تاريخ الأمة العربية الإسلامية لاختيار أمير المؤمنين، وخليفة رسول الله.

فهذه السقيفة، مقرُّ أول مجلس شورى أو «برلمان» بعد انقطاع الوحي. ومن خصائص هذا الاجتماع أنه قدَّم التجربة الأولى في

التطبيق السياسي لما فُهم من القرآن والمدرسة النبوية. فقد كان المسلمون من قبل في مرحلة التلمذة، وطلب العلم، موجّهين بالوحي، أما اليوم: فقد اكتمل الدين، وتخرَّج التلميذ، ووُضع في حقل التطبيق، معتمداً على ما وعاه من الوحي، وما فهمه من السنَّة النبوية، وعندما هُدِمَ مقرُّ البرلمان الأول، نسي، أو تناسى المسلمون تجربة التطبيق الأولى، وضلُّوا في تيه التجارب المنفردة التي لا تمتُّ إلى التجربة الأولى بصلة نسب.

وكان للصاحبي الجليل أبي عبيدة بن الجراح تأثير في هذا اليوم، يوم سقيفة بني ساعدة، ولذلك أفردنا له هذا العنوان.

وقصَّة يوم سقيفة بني ساعدة، كما رواها البخاري في كتاب فضائل الصحابة: عن عائشة قالت: إنَّ رسول الله مات وأبو بكر بالسُّنْح ـ مكانٌ يبعد كيلين عن المسجد النبوي في الجنوب الشرقي ـ.

فقام عمر يقول: والله ما مات رسول الله، وليبعثنَّه الله فليقطعنَّ أيديَ رجال وأرجلهم ـ لقولهم: إنَّ رسول الله قد مات ـ فجاء أبو بكر، فكشف عن رسول الله، فقبَّله، فقال: بأبي أنت وأمي، طبتَ حيَّاً وميْتاً، والذي نفسي بيده: لا يذيقك الله الموتتين أبداً[1]، ثم

---

(١) قال ابن حجر في الفتح (٧/ ٢٩): قد تمسك بهذا مَن أنكرالحياة في القبر وأجيب عن أهل السنة المثبتين لذلك: بأن المراد، نفي=

خرج فقال: أيها الحالفُ ـ يريد عمرَ بن الخطاب ـ على رِسْلِك، فلمَّا تكلَّم أبو بكر جلس عمر. فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه، وقال: ألا مَن كان يعبدُ محمداً، فإنَّ محمداً قد مات، ومَن كان يعبدُ الله، فإنَّ اللهَ حيٌّ لا يموت. قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] وقال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

قال: فنشج الناسُ يبكون.

وبينما كان الصحابة مشغولين بالوفاة والتجهيز، جاء إليهم مَنْ يُخبرهم أنَّ الأنصار اجتمعت إلى سَعد بن عبادة في سقيفة

= الموت اللازم من الذي أثبته عمر بقوله: «ليبعثَنَّه الله في الدنيا ليقطع أيدي القائلين بموته. وليس فيه تعرض لما يقع في البرزخ. قال: وأحسن من هذا الجواب أن يقال: إن حياته ـ ﷺ ـ في القبر، لا يعقبها موت بل يستمرُّ حيّاً، والأنبياء أحياءٌ في قبورهم، ولعلَّ هذا هو الحكم في تعريف الموتتين، حيث قال: لا يذيقك الله الموتتين، أي: المعروفتين المشهورتين الواقعتين لكل أحد غير الأنبياء. أما وقوع الحلف من عمر على ما ذكره، فبناءً على ظنّه الذي أدّاه إليه اجتهاده. والله أعلم بالمراد.. فهذه من المسائل الغيبية، ونؤمن بما جاء فيه نصّ صحيح صريح بدون تأويل، ولا نسأل عن الكيفية لأن العقل لا يدركه.

بني ساعدة، يبحثون في أمر الخلافة بعد وفاة رسول الله ﷺ، فقالوا للمهاجرين: منَّا أميرٌ ومنكم أمير.

فذهب إليهم أبو بكر، وعمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجرَّاح.

فتكلَّم أبو بكر وقال: نحن الأمراء وأنتم الوزراء. فقال حُباب بن المنذر، لا والله لا نَفْعَلْ، منَّا أميرٌ ومنكم أميرٌ. فقال أبو بكر: لا، ولكنَّا الأمراء وأنتم الوزراء. هم - يعني قريش - أوسط العرب داراً، وأعربهم أحساباً، فبايِعوا عُمرَ أو أبا عبيدة، فقال عمر: بل نبايعكَ أنتَ، فأنتَ سيدنا وخيرنا، وأحبُّنا إلى رسول الله، فأخذ عمرُ بيده فبايعه، وبايعه الناس البيعة الخاصة في السقيفة، ثم بايعتْه العامَّة في المسجد.

وفي قصة يوم السقيفة شاهدان، لهما مدلولات على شخصية أبي عبيدة بن الجرَّاح:

الأول: ذهاب أبي عبيدة بصحبة أبي بكر وعمر إلى سقيفة بني ساعدة عندما علِمَ بخبر اجتماع الأنصار لتأمير أحدهم.

وقد عابَ بعضهم الصحابة الثلاثة على تركهم رسول الله ﷺ مسجًّى لم يُدفن، وإسراعهم للحديث عن الخلافة. وهذا عيبٌ في غير محلّه. وما كانوا ليذهبوا إلى السقيفة لولا إدراكهم أن

فتنة كبرى قد أطلَّت برأسها، وأنَّ وحدة المسلمين مهدَّدة، وأنَّ ما بناه رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة قد يُهدَم في لحظة.

فلو أن الأنصار أو بعضهم بايعوا سعد بن عبادة، لكانت فتنة قسَّمت المسلمين إلى أرباع.

ذلك أن سعد بن عبادة خزرجي، وكان بين الأوس والخزرج في الجاهلية حروبٌ للعصبية، فزال ذلك بالإسلام، وبقي من ذلك شيء في النفوس، كان يمكن أن يتحرَّك إذا كانت الإمارة لخزرجي، وما كان يقبل القرشيون أن يكون أميرهم من غيرهم، وما كانت العرب خارج المدينة ومكة تدين لغير هذا الحيّ من قريش. فكان إسراعهم إلى السقيفة، وأخذهم البيعة لأبي بكر، إطفاءً لفتنة كانت ستقصف بالأمة، ووقى الله المسلمين منها.

فإقامة الخليفة فرض، تركوا لأجل إقامته أعظم المهمَّات، وهو التشاغل بدفْنِ النبي ﷺ، حتى فرغوا من إقامة الخليفة. قال ابن حجر: وتأخير دفْنِ رسول الله كان زمناً يسيراً في بعض يوم يُغْتَفَرُ مثله لاجتماع الكلمة.

الشاهد الثاني في القصة: قول أبي بكر بايعوا عُمر أو أبا عُبيدة. وهذا يدلُّ على أنه كان أهلاً للخلافة، في منزلة أبي بكر وعمر. مع العلم أنَّ أبا عبيدة لم يكن من علياء قريش، ولكنَّه

حصل على الكفاءة بخدمته الجليلة في الإسلام، وبتفرُّده وتفوُّقه في مناقب القيادة، حتَّى وصفه رسول الله بأنه أمين هذه الأمة.
وقد أخرج مسلم عن أبي مليكة قال: سألتُ عائشة: مَنْ كان رسول الله مستخلفاً؟ قالت: أبو بكر. قيل: ثم مَن، قالت: عمر. قيل: ثم مَنْ؟ قالت: أبو عبيدة بن الجرَّاح.

ورويَ أنَّ عمر بن الخطاب قال: لو كان أبو عبيدة بن الجرَّاح حيَّاً، لاستخلفته، وما استشرت، لأنَّ رسول الله قال: لكلِّ أمَّة أمين، وأمين هذه الأمَّة أبو عبيدة بن الجرَّاح.

وقد سجَّل أحد الشعراء[1] قصَّة يوم السقيفة في أبيات جاء فيها:

شكراً لمن هو بالثناء خليقُ
ذَهَبَ اللَّجاج وبُويعَ الصدّيقُ

---

(١) الأبيات نقلها الفيروزأبادي في كتابه «المغانم المُطابة في معالم طابة». ونسبها للشاعر أبي عَزَّة الجمحي. وهذا الشاعر ذكره ابن سلاَّم الجمحي في الطبقات من شعراء قريش الذين كانوا يهجون المسلمين، وأُسر يوم بدر، فأطلقه رسول الله على ألاَّ يعين على المسلمين، ثم عاد، فأسرَ يوم أُحد وقُتِل. وردَّ هذا القول، بأن المسلمين لم يأسروا أحداً يوم أُحد.. ولم يُعرف أنه دخل في الإسلام، فلم يُذكر في الصحابة، والأبيات لا تشبه شعره، وفيها صنعة وتكلُّف ونظم، والله أعلم بمن قالها.

مـنْ بعـدِ مـادَحَضَـتْ بسعْـد نعلـه
ورجـا رجـاءً دُونـه العيُّـوقُ[1]

وأبـو عبيـدة والـذيـن إليهـمُ
نفْـسُ المـؤمـل للبقـاءِ تتـوقُ

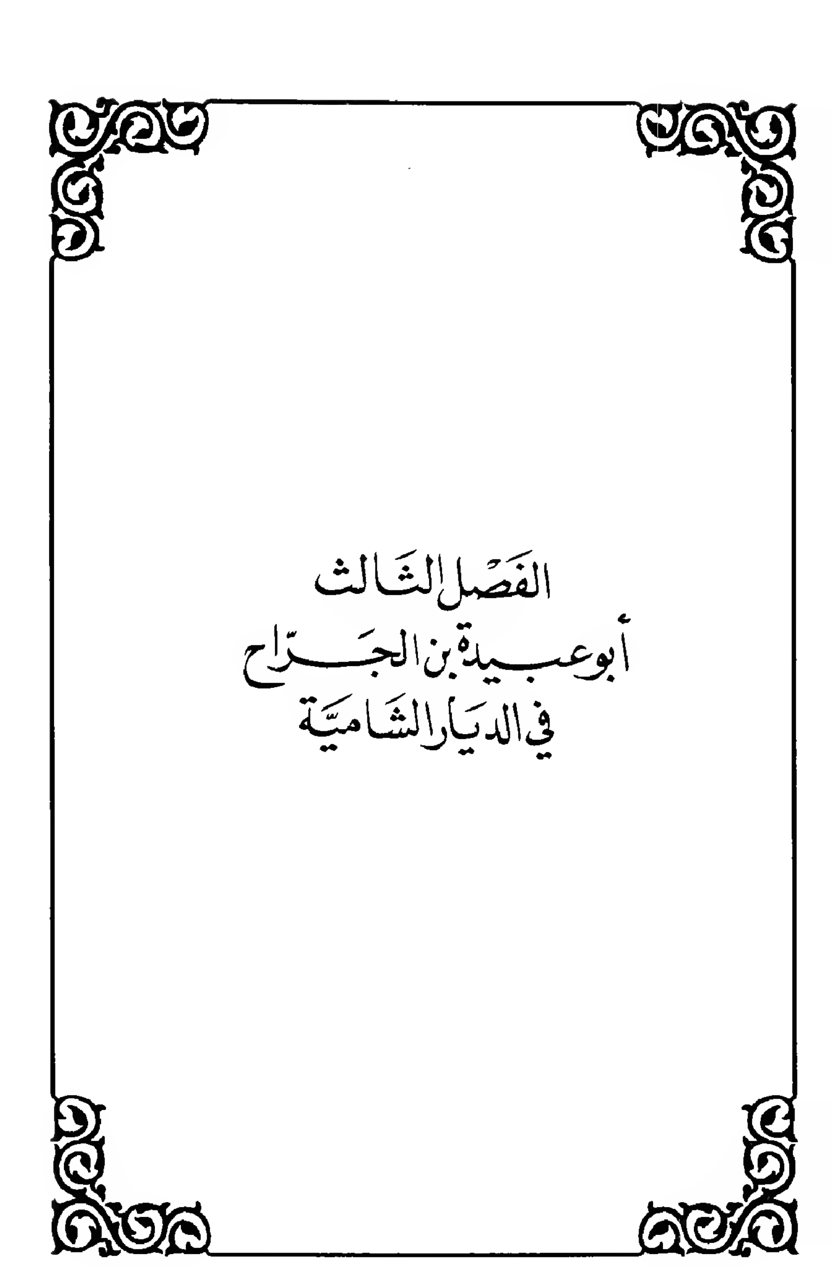
كُنَّـا نقـولُ: لهـا علـيٌّ والـرضـا
عُمَـرٌ وأولاهـم بتلـك عتيـقُ[2]

فَـدَعَـتْ قُـريشٌ بـاسمِـه فـأجـابهـا
إنَّ المنـوَّه بـاسمـه الموثـوقُ

* * *

(١) سعد: هو سعد بن عبادة سيد الخزرج، شهد يوم السقيفة. وخرج من المدينة بعد مبايعة أبي بكر، ونزل حوران من سورية. والعيّوق: نجم.

(٢) عُمرٌ: هو ابن الخطّاب، ونوّنه لضرورة الوزن. وعتيق: من أسماء أبي بكر.



الفَصل الثَالث

أبو عبيدة بن الجرّاح في الديار الشاميّة



أبو عبيدة بن الجرّاح في الديار الشاميّة

١ ـ أهو فَتْحٌ أم تحرير؟

بلاد الشام جزء من جزيرة العرب، كما حددها الجغرافيون العرب، وسكان الشام كانوا ـ وما زالوا ـ عرباً منذ عُرف تاريخ الإنسان على هذه الأرض، ولكنهم أخذوا مسمَّيات : الأكاديين، والكنعانيين، والآراميين، والسريانيين. . وجميعهم من الجنس العربي.

وقد استعمل المؤرخون العرب القدماء ـ لفظ «الفتح» على دخول العرب المسلمين إلى بلاد الشام، ولم يبتدع المؤرخون هذا اللفظ «الفتح» فقد جاء في القرآن ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [الفتح : ١] والمرجَّح أنه فتح مكة. واستعمل لفظ الفتح في فتح خيبر، وفتح الطائف، بوصفهما مدينتين محصَّنتين. وجاء في لفظ الحديث كلمة «الفتح» لفتح الشام. فروى الإمام أحمد[١] :

---

(١) المسند (٥/ ٢٢٠).

«ويوشك الشامُ أن يُفتح فيأتيه رجال من أهل هذا البلد فيعجبهم ريفُه. . » وفي لفظ : «تفتحون الشام فيجيءُ أقوامٌ يبسُّون. . ». ويبسُّون: يزجرون الإبل، من قولهم بُسْ - بُسْ.

والمعنى العام لكلمة «الفتح» هو نقيض الإغلاق. فإذا قلنا: «فتح العرب المسلمون بلاد الشام» أردنا أنهم أزالوا الموانع التي كانت تحول دون بسْط سلطانهم على بلاد الشام، وتبليغ الدعوة إليهم، باعتبارهم إخوة لهم في العروبة، ومشمولين بخطاب الدعوة الأول. فليس في لفظ «الفتح» ما يدلُّ أو يوحي بغربة العرب الفاتحين عن بلاد الشام، وإن كان قد استعمل في دخول العرب المسلمين إلى بلاد أخرى لا يربط أهلها بالعرب نسب، كبلاد فارس، وبلاد الأندلس.

وفي العصر الحديث، ظنَّ بعض المتحذلقين أن «الفتح» يكون للبلاد الغريبة عن القوم الفاتحين، فرفضوا استعمال «الفتح» لدخول العرب إلى بلاد الشام، واستبدلوا التحرير بالفتح، قياساً على ما كان من تحرير بلاد الشام من قبضة الاستعمار الغربي. وهو رأيٌ مرجوح بل مردود.

فإنَّ «الفتح» هو الأوْلى، والأقوى دلالةً على موضوعه، وإنْ شئتَ أن تعطف «التحرير» على الفتح، من باب الشرح والتوضيح، وإن شئت عنونت بالفتح، لأنه متضمن معنى التحرير.

هذا، وقد ظهر لي بعد تتبُّع أخبار الحروب التي جرت في العصر النبوي، وفي عصر الخلفاء الراشدين، وما تلاها من القرون:

أنَّهم يستعملون كلمة «الفتح» إذا نتج عن الوقعة الحربية دخول مدينة محصنة أو قرية، فإذا كانت الوقعة الحربية في فضاء من الأرض سمّوها في العصر النبويّ «غزوة» وفيما بعْدُ استعملوا لها اسم «معركة» أو «وقعة» أو «يوم». ففي العصر النبوي قيل: غزوة بَدْر، وأُحد، والخندق، وتبوك، والأبواء... إلخ، لأنها لم تؤدِّ إلى دخول بلدٍ. وقيل: فتح مكة والطائف، وفتح خيبر؛ لأن مكة كانت بلدةً، وإن لم يكن لها سور، وكانت الطائف مدينة مسوَّرة، وكان يهود خيبر في حصون.

وفي الحروب التي جرت في الشام: قيل فتح دمشق وحلب وحمص واللاذقية... إلخ، لأنها كانت مدناً مسوَّرة محصَّنة. وقالوا: وقعة اليرموك، أو يوم اليرموك، ويوم أجنادين، ويوم العربة وداثن... لأنها كانت في فضاء من الأرض، وقس على هذا ما قيل في فتح بلاد العراق وفارس وغيرها... فالقادسية كانت معركة، والحيرة والمدائن... إلخ، كانت فتحاً.

وفي عصر صلاح الدين قيل: معركة حطين، أو يوم حطين، ثم قيل: فتح القدس، وعكا، والرملة، وعسقلان، لأنها كانت محصنة.

فالفتح مصطلح أو لفظ يناسب الواقع الذي تجري عنده المعركة.

٢ ـ مصادر فتح الشام:

مصادر فتح الشام هي كتب التاريخ البحتة، وفي الروايات التي تنقلها اختلافٌ، واختلاقٌ ووضْع وكذب وخيال. فنرى البلدة الواحدة يُنسب فتحُها إلى عدد من القادة، في أزمان متفاوتة، ونرى الذين استشهدوا قبل فتح الشام يشاركون في فتح الشام. ورويت قصص تُعدُّ في باب المناقب، وباب المناقب في التاريخ، وادٍ من أودية الكذب، ويفضح القصة جهل واضعها بجغرافية البلاد وحال المعارك، كما في قصة أرطبون العرب (عمرو بن العاص). وقصة جَبَلة بن الأيهم، وما كان من إسلامه ثم ارتداده لأسباب غير معقولة، تُناقض الواقع والتاريخ.

وقد نقل إلينا المؤرخون الأوائل ـ كالأزدي والطبري ـ رواياتهم مسندة، ولكن أسانيد الأخبار التاريخية، لم تحظَ بالدراسة والتقويم، كما حظيت أسانيد الحديث النبوي. ورجال أسانيد الأخبار التاريخية، لا تستطيع أن تطبق عليها قوانين الجرح والتعديل التي طبقت في الحديث النبوي، فقد نشأ هذا العلمُ أصلاً لخدمة علم الحديث. ولا يكادون يُعدِّلون رجلاً،

أو يجرحونه، إلا إذا روى الأحاديث النبويّة، فإن لم تكن له رواية، فإن كتب الجرح والتعديل لا تترجم له وإنما تجد ترجمته في كتب التراجم العامّة التي تؤرّخ للرجال من أهل العلم والسياسة والإدارة والأدب؛ وهذه التراجم لا يعوَّل عليها في تقويم الرجال. بل إنَّ كثيراً من رجال الأسانيد الإخبارية، لا تجد لهم ترجمة، فهم مجهولون، وجهالة رجل في السند من أكبر العيوب التي تقدح فيه.

ولو أنك طبّقت على رجال أسانيد الأخبار أكثر القوانين تساهلاً ـ كما يفعل ابن حبّان ـ فإنك لن تحصل إلا على أخبار قليلة نادرة.. ولذلك جرى أكثر المؤرخين على التساهل في الأخبار التاريخية، ويرى المؤرخ رشيد الدين فضل الله الهمداني أنه لو ذهب المؤرخ إلى وجوب أن يكون كلّ ما يكتبه مقطوعاً بصحته، فإنه لا يستطيع أن يكتب تاريخ أمة، لأن أكثر ما ينقل إليه يكون لغير المتواتر من الأخبار، ويحذر من اشتراط يقينية الروايات، لأن هذا قد يؤدي إلى حرمان الناس من مزايا معرفة التاريخ. وقد أعلن الطبري في مقدمة تاريخه: أنَّه قد يقع فيما يرويه الأخبار الكاذبة، ولكنه برَّأ نفسه من تحمُّل وزْرها حيث يقول: «فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه، أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة، ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه

لم يُؤتَ في ذلك مِنْ قبلنا، وإنما أُتي من قِبَل بعض ناقليه إلينا، وأنَّا إنما أدَّينا ذلك على نحو ما أُدِّيَ إلينا».

ولكن هذه الملاحظة التي سجلها الطبري، وبنى عليها رواياته، لم يستفد منها المؤرخون التابعون والباحثون في التاريخ، بل درج الجميع على أخذ الروايات منسوبة إلى الطبري، دون أن يحققوا سندها ومتنها.

ومما زاد تاريخ فتوح الشام اختلاطاً: الكتاب المعنون بـ «فتوح الشام» المنسوب إلى «الواقدي» المتوفى سنة ٢٠٧هـ.

ولم يخطَّ فيه الواقدي حرفاً، فهو كتاب مصنوع في أيام احتلال الصليبيين للشام، وربما كان البدايات الأولى لتأليف السير الشعبية البطولية بهدف تحريض الناس على الجهاد.. ويشهد لحكمنا عليه مايلي:

١ ـ كثرة العبارات المسجوعة، مما لم يكن معروفاً في القرن الثاني وأوائل القرن الثالث زمن الواقدي: واقرأ هذه الجمل التي ختم بها الكتاب: «قال المؤلف: لقد وضعتُ في هذا الكتاب، كل نادرة عجيبة، وحكاية غريبة، وهو كتاب كامل المعاني والبيان، عظيم القدر والشان، لا يفهمه إلا ذوو البصائر والألباب، ولا يَعقله إلاَّ أهل الخطاب...».

٢ ـ اعتماده أسلوب القصة الانسيابي، ولم يعتمد على السند المتَّصل وتعدد الروايات. وقارِن بين أسلوبه وأسلوب الطبقات الكبرى لابن سعد ـ وهو تلميذ الواقدي وكاتبه وروى أكثر أخباره عنه ـ تجد فرقاً في الأسلوب.

٣ ـ الأخطاء التاريخية والجغرافية: ففي بداية الكتاب يقول: إن أبا بكر كتب إلى «ملوك اليمن» وقد انتهى عهد الملوك قبل وفاة النبي ﷺ. وقال في وداع أبي بكر ليزيد بن أبي سفيان وجيشه: «وسار إلى أن وصل إلى ثنية الوداع. . .». والمعروف أن الجيوش كانت تعسكر في الجرف شمالي المدينة، وإذا ودَّع أبو بكر الجيش ومشى معه، فإنه لن يمرّ على ثنية الوداع، المتَّفق على وجودها قريباً من المدينة عند جبل سَلْع.

٤ ـ واقرأ هذه العبارات التي تشبه ما يقال في رواية قصة عنترة وغيرها من القصص الشعبي: «فلما وصل إلى الصدّيق جعل يقول: صلُّوا على طه الرسول».

«وقد أعلنوا بالتهليل والتكبير، والصلاة على البشير النذير».

وفي مطلع كل خبر يقول: «قال الواقدي». وفي مواطن كثيرة يقول: «قال الراوي». وأظنُّ «الراوي» هي الأرجح، على طريقة رواية قصة عنترة وبني هلال، و«الواقدي» مصحفة من

«الراوي» وإنما ظنها بعضهم «الواقدي» فنسبوا الكتاب إليه. وإذا قيل «قال الراوي» ولم يُعَيَّن، فهو إشارة إلى أن الراوي مجهول، وإنما يقصُّ القاصُّ من ذاكرته، فيأتي بشيء من الحقيقة، ويلبسها أثواباً من الخيال الملحمي.

٥ ـ وفي قصة ضرار بن الأزور، ما يدلّ على أن الكتاب موضوع على الواقدي:

فقد نقل ابن سعد في الطبقات عن الواقدي: أن ضراراً استشهد باليمامة أيام حروب الردّة.

ونقل صاحب الاستيعاب عن الواقدي مقتل ضرار يوم اليمامة.

ونقل ذلك ابن الأثير في أُسد الغابة.

وابن حجر في الإصابة.

وقد كانت معركة اليمامة عام ١١هـ.

وفي فتوح الشام المنسوب للواقدي بطولات أسطورية لضرار بن الأزور الأسدي، في كل معركة من معارك الشام، وجعل له ذكراً في القادسية وفي فتح الجزيرة وفتح مصر.

والحكم الموضوعي على كتاب «فتوح الشام» أنه صورة

أدبية ممزوجة بالخيال القصصي لفتح الشام، وقلتُ: الخيال القصصي؛ وأريد الزيادات التي يضعها أهل القصة للتشويق، وجذب السامعين، وربما كان لهذه الزيادات هدف نَفْسي، لإذكاء روح الجهاد عند جمهور أهل الشام إبان الاحتلال الصليبي. ولستُ بصدد تحقيق تاريخ الشام وفتوحاته، ولكن الصحابي الجليل أبا عبيدة بن الجرَّاح، امتزجت ترجمته بتاريخ الشام، فإذا قيل «فتح الشام» تبادر إلى الذهن أبو عبيدة، وإذا ذكر أبو عبيدة قفز إلى الذاكرة تاريخ بلاد الشام، ويُذكر من مناقبه بعد وصفه بأنه أمين هذه الأمة، وبأنه فاتح الديار الشامية، وفاتح القدس الشريف.

٣ ـ فتح الشام أولاً:

توفي النبيّ ﷺ في ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة، ثم كانت فتنة الرّدّة، فأعدَّ أبو بكر الجيوش لإعادة مَنْ ارتدَّ إلى سواء السبيل، فاستغرق هذا العمل بقية العام إلى منتهاه.. ثم زحف خالد بن الوليد بمن معه من الجيش إلى العراق لطرد الفرس منه، وتبليغ الدعوة إلى العرب، حيث كان العربُ يشكلون السواد الأعظم من سُكانه.. ففُتح ما فُتح منه في السنة الثانية عشرة، بالجيوش التي قضتْ على الردَّة، ولم يعدُّوا جيوشاً خاصة بفتح العراق.. وكانت الشام أول بلاد يفكر

أبو بكر ويخطط لفتحها، وتنطلق الجيوشُ لفتحها من المدينة عاصمة الدولة الإسلامية.

فلماذا كانت الشامُ أولاً؟

لقد أجاب القرآن الكريم عن هذا السؤال في سورة الإسراء عندما قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١].

وقد تكلَّم العلماءُ في الحكمة في الإسراء بالنبي ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، فذكروا منها الربط بين رسالات الأنبياء، واشتمال الرسالة المحمدية على الرسالات السماوية السابقة، والربط بين المسجدين بوصفهما مقرّ الديانات السماوية، وخلاصة ما قالوه: أن من حكمة الإسراء إظهار الوحدة بين مكة والقدس[١].

ونحن نرى أن من معاني الوحدة التي دلَّتْ عليها رحلة الإسراء، وحدة الأرض والشعب: أما وحدة الأرض، فلأن الشام جزء من جزيرة العرب، ولأن سكان الشام من العرب، وكونهم من العرب، فهم مقصودون بالخطاب الأول للدعوة، حيث وُجّه الخطابُ أولاً إلى العرب، لأن الرسالة نزلت

---

(١) انظر الآية الكبرى، للسيوطي.

بلغتهم. وتدلُّ الوقائع التاريخية على أن الجنس العربي الناطق باللغة العربية الأخيرة التي نزل بها القرآن، كان يعمُّ بلاد الشام كلّها، مع بقاء قلّة قليلة من الجنس العربي المتكلّم باللهجة العربية السريانية أو الآرامية، وهي طورٌ من أطوار العربية.. فبلاد العرب جزيرة وليست شبه جزيرة، وسكان الجزيرة العربية من العرب، وهم مقصودون بالنداء القرآني الأول.. وجاء اسم الجزيرة في حديث رسول الله ﷺ، وقد بوَّب البخاري في كتاب الجزية والموادعة باب «إخراج اليهود من جزيرة العرب..» وروى حديث النبي ﷺ:

«أخرجوا المشركين من جزيرة العرب». وفي الحديث «لا يجتمع في جزيرة العرب دينان» وجاءت في كتب الجغرافيين العرب باسم الجزيرة.

وحدَّدها الهمداني[1] بقوله: «جنوبيها اليمن وشماليها الشام وغربيها شرم أيلة وما طردته من السواحل إلى القلزم وفسطاط مصر، وشرقيها عُمان إلى البحرين وكاظمة (الكويت) والبصرة، وموسطها الحجاز وأرض نجد، وتسمى جزيرة العرب لأن اللسان العربي في كلها شائع وإن تفاضَل».

---

(١) انظر كتاب: «صفة جزيرة العرب»، (ص ١).

وترجم ياقوت الحموي في معجمه المسمّى «جزيرة العرب» وعيَّن البحار التي تحيط بها من جهاتها الأربع، ويدخل في التحديد بلاد الشام جميعها وجزءٌ من العراق، وبادية سيناء، ويحدّها من الغرب نهر الفرات عند خروجه من تركية، فتمتد بلاد العرب في الشمال حتى تشمل البقاع التي قامت فيها دولات عربية كالمناذرة في الحيرة والغساسنة في الشام، ومن قبلهم الأنباط في بترا وتدمر.

ومعلوم أن بلاد الشام قد سكنها الجنس العربي منذ بداية التاريخ. وتعرّبت وصار أهلها من الجيل العربي الذي يتكلَّم عربية القرآن، قبل الإسلام بقرون.. فليس بغريب أن تُعَدَّ من بلاد العرب، وأن تكون محلَّ العناية النبويّة، وإحدى مقاصده لنشر الإسلام فيها وإرسال الدعاة إليها.. والبشارة بفتحها. ووصلتنا أحاديث نبويّة صحيحة في البشارة بفتحها، والحضّ على سكناها.

فعن عبد الله بن حوالة قال: قال رسول الله ﷺ: «ستجندون أجناداً، جنداً بالشام، وجنداً بالعراق، وجنداً باليمن» قال عبد الله: فقمتُ فقلتُ: خِرْ لي يارسول الله، فقال: عليكم بالشام.. فإنَّ الله قد تكفَّل لي بالشام وأهله».

فكان أبو إدريس الخولاني يحدث بهذا الحديث ويقول:

«ومَنْ تكفَّل الله به فلا ضيعة عليه». وهذا الحديث صحيح جداً، فإن له أربع طرق، كلها صحيحة.

وقال رسول الله ﷺ: «يا طُوبى للشام.. قالها ثلاثاً. قالوا: يا رسول الله: وبمَ ذلك. قال: تلك ملائكة الله باسطو أجنحتها عليها»، وهو حديث صحيح. وقال رسول الله ﷺ: «إني رأيتُ عمود الكتاب انتزع من تحت وسادتي فنظرتُ فإذا نورٌ ساطعٌ عُمِدَ به إلى الشام، ألا إن الإيمان إذا وقعت الفتنُ بالشام». حديث صحيح.

وانظر في هذا الموضوع رسالة في فضائل الشام ودمشق للربعي، ومناقب الشام وأهله، لابن تيمية.

وفي الشام المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله، وأَسرىٰ بالنبيّ ﷺ إليه، وإليه اتَّجه المسلمون في صلاتهم منذ فرضت الصلاة في مكة، وبقي المسجد الأقصى قبلةً تسعة عشر شهراً بعد الهجرة، وتحوُّل القبلة عنه إلى مكة لم يفقده مكانته الدينية، فكان أحد ثلاثة مساجد لا تُشَدُّ الرحال إلاَّ إليها، وضوعف أجر الصلاة فيه.

فدخول بلاد الشام في جزيرة العرب، وغلبه الجنس العربي على بلاد الشام قبل الإسلام والأحاديث النبويّة التي تحض على سكنى الشام وتبشِّر بفتحه، ومكانة المسجد الأقصى الدينية..

كلّ هذه توحي إلى المسلمين، بأن الشام كان هدفاً من أهداف الدعوة والفتح لو امتدَّ الأجل برسول الله ﷺ، شأنه شأن اليمن ونجد والبحرين، يدلُّ على ذلك السيرة النبويّة العملية: ففي السنة السادسة من الهجرة، بعد هُدنة الحديبية كتب رسالة إلى هرقل في أثناء وجوده في بيت المقدس وحملها دحية الكلبي.. وفيها دعوة إلى اتّباع رسالة الإسلام. ومفهوم الدعوة السياسي أن لا يحول رئيس القوم دون وصول رسالة الإسلام إلى قومه سلماً، فإن أبى وجيّش الجيوش لمنع وصول الرسالة عندئذٍ تعلن الحرب عليه، والحرب هنا دفاعية وليست هجومية، ولذلك فإننا لا نحارب إلاَّ مَنْ حاربنا، فإذا هزم الجيش الذي يحول دون الدعوة، دخلنا في مرحلة السلم، فنترك للمدنيين المسالمين حرية الاختيار، بعد إيصال حقائق الدعوة إلى أسماعهم.. فلما رفض هرقل الدعوة، كان لا بدَّ من الاستعداد لإزالة العوائق من الطريق. وبدأ فتح طريق الشام في السنة السابعة من الهجرة.

فأخذ رسول الله ﷺ يحرّر الطريق إلى الشام، وبدأ بمَنْ لا عهد لهم، ولا ذمّة، أغدر الناس على وجه الأرض، وهم اليهود، وكانت لهم حصونٌ في خيبر، شمال المدينة النبويّة على مسافة خمسين ومئة كيل، فقذف الله في قلوبهم الرعب، وجعلهم الله غنيمة للمسلمين، ونصر الله رسوله على أهل فَدَكْ

بالرعب، فجاؤوا إليه يطلبون الأمان، وكذلك كان الأمر في وادي القرى.. وبهزيمة اليهود في هذه النواحي، أصبحت الطريق سالكة آمنة، إلى بلاد الشام الواقعة تحت حماية الروم ومَنْ والاهم من العرب[1].

وفي ربيع الأول سنة ثمانٍ بعث رسول الله ﷺ خمسة عشر رجلاً يقودهم كعب بن عمير الغفاري للتوغل في بلاد الشام، وتبليغ الدعوة، فبلغوا ذات أطلاح، في وادي عربة بفلسطين، فوجدوا جمعاً من قضاعة، فدعوهم إلى الإسلام فلم يستجيبوا فرشقوهم بالنبل فكان بين الفريقين قتال، فلم ينجُ من أصحاب رسول الله ﷺ إلاَّ رجلٌ واحد.

وفي السنة نفسها بعث رسول الله ﷺ رسالة إلى أحد ملوك الغساسنة، مع الحارث بن عمير الغفاري، فلما وصل إلى مؤتة تعرَّض له شرحبيل بن عمرو الغساني، أحد عمَّال الغساسنة، فلما علم أنه رسول محمد قتله، ولم يُقتَل لرسول الله ﷺ مبعوث قط سواه.. وقصة كعب، وقصة الحارث عُرِف منهما أن باب الدعوة إلى شمال الجزيرة ـ في الشام ـ مغلق بالسيف

---

(١) في تاريخ دمشق لابن عساكر (١/ ٩٠) باب سرايا رسول الله ﷺ إلى الشام وبعوثه الأوائل وهي: غزوة دومة الجندل وذات أطلاح ومؤتة وذات السلاسل.

وأن الطريق غير آمنة، فلم يكن بدٌّ من فتحه بالسيف أيضاً. . ومن هذا السبب أو غيره، كانت سريّة مؤتة في جمادى الأولى من السنة الثامنة. ومؤتة في مكان متقدم من الشام في نواحي الكرك، في المناطق التي كان يديرها ولاة من العرب، تحت حماية الروم.

وفي السنة الثامنة أيضاً بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص في سرية إلى ذات السلاسل في الشمال، في النواحي التي تكون بين الحدود الأردنية والسعودية، ومن أهدافها إظهار قوة المسلمين لتهابهم القبائل التي تسكن في طريق الشام، ويمكن أن يحرّضها الروم على التوغُّل في مناطق نفوذ الإسلام.

وفي السنة التاسعة، كانت غزوة تبوك على بُعد سبعمئة كيل إلى الشمال من المدينة، وكان من أسبابها أن الأخبار وصلت إلى المدينة، بأن العناصر الموالية للروم، قد تجمَّعت وتحرَّكت فنزلت مقدماتها البلقاء وعسكروا بها.

وفي السنة الحادية عشرة كان بعثُ أسامة بن زيد، وأمره رسول الله ﷺ أن يصل إلى البلقاء في وسط الأردن، وقُبض رسول الله ﷺ وجيشه معسكر بجوار المدينة، فكان إنفاذ البعث أول عمل أمر به أبو بكر الصديق رضي الله عنه في الوقت الذي تحرَّك فيه أهل الردَّة. . وذلك تحقيقاً للحكمة التي أرادها

رسول الله ﷺ من إرادة إرسال بعث أُسامة. . وهذا الفهمُ الذي فهمه أبو بكر كان له أثره في سياسته الجهادية، وإعداد العدّة لها.

ومما يستأنس به في الاستشهاد، بأنَّ الخلفاء الراشدين كانوا يعدّون الشام من بلاد العرب: الكلمات التي نقلها المؤرخون على لسان الصحابة عند التجهيز لفتح الشام. وأنقل لذلك العبارات التالية:

قال شرحبيل بن حسنة لأبي بكر: «أتحدِّث نفسك أنّك تبعثُ إلى الشام جنداً». فسمَّاها الشام، ولم يقل «بلاد الروم».

قال أبو بكر للصحابة عندما جمعهم في أمر فتح الشام: «وقد أردتُ أن أستنفركم إلى الروم بالشام» فقال: إلى الروم، ولم يقل: بلاد الروم. وسمَّى الشام باسمها العربي، والاستنفار كان لحرب الروم وطردهم، ولم يُسمِّ سكان الشام من المقصودين بالحرب، فهم يعرفون أن الروم كانوا غرباء عن بلاد الشام، وهم الذين يحولون دون وصول الدعوة إلى العرب سكان الشام.

وقال أبو بكر في خطبة يدعو فيها إلى الالتحاق بالجيش الفاتح: «فتجهزوا عباد الله إلى غزو الروم بالشام». وأمر أبو بكر بلالاً، فنادى في الناس: «انفروا إلى جهاد الروم بالشام». . إنهم ذاهبون لجهاد الروم، في البلد العربي المسمَّى الشام. ولو

لم يغلق الروم طريق الدعوة، لجاءَتْ وفود العرب إلى المدينة في العهد النبويّ معلنة إسلامها، كما فعلت العربُ في مناطق الجزيرة التي لا يسيطر عليها الأجنبي. وقد جاءَ إلى المدينة بعض وفود العرب من الشام وأسلموا، نذكر منهم وَفْد تميم الداري من قبيلة لخم الذين كانوا يسكنون في فلسطين. . ولكن الروم كانوا يحرّضون العرب في الشام على غزو الحجاز ويمدُّونهم بالمال، ويمنونهم بالملك والسلطان.

وهناك ملاحظة أخرى تقول: إنَّ المرحلة الأولى في الفتح في زمن عمر، توقفت عند حدود الشام من ناحية الشمال، حيث سيطرت على كل الأراضي التي كان يسكنها العرب، ففتحوا أنطاكية واسكندرونه، وميافارفين، وهي اليوم داخل حدود الدولة التركية. والشاهد الأخير على مقولة «الشام أولاً» أن أبا بكر أرسل إلى خالد بن الوليد يطلب منه تولّي قيادة فتح الشام، ولم يكن قد تمّ فتح العراق.

٤ ـ تحقيقات مكانية حول مفهوم البلقاء والأردن وفلسطين:

اختلف الجغرافيون العرب في تحديد البلقاء كما اختلفوا في تحديد غيرها من المواقع، فتفاوت تحديدها بين الضيق والاتساع، فهي حيناً لا تتجاوز «مدينة بالشام» مع أنه لم تعرف مدينة تسمى البلقاء، لا في القديم ولا في العصر الحاضر. وهي

حيناً آخر تتسع قليلاً لتصبح كورة[1] محدودة، وحيناً ثالثاً تتّسع لتشمل جميع ما يسمى الآن بالمملكة الأردنية الهاشمية شرقي نهر الأردن من جنوبي دمشق إلى أيلة على بحر القلزم. قال ياقوت الحموي: البلقاء: كورة من أعمال دمشق[2]، بين الشام ووادي القرى[3]، قصبتها عمَّان. وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة، وبجودة حنطتها يضربُ المثل. ومن البلقاء قرية الجبارين (أريحا). وقال قوم: وبالبلقاءِ مدينة الشراة، شراة الشام.. وبها الكهف والرقيم فيما زعم بعضهم..».

وذكر المقدسي في كتابه «أحسن التقاسيم» أنَّ البلقاء رستاق[4]، وجعل عمَّان فيها، وقال: إنها على سيف البادية،

---

(١) الكورة: كُلُّ صُقْع يشتمل على عدة قرى، ولا بدَّ لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها. وهو لفظ فارسيّ معرّب.

(٢) قوله: من أعمال دمشق: يريد أنها تتبع أمير دمشق إدارياً، ولا تدلّ على قُربٍ أو بُعْدٍ، فقد كانت أكثر جهات الشام الجنوبية (الأردن وفلسطين) تتبع دمشق في كثير من العصور الإسلامية.

(٣) قوله: بين الشام ووادي القُرى: فيه نظر لأنَّ البينية تقتضي الوجود بين آخر شيئين. والشام: قد يمتدُّ مفهومه الجغرافي إلى ما بعد مدينة تبوك في شمال السعودية. ووادي القرى: هو وادي مدينة «العلا» اليوم على قرابة ٣٥٠ كيلاً شمال المدينة النبوية. وتحديده هذا يقتضي أن البلقاء خارجة عن الشام، وهو خطأ.

(٤) الرستاق: فارسي معرّب. قال الثعالبي في «فقه اللغة»: المخلاف =

أي شرقي نهر الأردن.

وقد زاد المقدسي موقع عمَّان والبلقاء توضيحاً بقوله: ووضْعُ هذا الإقليم طريف ـ يقصد إقليم الشام ـ وهو أربعة صفوف:

فالصف الأوَّل: يلي بحر الروم (البحر المتوسط) وهو السهل، رمال منعقدة ممتزجة، يقع فيه من البلدان: الرملة، وجميع مُدُن الساحل.

والصف الثاني: الجبل، مشجَّر ذو قُرى وعيون ومزارع، يقع فيه من البلدان: بيت جبرين، وإيليا ـ القدس ـ، ونابلس، واللجّون.

والصف الثالث: الأغوار، ذات قرى وأنهار ونخيل ومزارع، يقع فيه من البلدان: أيلة، وتبوك، وصعر، وأريحا، وبيسان، وطبرية، وبانياس[1].

= لليمن كالسواد للعراق، والرستاق لخراسان. وقال ياقوت: والذي عرفناه وشاهدناه في زماننا في بلاد فارس، أنهم يعنون بالرستاق: كلّ موضع فيه مزارع وقرى. ولا يُقال ذلك للمدن، كالبصرة وبغداد، فهو عند الفرس بمنزلة السواد عند أهل بغداد، وهو أخصُّ من الكورة.

(١) بانياس، هنا: قرية في الجولان السوري، تقع عند الزاوية الشمالية الشرقية لسهل الحولة، ينبع من أراضيها نهر بانياس، فأخذت اسمه.=

الصف الرابع: سيف البادية، وهي جبال عالية باردة، معتدلة مع البادية ذات قرى وأشجار، يقع فيه من البلدان: مآب[1]، وعمّان، وأذرعات. ويبدو أن البلقاء في هذا الصف، إذْ ذكر المقدسي فيه عدداً من بلدانها. ومما يزيد هذا الموقع الشرقيّ للبلقاء وضوحاً وتحديداً أن نذكر عدداً من المواقع التي ذكر بعض الجغرافيّين أنها من البلقاء، أو من نواحيها. من ذلك ما ذكره الحميري في (الروض المعطار): «مآب: بالشام من أرض البلقاء» وقوله: «بلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء». وقال ياقوت عن مآب: «مدينة في طرف الشام من نواحي البلقاء». وقال عن مؤتة: «قرية من قرى البلقاء في حدود الشام». وقال عن معان: «معان البلقاء، وهي مدينة في طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء». وقال عن الكرك: «اسم لقلعة حصينة جداً في أطراف الشام من نواحي البلقاء في جبالها».

= يلتقي عندها خط الحدود السورية اللبنانية الفلسطينية إلى الشمال الغربي من مدينة القنيطرة بمسافة ٢٥ كيلاً.
وهناك مدينة ساحلية على الساحل السوري بهذا الاسم، ولا تدخل في هذا التحديد، لأنها من مدن الساحل.

(١) مآب، أو «مؤاب» كانت تقع محل مدينة «الكرك»، على مسيرة ١٢٧ كيلاً من عمان نحو الجنوب.

وقال الحميري عن الحُمَيْمة ـ بلفظ التصغير ـ: «قرية من كور دمشق من أعمال البلقاء»، والصحيح أن يقول: قرية من كور البلقاء من أعمال دمشق. وقال ياقوت عن «الشراة» وبالبلقاء مدينة الشراة شراة الشام. وقال أيضاً: والشراة: «صُقْع بالشام، بين دمشق ومدينة الرسول ﷺ، ومن بعض نواحيه القرية المعروفة بالحميمة التي كان يسكنها ولد علي بن عبدالله بن عباس بن عبد المطلب في أيام بني مروان». وقال ياقوت عن (أذرح) : «اسم بلد في أطراف الشام من أعمال الشراة، ثم من نواحي البلقاء»... وهذه المواقع كلها في جنوب المملكة الأردنية الهاشمية وبعضها مثل الحميمة في أقصى الجنوب، ليس بينها وبين خليج أيلة (العقبة) على بحر القلزم إلا أميال قليلة، وهي كلها تقع في الصف الرابع بحسب تعبير المقدسي، إلى الشرق من الأغوار.

أما المواقع التي ذكر الجغرافيون أنها في البلقاء وتقع الآن في منتصف المملكة الأردنية، فمنها:

الرقيم: قال الاصطخري في (المسالك والممالك): «وأمّا رقيم، فإنها مدينة بقرب البلقاء، وهي صغيرة منحوتة بيوتها كلّها وجدرانها من صخر، كأنها حجر واحد».

وقال ياقوت: «ويقرب البلقاء من أطراف الشام موضع يقال له الرقيم». وقال غيرهم: «إنَّ بالبلقاء بأرض العرب من نواحي دمشق موضعاً يزعمون أنه الكهف، والرقيم قرب عمَّان». وهذا الموضع هو بلدة معروفة اليوم باسم «الرجيب» على عادة بعض العرب في قلب حروف معينة ـ قلبت القاف جيماً، والميم باءً ـ وفيها آثار يتداول الناس أنها قبور أهل الكهف.

وقال ياقوت عن «زيزاء» من قرى البلقاء، وفيها بركة عظيمة..» وما تزال هذه القرية وبركتها قائمتين في جنوبيّ عمَّان، ويسمُّونها «زيزاء» وأحياناً «الجيزة» وهو ما أصبح الاسم الرسمي لها.

وقال ياقوت عن القسطل: «وقسطل: موضع قرب البلقاء من أرض دمشق في طريق المدينة». قال كثير:

سقى اللهُ حياً بالموقَّر دارُهم

إلى قَسْطل البلقاءِ ذات المحارب

ومع أن الشاعر يضيفها إلى البلقاء ويجعلها منها، فإنَّ ياقوتاً يضعها قرب البلقاء، وهي ما تزال قائمة إلى اليوم، بين عمَّان ومطارها. والموقّر: التي ذكرها كثير معروفة مشهورة بهذا الاسم إلى اليوم. وقال عنها ياقوت: اسم موضع بنواحي البلقاء من نواحي دمشق، وهذه المواقع تقع في منتصف

المملكة الأردنية بالقرب من مدينة عمَّان التي ذكر ياقوت أنها قصبة البلقاء، وهي كلّها تقع في الصف الرابع إلى الشرق من الأغوار بحسب تعبير المقدسي.

فإذا تركنا جنوب البلقاء ووسطها واتجهنا إلى الشمال، وجدنا مدينة (جرش) التي يقول عنها ياقوت: «هي في شرقي جبل السواد من أرض البلقاء..» ثم نوغل في الشمال حتى نشارف الحدود السورية فنجد أذرعات التي يقول عنها ياقوت: بلد في أطراف الشام يجاور أرض البلقاء وعمَّان». قال أبو القاسم: «أذرعات مدينة بالبلقاء». وأذرعات تعرف اليوم باسم (درعا): وهي بلدة الحدود السورية من ناحية المملكة الأردنية. وهكذا وجدنا (البلقاء) تمتدّ من الحُميمة في أقصى جنوب الأردن وكانت مركز الدعوة العباسية السريّة، وهي بعد عقبة أيلة المعروفة اليوم برأس النقب، قرب خليج العقبة على البحر الأحمر، ثم تمتدُّ إلى أذرعات في أقصى الشمال، وتقع البلقاء على سيف البادية على المرتفعات شرقي الأغوار.. وهذه هي المملكة الأردنية بحدودها التي نعرفها اليوم، إذا كانت (أذرعات) هي (درعا) أو الحدود السورية من جهة شمال الأردن.. ومع ذلك فإن البلقاء في يومنا هذا إحدى محافظات الأردن وعاصمتها السلط، وتقع إلى الغرب من عمَّان وتشمل جزءاً من الأغوار.

ويرى الدكتور ناصر الدين الأسد، أن لفلسطين والأردن نوعين من التقسيمات:

تقسيمات عسكرية سياسية، هي التي سمّيت الأجناد. وهي تقسيمات خاصة بحركة الجيش الإسلامي في زحفه من الحجاز إلى الشمال، فكان الجند الأول هو جُند فلسطين، وكان الجند الثاني: جُنْد الأردن، وكان امتداد هذين الجندين امتداداً أفقياً عرضياً غرباً وشرقاً؛ فعمَّان ومعان مثلاً من جند فلسطين، وطبرية وصور مثلاً من جُند الأردن.

والنوع الثاني: تقسيمات جغرافية طبيعية، لها امتداد طولي عمودي من الشمال إلى الجنوب، كذلك هي البلقاء كما وصفنا. وكذلك الأغوار التي تسمّى عند الجغرافيين العرب «الأردن» في التقسيم الجغرافي الطبيعي.

وكذلك هي فلسطين التي تمتد من رفح في الجنوب إلى اللجّون في الشمال، قال ياقوت: أولها رفح من ناحية مصر، وآخرها اللجّون من ناحية الغور. وقال المقدسي: اللجّون مدينة على رأس حدّ فلسطين في الجبال.. وعلى هذا، فإن «جند الأردن» غير الأردن. فالأول تقسيم عسكري سياسي إداري، وهو تقسيم أفقي عرضي، ويقع شمالي جند فلسطين.

أما «الأردن» فتقسيم جغرافي طبيعي يقصد به جزء من الغور، وهو الجزء المتمشي مع نهر الأردن، ويمتد امتداداً طولياً من الشمال إلى الجنوب.

«وجند فلسطين» تقسيم عسكري سياسي إداري أيضاً، وهو أول أجناد الشام من ناحية الحجاز. أما فلسطين وحْدها، فتقسيم جغرافي طبيعي يمتدّ طولياً من الشمال إلى الجنوب. وعلى هذا نفهم تقسيمات المقدسي الأربعة التي سمّاها صُفوفاً، وعلى هذا نفهم قوله: «ويلي كورة فلسطين من جهة الشرق، كورة الأردن» وإلاّ لو قصد جُند الأردن لكان يلي جند فلسطين من جهة الشمال وليس المشرق.

ولكن ياقوتاً الحموي يجمع في الموضع الواحد بين «كورة» و«جُنْد» فيقول عن فلسطين: هي آخر كور الشام من ناحية مصر. وبعد ثلاثة أسطر يقول: وقيل في تحديدها إنها أول أجناد الشام من ناحية الغرب وزُغر، ديار قوم لوط وجبال الشراة إلى أيلة كله مضموم إلى جُند فلسطين. فهل «كورة» و«جند» بمعنى واحد؟ وكيف يكون جند فلسطين أول أجناد الشام من ناحية الغرب، وليس من ناحية الشمال (شمالي الحجاز) وقد ذكر ياقوت نفسه أنَّ «عمَّان» من مشهور مدن فلسطين، وعمان تقع إلى الشرق على سيف البادية في الصف الرابع، ولا يُفسّر هذا التداخل في

المسمّيات وفي المواقع إلا على أساس التمييز بين التقسيم العسكري السياسي أو الإداري، والتقسيم الجغرافي الطبيعي، وكذلك التفرقة بين «كورة» و«جُنْد».

وربَّما يكون التساهل في التعبير هو الذي يؤدي إلى هذا الاختلاط، فقد يطلقون الجزء على الكل، أو الكل على الجزء، والبلاد كلها عربية إسلامية، وليست هناك حدود قاطعة بين الإمارات والعمالات.

٥ ـ الشامُ جغرافياً:

الشام: مصطلح جغرافي قديم وضعه العربُ على صُقع واسع من الأرض، يقع في الشمال من جزيرة العرب.

قال ياقوت: فأمَّا حدُّها، فمن الفرات إلى العريش المتاخم للديار المصرية.

وأمَّا عَرْضُها فمن جَبَلَيْ طيّ من نحو القبلة إلى بحر الروم وما بشأمة ذلك من البلاد، وبها من أُمهات المدن: منبج وحلب وحماة وحمص، ودمشق، وبيت المقدس والمعرَّة.

وفي الساحل: أنطاكية، وطرابلس وعكا، وصور وعسقلان وغزة و«خان يونس» و«رفح».

ويعدّ أيضاً في الشام الثغور، وهي: المصيصة، وطرطوس، وأذنة، وأنطاكية، وجميع العواصم من مرعش والحدث وبغراس، والبلقاء وغير ذلك.

وطولها من الفرات إلى العريش نحو شهر، وعرضها نحو عشرين يوماً. وقد أخطأ مَنْ حدَّد الشام في عصرنا، بالأقطار العربية: سورية والأردن وفلسطين ولبنان. فالشام يزيد على هذه الأقطار، حيث يدخل فيه جزءٌ من شمال السعودية، لأنَّ جبلي طيّ اللذين جعلهما ياقوت حدّاً لعرضه، موجودان في نواحي مدينة حائل في السعودية، ويدخل في الشام جزءٌ من العراق من غربي الفرات، ويدخل في الشام جزء من تركية الآسيوية مثل مرعش، وديار بكر، وماردين واسكندرونة، وأنطاكية.

وهذا التحديد لمكان صقع الشام، يدعّم الرأي القائل إن الشام سمّي بذلك، لأنَّه يقع في الطرف الشمالي من جزيرة العرب.. وقد أبدلوا الشام بالشمال فراراً من معنى الشمال وحتى لا يقولوا: أهل الشمال، في مقابل أهل اليمن. فأصبح كأنَّه جمع شامة وهي النكتَة الحسنة التي تكون في الوجه، من شدَّة إعجاب العرب بقطر الشام، وكثرة محاسنه وحسناته، وكأنَّ كلّ قرية من قرى هذا الإقليم «شامة» تزين ما حولها من وجه البسيطة. والمعروف أيضاً أن العرب يطلقون على المكان

الشديد الخضرة «السواد» ومنه «سواد العراق».

إذن، أحبَّ العربُ الشام لكثرة شاماته أو شامه، فوضعوا له هذا الاسم، إعجاباً بما فيه من كثرة الخيرات والبركات.

وقد قال الشاعر:

النـــاسُ تعشـــقُ مَنْ خـــالٌ بـــوجنتـــه
فكيـــف بـــي وحبيبـــي كلُّـــه خـــالُ

والخال: هو الشامة.

وقد وصفه المقدسي في كتاب (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) فقال: «إقليم الشام جليل الشأن: ديار النبيين، ومركز الصالحين، ومطلب الفضلاء، به القبلة الأولى، وموضع الحشر والمسرى.. والرباطات الفاضلة والثغور الجليلة والجبال الشريفة، ومهاجر إبراهيم، وقبر وديار أيوب وبئره، ومولد المسيح ومهده، وقرية طالوت ونهره، ومقتل جالوت وحصنه.. مع مشاهد لا تُحصى وفضائل لا تخفىٰ، وفواكه ورخا، وأشجار وأميا، وآخرة ودنيا، به يرقُّ القلب وتنبسط للعبادة الأعضاء...».

٦ - سُكَّان الشام قبل الإسلام:

قبل ظهور الإسلام، قامت في بلاد الشام ثلاث دول عربية سقطت الواحدة تلْو الأخرى، وهي دولة النبط، أو

الأنباط[1] في الجنوب ودولة تَدْمُر في الشمال، ودولة الغساسنة فيما بينهما.

وأمّا سكان الشام ـ قبل الفتح الإسلامي ـ ففي السهل الساحلي وما تاخمه من سفوح جبال لبنان، كانت بقايا الفينيقيين وسلالاتهم، ومن المتَّفق عليه عند المؤرخين، أن الفينيقيين فخذ من العرب الكنعانيين، وقد دُعي أهل هذه المنطقة بالفينيقيين من قبل الإغريق الذين كانوا على احتكاك بهم، ويدل على عروبتهم: لغتهم، وأبجديتهم.

وأما في سورية والأردن، وفلسطين، فإن ظهور دول الأنباط ثم تدمر ثم الغساسنة، يفيد بأن العنصر العربي هو الذي ساد تلك البقاع وعمرها بالعنصر البشري، وانتشرت المسيحيّة بينهم. تلك البقاع كانت تحت سيطرة الروم الشرقيين أو ما عرف بالدولة البيزنطية. ويؤيد انتشار العنصر العربي على أكثر أرجاء الشام الأخبار المدوّنة عن تلك المدّة: منها أن رسول الله ﷺ بعث إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وبعث إلى الحارث بن أبي شمر الغساني، الذي وصفه المؤرخون بأنه صاحب دمشق... وفي أخبار الفتوح أن خالد بن الوليد أغار

---

(١) قد تكون الأنباط منسوبة إلى «نبيت» بن إسماعيل.

على بني غسان بمرج راهط شرقي دمشق، ومنطقة حوران. والجولان كانت مرابع الغساسنة قبل الإسلام. وورد ذكر كثير من بقاعها في شعر حسان بن ثابت، وبخاصة شعره الذي يذكر فيه الغساسنة.

وكانت قريش ـ في رحلة الصيف إلى الشام ـ تتاجر مع غزَّة، كما جاء في قصَّة أبي سفيان مع هرقل، يوم جاءَه كتاب رسول الله ﷺ، ونعتقد أنهم كانوا يتَّجهون إلى غزَّة للاتجار مع العناصر العربية بها، وقد توفي في غزة جد النبي محمد ﷺ هاشم بن عبد مناف (٥٠٠ـ ٥٢٤م).

وفي عام ٦٤ قبل الميلاد، جعل بومبي ـ الحاكم الروماني ـ أنطاكية عاصمة لسورية، وسمح للملوك العرب بالبقاء على أن تقتصر سلطته على ممتلكاتهم الأصلية وأن يدفعوا جزية سنوية.

واحتفظ ملك الأنباط بدمشق مقابل مبلغ من المال.

وفي أخبار الحملة الثانية التي جرَّدها كراسوس في ربيع عام ٥٣، خانه حليفه العربي أبجر، ملك أديسا، وتمزَّق جيشه في الصحراء السورية، على بُعد ثلاثين ميلاً من حرَّان. قال فيليب حتي[1]: إن العرب عاشوا في غير نظام واحد: ففي

(١) في كتابه: تاريخ سورية (١/ ٣١٧ـ ٣١٩).

حمص كان الحكم بيد الملوك الكهنة، وإلى الجنوب في سورية كان يحكم حاكم وطني، واستمرَّت هاتان الأسرتان تحكمان حتى أواخر القرن الأول الميلادي، وعلى حدود الصحراء كان طراز المعيشة بدوياً.

وبالنسبة للعرب، والعرب الآراميين ـ الذين تكلَّموا اللغة الآرامية ـ فقد أُقيمت بينهم في شرقي لبنان الشرقي، وفي القسم المأهول من شرقي الأردن، مستعمرات رومانية، وضمَّ «تراجان» سنة ١٠٦م شرقي الأردن وحوران اللتين كانتا قَبْلُ تحت حكم الأنباط.

وفي سنة ١٠٥م أخضع تراجان البتراء، فأُلحقت بالإمبراطورية الرومانية تحت اسم «الولاية العربية»، وأنشأت الإدارة الرومانية سلسلة من المراكز على طول حدود الصحراء، وكان جنودها في الغالب من القبائل الموالية.

ويستشهد محمد عزة دروزة في كتابه (تاريخ موجات الجنس العربي) بقائمة احتوت مئات من أسماء القرى والقصبات والمدن في مختلف أنحاء الشام، تحمل اللمحة العربية القديمة.

وخلاصة القول: إن العرب سكنوا نواحي الشام بوصفهم العربي، مع استيطان سلالات الفينيقيين على الساحل اللبناني، بالإضافة إلى العنصر الذي وفد بدافع الغزو، ونعني به الروم

البيزنطيين الذين لم يشكّلوا نسبة لها اعتبارها من تعداد السكان، بل لقد كانوا أقلية، وإن كانت لهم الغلبة بقوة البطش والسلاح.

٧ - القبائل العربية التي سكنت الشام قبل الإسلام:

ذكرنا مِنْ قَبْلُ أن الجنس العربي بمسمياته المتعدّدة، هو أول من عمر الشام وسكنها، وبقي الجنس العربي مقيماً يزداد بالتوالد ترفده الهجرات العربية المتتالية، ويمرُّ بأطوار اجتماعية ولغوية يفرضها تعاقب الأزمنة المتطاولة، إلى أن استقرَّ على الجنس العربي الأخير باسمه العربي، ولغته العربية. يدلُّ على ذلك أن اليونان والرومان استعمروا بلاد الشام أكثر من ألف سنة (من ٣٣٢ قبل الميلاد إلى ٦٣٦ بعد الميلاد) متواصلة، ولم يستطيعوا أن يجعلوا البلاد روميَّة جنساً ولغةً. وإنَّما بقيت على صفتها العربية، تسودها اللغة العربية في لهجتها الآرامية والسريانية والعربية القرشية القرآنية. ولم يستطع الرومان أن يحكموا الشام بقوَّتهم الذاتية، فكوَّنوا دويلات عربية، وقدمت لها الدعم المادي.. وكان يغلب على العرب الذي يقطنون الشام في الجاهلية الجنس القحطاني اليمني.. وأذكر بعض القبائل التي استوطنت الشام قبل الفتح الإسلامي:

قُضاعة: وهي من حِمْيَر، نُسبوا إلى أبيهم قُضاعة، وهو الجدّ الأعلى لجميع بطون قضاعة التي نزلت الشام قبل ميلاد

المسيح. يدلُّ على ذلك أنَّ قضاعة كانت موجودة يوم استولى الروم على الشام، وتنصَّرت حين دخل الروم في النصرانية، واستعملوها على البادية الشامية. ففي عهد الإمبراطور طيطس (٧٩ـ ٨١ م) نودي على «ضجعم» أحد زعماء قضاعة ملكاً عليها، فكان المؤسس الأول للدولة التي حملت اسم الضجاعمة، وفي عهد هذه الدولة، انتشرت قضاعة في المناطق الواقعة بين جبل الشيخ وجبال فلسطين والبلقاء والغور، ثم ما لبثت أن امتلكت ما بين الشام والحجاز والعراق، وفي العقبة وجبال الكرك.

وقد دُعي «مرج راهط» الواقع للشرق من دمشق باسم رجل من قضاعة.

وقرية «وادي حنين» من أعمال يافا، دعيت بذلك لأن جماعة من قضاعة نزلتها، وسمتها باسم الوطن الذي كانت تقيم فيه في حضرموت، وانتقلت لهجة «الكشكشة» وهي قلب الكاف شيناً، إلى نواحي من فلسطين، من جماعات من قبيلة مهرة القضاعية التي سكنت فلسطين.

ومن بطون قضاعة التي نزلت بلاد الشام.

بنو كلب بن وَبرَة من قضاعة، كانوا في الجاهلية ينزلون «دومة الجندل» و«تبوك» وأطراف الشام. ونزلت طوائف منهم

الغور وجنوب عكا والساحل. ومنهم أقوام في حلب، وبلادها، وشيزر (من نواحي حماة) وتدمر، ووادي اليرموك والسويداء.

قال ابن خلدون: «كانت لكلب دومة الجندل وتبوك ودخلوا في دين النصرانية، وجاء الإسلام والدولة في دومة الجندل لأكيدر بن عبد الملك بن السُّكون، أسره خالد بن الوليد، وجاء به إلى النبيّ، فصالح على دومة».

وكانت تدمر عاصمة كلب ومقرَّ قيادتها. ومنهم بنو بكر، كانوا مع جموع الروم مع غيرهم ـ من بهراء ولخم وجذام ووائل والقين ـ في حرب المسلمين يوم «مؤتة».

وفي الإسلام كانت الرياسة لبني بحدل من كلب، ولما ولي معاوية تزوج ميسون بنت بحدل الكلبية، وهي أُم ولده يزيد. وسهل البقاع في لبنان دعاه العرب «بقاع كلب» نسبة إلى هذه القبيلة التي كانت تقيم فيه.

والقين: بطن من قضاعة، كانت منازلهم في أطراف الشام، ونزلت أقوام منهم الغور الفلسطيني حيث كانت تقيم بقية من جديس وطسم، واستقرَّ آخرون في بلاد مَدْين من جنوبي فلسطين وفي منطقة الخليل، وفي العهد القديم أن «يثرون ـ النبي شعيب» من القين.

وعاملة بن الحارث: حيٌّ من كهلان من القحطانية، وهم ولد الحارث بن عدي نُسبوا إلى أُمّهم عاملة. وكانت بطون من عاملة خاضعة لزنوبيا ملكة تدمر (٢٦٧ ـ ٢٧٢م) مما يدلُّ على عمق جذور هذه القبيلة في البلاد الشامية. وقبل ظهور الإسلام كانت منازل عاملةَ في وادي «التيم» الواقع بين جبال البقاع والمنخفض الغربي لجبل الشيخ وقبيل ذلك في المنطقة الجنوبية الشرقية للبحر الميت.

وتنصَّرت عاملة كما تنصَّرت غسان وسليح ولخم وجذام، وساعدت كما ساعد هؤلاء هرقل في كثير من حروبه ضد العرب المسلمين.

وجُذام: قبيلة يمنية الأصل. وقيل إنها من مَدْين، واستشهدوا بقول رسول الله ﷺ لجذام: «مرحباً بقوم شعيب وأصهار موسى».

نزلت جُذام الشام قبل الإسلام، فكانت منازلهم في فلسطين والعقبة وحول تبوك، وما بين عمَّان ومعان ومدين وغزة، وكانوا هم وبنو كلب رأس القبائل القحطانية بالشام.

وكان معايش جذام بوجه عام يأتيهم من طرق التجارة التي تصل جزيرة العرب بالشام ومصر، يرشدون القوافل في الطرق ويقبضون مقابل ذلك أجراً معيناً.

والجذاميون الذين حاربوا المسلمين في غزوة مؤتة أثبتوا بعد إسلامهم أنهم حلفاءُ أوفياء وأعانوا العرب في حروبهم لفتح الشام.

ومن بطون جُذام التي نزلت فلسطين قبل الإسلام: بنو نفاثة، من حرام، وكانو يقيمون حول العقبة إلى يَنْبُع البحر، وكانت لهم رياسة في «معان» منهم فروة بن عمرو بن النافرة الذي كان عاملاً للروم في معان وحولها، وهو الذي بعث إلى النبي ﷺ بإسلامه، وأهدى له بعض الهدايا، ولما علم الروم بذلك طلبوا من الحارث بن أبي شمَّر الغساني ـ ملك غسان ـ أن يقتله، فأخذه وصلبه بفلسطين عند مياه «عفرى» قرب الطفيلة من أعمال الكرك.

ومنهم «زنباع بن روح» الجذامي رأس آل زنباع الذين كان لهم أثر فعَّال في عهد الأمويين. ومما يدلُّ على وجوده في الشام قبل الإسلام ما رواه ابن حجر في الإصابة: أن عمر خرج تاجراً في الجاهلية مع نفر من قريش، فلما وصلوا إلى فلسطين، قيل لهم: إن زنباع بن روح الجذامي يعشّرُ مَنْ يمرُّ به للحارث الغساني. قال عمر: فعمدنا إلى ما معنا من الذهب. فألقمناه ناقةً لنا، حتى إذا مضينا نحرناها وسلم لنا ذهبنا. فلما مررنا على زنباع قال: فتّشوهم، فلم يجدوا معنا إلا شيئاً يسيراً، فقال: اعرضوا عليَّ إبلهم، فمرت به الناقة بعينها، فقال: انحروها. فقلتُ: لأيّ شيء؟ قال: إنه كان في بطنها ذهب،

وإلا فلك ناقة غيرها وكلْها. قال: فشقوا بطنها فسال الذهب، قال: فأغلظ علينا العُشْر.

وَفَد زنباعُ من فلسطين على رسول الله ﷺ في المدينة معلناً إسلامه.

ولخم بن عدي، أخو جُذام، وكانت لخم قبل الإسلام منتشرة في الشام والعراق وباديتهما، وفي مواقع متعددة من فلسطين. وقيل: إنَّ الذي استخرج يوسف من الجبّ هي القافلة اللخمية التجارية. ومن لخم: ملوك الحيرة بالعراق. وقيل: إنَّ أصحاب الكهف منهم ـ وكان الكهف في ضواحي عمَّان بالأردن. نزلت فرقة من بني لخم جنوبي فلسطين وامتدوا في غربي البحر الميت. وفي القرن الثالث الميلادي حاربت لخم وغيرها من القبائل العربية مع جيوش زنوبيا، إمبراطور الروم، وانتصروا عليه.

وفي العام التاسع من الهجرة، وفد على رسول الله ﷺ وفْد من «نمارة» اللخمية على رأسه تميم الداري، وأقطعه رسول الله ﷺ أرض الخليل (حبرون) وحرمها، وبيت إبراهيم، وبيت عينون.

بنو غسان: هاجروا إلى الشام بعد خراب سدّ مأرب في

اليمن[1]، واستقرُّوا في تدمر، وحوران، واليرموك.. وينسب إليهم بناء «القسطل والزرقاء» و«أذرح» و«الجرباء»، ومُعان القديمة في شرقي الأردن.. والغساسنة آخر ملوك العرب في الشام قبل الإسلام.

... هذه القبائل اليمانية التي انتشرت في الشام قبل الإسلام، ازداد عددها بعد الإسلام، وعندما استُنفر أهل اليمن أيام أبي بكر الصديق لفتح الشام لبّوا النداء، وانتقلوا بنسائهم وأولادهم، وانضموا إلى أبناء عمهم، فانطبعت الشام بطابعهم، وغلبوا على أكثر بقاعها، حتى أطلق على بعض بقاع فلسطين اسم اليمن. فقد نقل ياقوت الحموي في ترجمة الإمام الشافعي من معجم الأدباء، أن الشافعي قال: «ولدتُ باليمن..» والمشهور القوي أنه ولد في غزّة. فقال ياقوت: وتأول بعضهم قوله «باليمن» بأرض أهلها وسكانها قبائل اليمن، وبلاد غزة وعسقلان كلها من قبائل اليمن وبطونها. وقال: هذا عندي تأويل حسن، إن صحت الرواية، وإلا فلا شكَّ أنَّه ولد بغزة وانتقل إلى عسقلان إلى أن ترعرع.

---

(١) هذا هو المتداول في أصل الغساسنة، وذكرنا قَبْلُ أنهم والأنباط من نسل «نبيت» بن إسماعيل، فهم في الشام قبل خراب سدّ مأرب، والله أعلم.

٨ ـ أبو عبيدة قائد جيوش فتح الشام:

بعد أن اتَّخذ أبو بكر القرار بفتح الشام وإرسال الجيوش لمحاربة الروم، أرسل إلى أربعة من الصحابة هم:

أبو عبيدة بن الجرَّاح

ومعاذ بن جبل

وشرحبيل بن حسنة

ويزيد بن أبي سفيان

فجاؤوا إليه، فقال لهم: «إني باعثكم في هذا الوجه ـ الشام ـ ومؤمركم على هذه الجنود، وأنا موجّه مع كل رجل منكم من الرجال ما قدرتُ عليه، فإذا قدمتم البلد، ولقيتم الجنود واجتمعتم على قتالهم، فأميركم أبو عبيدة بن الجرَّاح، وإن لم يلقكم أبو عبيدة، وجمعتكم حرب فأميركم يزيد بن أبي سفيان.

فتجهّز الأمراء لهذه المهمة، وراح المسلمون يسعون إلى المعسكر فينضمون إليه، العشر والعشرين والثلاثين، إلى المئة في كل يوم، حتى اجتمع منهم جمعٌ...

وكان معسكر الجيش الذي يجتمع فيه الجند قبل الانطلاق

إلى الوجهة المقصودة في أرض تسمى «الجُرف» في الطرف الشمالي من المدينة النبوية.

وخرج أبو بكر يوماً مع الصحابة حتى جاء معسكر الجيش، فلم يطمئن إلى عددهم، فقال أبو بكر لأصحابه: ماذا ترون في هؤلاء؟ أترون أن نشخصهم إلى الشام في هذه العُدَّة؟

فقال عمر: ما أرضى هذه العُدّة لجموع بني الأصفر (الروم)، ووافق الصحابةُ عُمر على رأيه. وكان للمسلمين يوم ذاك جيش عدّته ثمانية عشر ألفاً مع خالد بن الوليد بالعراق، وجُلّ جنده من أهل الحجاز، وقليل من نجد، فلم تكن اليمن (جنوب الجزيرة) ممثلة في جيوش المسلمين، فاتّجه رأيُ أبي بكر أن يرسل إلى أهل اليمن يستنفرهم للانضمام إلى جيوش فتح الشام.

فكتب أبو بكر رسالة، وبعث بها مع أنس بن مالك، ومما جاء فيها: «وقد استنفرنا مَنْ قبلنا من المسلمين إلى جهاد الروم بالشام، وقد سارعوا إلى ذلك وعسكروا وخرجوا.. . فسارعوا عباد الله إلى فريضة ربكم، وإلى إحدى الحسنيين.. قال أنس: أتيتُ أهل اليمن جناحاً جناحاً وقبيلةً قبيلةً أقرأ عليهم كتاب أبي بكر، وإذا فرغتُ من قراءته قلتُ:

فإني رسول خليفة رسول الله، ورسول المسلمين إليكم، ألا وإني قد تركتُهم معسكرين ليس يمنعهم من الشخوص إلى عدوهم إلا انتظاركم، فعجلوا إلى إخوانكم.. فكل مَنْ أقرأ عليه ذلك الكتاب، ويسمع مني هذا القول، يُحْسنُ الردَّ عليَّ ويقول: نحن سائرون وكأنا قد فَعلنا. ولبّت القبائلُ النداء، فكانت تقدمُ القبيلةُ ومعها نساؤها وأولادها، وكأنهم يَرَوْنَ الفتحَ كائناً، فجاؤوا مهاجرين مقيمين، وهذه حال جديرة بالدراسة والتفسير والتأويل للإجابة عن سؤالين.

الأول: لماذا وجَّه أبو بكر عنايته إلى أهل اليمن لدعوتهم إلى المشاركة في فتح الشام؟.

والثاني: لماذا لبّى اليمانيّون النداء بصورة جماعية عاجلة، يحملون أهلهم معهم؟.

قد يُقال في الجواب: إنَّ في اليمن كثافة سكّانية، وأنهم قد تأخر إسلامهم فلم يشاركوا في الغزوات النبويّة، وفي الجيش الذي توجّه إلى العراق بعد إخماد الردَّة.. وهذا صحيح، ولكن لا يقدّم الجواب التام عن السؤالين.

وقد يُقال: إنهم لبَّوا لنداء وأسرعوا إلى الجهاد طلباً للثواب والشهادة، وللتعويض عن تأخرهم عن المشاركة في الجهاد.

وهذا جائز، ولكن يمثل جزءاً من الجواب.

وقد يُقال: إنهم أسرعوا طمعاً في النصر والحصول على المغانم..

وهذا جواب مردود، لأن عامَّة أهل اليمن يسكنون أرضاً ذات خيرات زراعية، وأكثرهم أهل مدرٍ وإقامة وأهل زراعة وريف.

التفسير القويّ في رأيي، أن أبا بكر خصَّ أهل اليمن بالنداء، وأنَّ أهل اليمن جاؤوا بأولادهم ونسائهم، لأنهم يحفظون التاريخ ويعرفون أنَّ أجدادهم يسكنون الشام، فهم ذاهبون لإيصال الدعوة التي ارتضوها إليهم، وليكونوا عوناً لهم كلّما حاول الروم الاعتداء على ديار العرب.. وكان القوم ذاهبين لحرب الروم، لا لحرب سكان الشام، وهذا ظاهر في العبارات التي استعملت في كلِّ ما قيل في التحضير والحضّ على فتح الشام.

٩ ـ عَقْد الألوية ومسير القوَّاد:

لم يكن في صدر الإسلام جُنْدٌ مُجَنّدٌ، وإنَّما يجتمع المجاهدون للغزوة أو المعركة قبل وقوعها، فإذا انتهت عاد كلٌّ

مجاهد إلى عمله. وعندما دعا أبو بكر الناسَ إلى الجهاد، وصلَ صوته الأول إلى أهل المدينة، ومَنْ حولها، فمن استجاب للنداء منهم أخذَ عُدَّة الحرب المتوفّرة عنده، ولازم معسكر التجمُّع في «الجُرف» شمال المدينة النبويّة. إلى أنْ يجتمع العدد الوفير، ثم ينطلقون إلى وُجْهة الحرب. .

أ ـ لواء يزيد بن أبي سفيان: بعد أن ازدحم معسكر الجيش بالقادمين للانضمام إلى جيش فتح الشام، عقد أبو بكر أول لواءٍ ليزيد بن أبي سفيان في شهر رجب سنة ١٢هـ. وخرج يزيدُ راكباً في جنده، وخرج أبو بكر يمشي معه مودّعاً، وأوصاه بقوله: «يا يزيدُ، إني أُوصيك بتقوى الله وطاعته. . وإذا لقيت العدوّ فأظفركم الله بهم، فلا تَغلُل، ولا تُمثّل ولا تغدر ولا تجبن، ولا تقتلوا وليداً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تحرقوا نخلاً، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تعقروا بهيمة إلاّ لمأكلة، وسوف تمرُّون بقوم في الصوامع يزعمون أنهم حبسوا أنفسهم لله، فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له. .

فإذا لقيتم العدوّ، فادعوهم إلى ثلاث خصال، فإن أجابوكم فاقبلوا منهم وكفُّوا عنهم. . ادعوهم إلى الإسلام، فإن هم أبوا أن يدخلوا في الإسلام؛ فادعوهم إلى الجزية؛ فإن هم أَبَوْا فاستعينوا الله عليهم فقاتلوهم. . .

وإذا قدِمَ عليك رُسُلُ عدوّكَ فأكرم منزلتهم، فإنه أولُ خيركَ إليهم، وأقلل حبسهم حتى يخرجوا وهم جاهلون بما عندك، وامنع مَنْ قِبَلك من محادثتهم، وكن أنت الذي تلي كلامهم. .

وإذا بلغكَ عن عدوٍّ عورة فاكتمها حتى تعاينها، واستر في عسكرك الأخبار، وأذكِ حرسك، وأكثر مفاجأتهم في ليلك ونهارك، وأصدق اللقاء إذا لقيت، ولا تجبن فيجبن من سواك».

.. يتراوح جيش يزيد، ما بين ثلاثة آلاف إلى ستة آلاف، لاختلاف الأقوال في عدده. وقد سار متَّجهاً إلى الشام عن طريق تبوك.

ويمتدُّ الطريق من المدينة إلى ذي خشب، ثم السويداء، ثم إلى المرّ، ثم إلى ذي المروة، ثم إلى الرحيبة، فوادي القرى فالحجر، فالجنينة، فالأقرع، فالمحدثة، فتبوك، ثم إلى «سرغ» واستقرَّ في البلقاء.

ب ـ لواء شرحبيل بن حسنة: خرج شرحبيل بن حسنة في ٢٧ من رجب سنة ١٢هـ، في جمع من المجاهدين، وسلكَ الطريق نفسها التي سلكها يزيد.. وهذا الذي جعل أبو بكر يقول لشرحبيل: إذا سار يزيد بن أبي سفيان فأقم ثلاثاً، ثمّ تيسّر

للمسير.. والحكمة في هذا التأخير لأن تقارب القطعات الحربية يزحم الطريق ويستهلك ما في آبارها من المياه، والفاصل الزمني يسمحُ للآبار بالإدرار.. ومن أسباب التأخر، هو توافد المستنفرين إلى الجهاد، فكان إذا اجتمعت الآلاف، أرسلهم أبو بكر، لأن المدينة لم تكن تحتمل استضافة جيوش كبيرة بمواردها...

جـ ـ لواء أبي عبيدة بن الجرَّاح، ومسيره إلى الشام: ودّع شرحبيل أبا بكر وسار في جيشه إلى الشام، وبقي معظم الجند مع أبي عبيدة بن الجرَّاح بالمعسكر، يؤمهم أبو عبيدة في الصلاة، وينتظرون أمر أبي بكر بالمسير، وكان أبو بكر ينتظر قدوم مَنْ استنفر من المسلمين حتى يشحن بهم أرض الشام، وكانت وفود المسلمين تتوافد تباعاً إلى المدينة، أكثرهم من اليمن...

وبعد اكتمال العدد والعدَّة اللازمتين للقاء الروم، ودّع أبو بكر أبا عبيدة في السابع من شعبان سنة ١٢هـ. وقال أبو بكر يوصيه:

«اسمع سماع مَنْ يريد أن يفهم ماقيل له ثم يعمل بما أُمِرَ به.. إنك تخرج في أشراف الناس، وبيوتات العرب، وصلحاء المسلمين وفرسان الجاهلية. كانوا يقاتلون إذ ذاك على الحميّة وهم اليوم يقاتلون على الحِسْبة والنيّة الحسنة. أحسنْ صحبة

مَنْ صَحِبَك، وليكن الناس عندكم في الحقّ سواء، واستعن بالله، وكفى بالله معيناً. . . ».

سار أبو عبيدة من المدينة حتى مرَّ بوادي القرى، ثم طلع إلى الحجر (وهي مدائن صالح) ثم إلى ذات المنار، ثم إلى زيزا، ومنها سار إلى مآب، فتصدَّت له قوَّة من الروم التحم بهم المسلمون، حتى أدخلوهم مدينتهم وحاصروهم فيها، فطلب أهل مآب الصلح فكانت أول مدن الشام يُصالح أهلها المسلمين، ثم سار أبو عبيدة إلى الجابية، ودنا منها.

. . وبلغت أخبار هذه التحرُّكات إلى هرقل ملك الروم وهو بفلسطين، وقال له أصحابه: قد أتَتْكَ العرب وجمعت لك جموعاً عظيمة، وهم يزعمون أنَّ نبيَّهم الذي بُعِثَ إليهم قد أخبرهم أنهم يظهرون على أهل هذه البلاد، وقد جاؤوكَ وهم لا يشكون أن هذا سيكون، وجاؤوك مع ذلك بنسائهم وأولادهم تصديقاً لمقالة نبيّهم، يقولون: لو دخلناها فتحناها ونزلنا بنسائنا وأولادنا. . فذلك أشدُّ لشوكتهم إذا قاتل القوم عن تصديق ويقين، وأشدُّ على مَنْ يكابدهم أن يزيلهم عن رأيهم أو يصدَّهم عن أمرهم.

ثم خرج هرقل من فلسطين، واتَّجه إلى أنطاكية بأقصى بلاد الشام، واتَّخذها مقرَّاً، وبعثَ إلى الروم يطلب حشودهم،

فجاءَته منهم أعداد غفيرة وبلغت أخبارُ حشود الروم أبا عبيدة، فكتب إلى أبي بكر في منتصف رمضان سنة ١٢هـ: «فإنه بلغني أن هرقل ملك الروم نزل قرية من قرى الشام تُدعى أنطاكية، وأنه بعث إلى أهل مملكته، فحشرهم إليه، وأنهم نفروا إليه على الصعب والذلول، وقد أحببت أن أُعلمك ذلك فترى فيه رأيك».

فأجابه أبو بكر: «أما بعدُ فقد بلغني كتابك.. فأما منزل هرقل بأنطاكية فهزيمة له ولأصحابه.. وأمَّا حشره لكم أهل مملكته.. فإنَّ ذلك ما قد كُنَّا وكنتم تعلمون أنه سيكون منهم، وما كان قوم ليدعوا ملكهم ويخرجوا بغير قتال.. فالقهم بجندك ولا تستوحش فإن الله معك، وأنا مع ذلك ممدُّكَ بالرجال حتى تكتفي.

وفي السادس من شوال سنة ١٢هـ كتب أبو عبيدة إلى أبي بكر:

«إنَّ عيوني من أنباط الشام أخبروني أنَّ أوائل أمداد ملك الروم قد وصلوا إليه، وأنَّ أهل مدائن الشام بعثوا رسلهم إليه يستمدُّونه، وأنه كتب إليهم أن أهل مدينة من مدائنكم أكثر ممن قدم عليكم من العرب، فانهضوا إليهم فقاتلوهم فإنَّ مددي يأتيكم من ورائكم. فهذا ما بلغني عنهم، وأَنْفُس المسلمين راضيةٌ بقتالهم».

د ـ لواء هاشم بن عتبة بن أبي وقَّاص: في الثامن والعشرين من شوال سنة ١٢هـ، دعا أبو بكر هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وطلب منه أن يسير بمن تبعه من المسلمين للانضمام إلى جند فتح الشام، وخطب في الناس يحضهم على الجهاد والالتحاق بجند الشام.. فخرج هاشم إلى أبي عبيدة بمن معه من الجند في الحادي والعشرين من ذي القعدة سنة ١٢هـ، فتباشر المسلمون بمقدمه وسُرُّوا به.

هـ ـ لواء عمرو بن العاص: وتتابعت بعد ذلك الإمدادات، كلما اجتمع في المدينة عددٌ من الجند بعثهم أبو بكر لينضموا إلى واحد من الجيوش التي استقرَّت في الشام. وكان آخرهم جيش عمرو بن العاص.

فصار للمسلمين أربعة جيوش في الشام: جيش أبي عبيدة، وجيش يزيد بن أبي سفيان، وجيش شرحبيل بن حسنة، وجيش عمرو بن العاص؛ وكانت قيادتهم العامة لأبي عبيدة بن الجرَّاح.

وخصَّ أبو بكر كل جيش بقطاع من أرض الشام: فأبو عبيدة لحمص، ويزيد لدمشق، وشرحبيل للأردن، وعمرو لفلسطين.. مع العلم أن هذه التقسيمات لا صلة لها بالتقسيمات السياسية التي نعرفها اليوم، وإنما هي تقسيمات خاصة بذلك الزمن، وهي تقسيمات عَرَضية، كانت تبدأ من الصحراء وتصل إلى البحر المتوسط، ففلسطين يدخل فيها جزء من الأردن اليوم، والأردن يدخل فيه جزء من فلسطين اليوم.

١٠ ـ بداية فتح الشام (العربة وداثن):

أجمع الرواة على أن أولى المعارك الصغرى في تاريخ فتح الشام ـ بعد مؤتة، وسرية أُسامة ـ قد بدأت في وادي العربة[١]، وانتهت في داثن[٢]، فبعد أن نزل يزيد بن أبي سفيان «البلقاء»

---

(١) وادي العربة: هو ما استطال من الغور إلى خليج العقبة، أرض ملحية شديدة الحرارة. ويبلغ طوله نحو ١١٢ ميلاً (١٧٩ كم) وعرضه يتراوح بين أربعة أميال، وأربعة عشر ميلاً، وعلى مسيرة نحو ١٣٠ كيلاً من جنوب البحر الميت، يصل مستواه إلى مستوى البحر. يعتبر الخط الوهمي الذي يمتد من وسط وادي العربة حتى خليج العقبة، الحدّ الفاصل بين فلسطين وشرقي الأردن، ووصول اليهود إلى هذا الوادي ونزولهم على ساحله «المرشرش ـ إيلات» قسم الوطن العربي إلى شطرين، وفتح منفذاً لليهود على البحر الأحمر. . وجعلهم يهددون المدينة المنورة وخيبر، بحجة أنه كانت لهم فيها دولة قبيل الإسلام، وهم كاذبون.

(٢) داثن: قال مصطفى الدباغ: «قبيلة الحناجرة، تسكن في الجنوب الشرقي من غزة، وتمتد منازلهم إلى دير البلح، وكانت لهم مدرستان: منها «مدرسة النصيرات» أقيمت على البقعة المعروفة باسم «الدميثة، حيث وقعت معركة «داثن» بين العرب والروم في عهد الفتوح، وهذه البقعة تقع على مسافة خمسة أكيال شرقي دير البلح. وذكر في أرض الحناجرة «خربة الدميثة» تحريف «داثن» حيث وقعت معركة بين العرب والروم، على أثر انهزام الأخير في معركتي وادي عربة، والدُّبَيَّة ـ عند رفح ـ. وعلى هذا فإن «داثن» تقع في نواحي النصيرات والمغازي، شرقي دير البلح في جنوب غزة بنحو عشرين كيلاً.

(ولا يعرف مكان محدد لنزوله ـ وانظر تحديد البلقاء في بحث سابق).

ونزل شرحبيل بن حسنة نواحي بُصرى[1]، ونزل أبو عبيدة الجابية[2]، دفع الروم بثلاثة آلاف مقاتل إلى وادي عربة من غور فلسطين جنوب البحر الميت. وهذه القوة تهدد جيوش المسلمين التي تقدّمت على الطريق الشرقي ـ امتداد الطريق التبوكية ـ التي رابطت على امتداده حتى جنوب دمشق بنحو خمسين كيلاً عند الجابية، فهي قوة تأتيهم من خلفهم وفي استطاعتها قطع طريق الإمداد من المدينة والجزيرة العربية، مع وجود قوة روميّة أُخرى في بُصرى. وظنَّ بعض المؤرخين أنَّ «العربة وداثن» معركتان.. والصحيح أنها معركة واحدة مرَّت بثلاث مراحل، وليس بمرحلتين، وكان الجيش الرومي في المواقع الثلاث، هُو هُو لم يتغيَّر، وكذلك كان جيش المسلمين، بقيادة واحدة وجنود لم يتغيَّروا.

---

(١) بصرى: مدينة قديمة تقع في الطرف الشرقي من سهل حوران، إلى الشرق من مدينة درعا بأربعين كيلاً. ومعنى «بصرى» الحصن.

(٢) الجابية: اليوم، خربة أثرية في حوران السورية، منطقة إزرع محافظة درعا، تقع على تلّ الجابية المشرف غرباً على سهل منبسط، تبعد مسافة أربعة أكيال شمال غرب مدينة نوى.

أما المرحلة الأولى: فكانت في وادي عربة في مكان يسمَّى «الغَمْر». ولما انهزم الروم تبعهم المسلمون إلى مكان يسمَّى «الدُّبيَّة» على بُعْد عشرة أميال للجنوب الشرقي من مدينة رفح. ومنها هرب الروم إلى «داثن»، فلحق بهم المسلمون وانتصروا عليهم، وهرب فلُّهم، وبها تحرَّر جنوب فلسطين، أو منطقة غزة..

ومن المتَّفق عليه أنَّ هذه المعركة كانت قبل قدوم عمرو بن العاص بجيشه، حيث لم يرد له ذكر في المعركة، مع أنَّه كان مختصَّاً بفلسطين، وتم تنفيذ المعركة بأمرٍ من أبي عبيدة بن الجرَّاح. لما نقل المؤرخون عن أبي أُمامة الصدّي بن عجلان الباهلي قال: «كنتُ ممّن سرَّح أبو بكر، مع أبي عبيدة في نفرٍ من قومي، فكانت أول وقعة يوم العربة والداثنة، وليسا من الأيام العظام، فخرجتْ إلينا ستة قوّاد من الروم مع كلّ قائد خمسمئة رجل، فكانوا ثلاثة آلاف رجل، فأقبلوا حتى انتهوا إلى العربة، فبعث يزيد بن أبي سفيان إلى أبي عبيدة يعلمه ذلك، فبعثني إليه في خمسمئة رجل، فلما أتيتُه بعث معي رجلاً في خمسمئة رجل، وأقبل يزيد في آثارنا في الصفّ، فلما رأينا الروم حملنا عليهم فهزمناهم، وقتلنا قائداً من قوّادهم، ثم مضوا واتّبعناهم، فجمعوا لنا بالداثنة ـ من قرى غزَّة ـ فسرنا

إليهم فقدمني يزيد وصاحبي في عُدتنا فهزمناهم، فعند ذلك فزعوا واجتمعوا وأمدَّهم مَلِكُهم».

١١ ـ خالد بن الوليد في الشام:

مضت السنة الثانية عشرة، وشطر من السنة الثالثة عشرة، ولم تقع بين المسلمين والروم معركة حاسمة فاصلة.. وكان أبو عبيدة ـ القائد العام للجيوش الإسلامية ـ يكتب للخليفة في المدينة، بما تخبره به الجواسيس والعيون، والاستخبارات العسكرية، عن تحرُّكات الروم.. فاجتمعت عند الخليفة صورة واضحة عن تجهيزات الروم وحشدهم الجيوش من جندهم ومن عرب الشام الموالين لهم.

وكان خالد بن الوليد قد اقتحم الحدود الجنوبية للعراق، وتقدَّم إليه من اليمامة عبر أراضي كاظمة (الكويت) وهزم هرمز حاكم الأبلّة ثغر العراق لتجارتها مع الهند، ثم اندفع إلى الحيرة فسقطت بين يديه، وراح بعدها يحرر جميع المواقع غرب الفرات، من أدناه إلى شماله، وجاءَته وفود الأقاليم من وراء الفرات مستسلمة تطلب الأمان، وبهذا يكون خالد قد حررَّ الجزء الشرقي من الشام الخاضع للدولة الفارسية، فالشام ـ كما حدده الجغرافيون العرب ـ من الفرات إلى عريش مصر. وهذا ما يؤكد أن فتح الشام كان أولاً، لأن سكان الشام من العرب،

والشام من جزيرة العرب . . ولم يقرّر أبو بكر، ومَنْ بَعْدَه، نَشْر الدعوة خارج حدود بلاد العرب، قبل أن يعرض الدين على العرب أولاً في البلاد التي سكنوها، وأعطوها اسمهم «جزيرة العرب».

وكان جيش خالد بالعراق ثمانية عشر ألفاً، وجيوش المسلمين التي توجَّهت إلى منطقة نفوذ الروم من الشام أربعة وعشرين ألفاً. فقرَّر أبو بكر أن يركز على منطقة نفوذ الروم. . فهناك الأرض الأبرح، وهناك القوَّة الروميَّة التي انتصرت على الفرس في عهد هرقل نفسه، حوالي السنة السادسة للهجرة. وذكر القرآن قصة هذه الحرب في سورة الروم.

وكان خالد بن الوليد رجلاً مؤتّىٰ عبقرياً في الحرب، لم يُهزَم يوماً قطُّ، لا في الجاهلية ولا في الإسلام. فهو الذي هزم المسلمين في أُحد ـ وكانت الغزوة الوحيدة التي هُزم فيها المسلمون في العهد النبويّ ـ وهو الذي أنقذ سريّة مؤتة من الفناء، ولم يكن أحد قادتها، ولقبه يومئذ رسول الله ﷺ «سيف الله».

وهو الذي هزم أهل الردَّة في أيام أبي بكر، ثم كانت على يديه الفتوحات الأولى في الجبهة الشرقية في بلاد الشام (العراق). . ولذلك قرَّر أبو بكر أن يضمَّ جيشه إلى جيوش الشام، فكتب إليه في المحرَّم سنة١٣ هـ: «أما بَعْدُ: فإذا جاءَكَ كتابي فدع العراق، وامضِ متخففاً في أهل القوَّة من أصحابك

الذين قدموا العراق معك من اليمامة وصحبوك من الطريق، وقدموا عليك من الحجاز، حتى تأتي الشام، فتلقى أبا عبيدة بن الجرَّاح ومَنْ معه من المسلمين».

عندئذٍ كتب خالد إلى المسلمين بالشام: «إنَّ كتاب خليفة رسول الله أتاني يأمرني بالمسير إليكم، وقد شمّرتُ وأسرعتُ، وكأنَّ خيلي قد أطلَّت عليكم في رجال، فأبشروا بإنجاز موعود الله وحسن ثوابه».

وكتب إلى أبي عبيدة بن الجرَّاح: «لقد أتاني كتابُ خليفة رسول الله يأمرني بالمسير إلى الشام، وبالمقام على جندها والتولّي لأمرها. . ووالله ما طلبتُ ذلك ولا أردْتُه ولا كتبتُ إليه فيه، وأنت رحمك الله، على حالك التي كنتَ بها، لا يُعصى أمرك ولا يُخالف رأيك، ولا يُقطعُ أمر دونك، فأنت سيدٌ من سادات المسلمين، لا يُنكر فضلك ولا يُستغنى عن رأيك».

هل عُزِل أبو عبيدة عن القيادة؟ وهل ظهر في سلوكه الحربيّ ما يدلُّ على عجزه؟ وهل غضب أبو عبيدة لولاية خالد إمارة الجماعة؟

الجواب: إنَّ أبا عبيدة لم يُعْزل، وليس في نصّ تولية خالد عزل أبي عبيدة. ذلك أنَّ الأمر شورى بين المسلمين، ولا يقطع أحدٌ برأيٍ دون مشورة. وقد كان أبو عبيدة أميراً على الجماعة

في الشام، ولم يكن أميراً على خالد بن الوليد، فهذا قادم جديد، كان أميراً على إقليم، والإمارة ليست للسابق، وإنما هي للكفء في فنّ الحرب، والحرب علمٌ وفنٌّ. فقد سبق يزيدُ بن أبي سفيان أبا عبيدة في التوجُّه إلى الشام، فكان أبو عبيدة أميراً على مَنْ سبقه، ثم جاءَ خالدٌ فكان أمير الجماعة. والإمارة على الحرب لا ترفعُ الأمير، ولا تخفض المأمور، لأنَّ الإمارة تكليف لا تشريف، وإنَّما يتولأَّها صاحب العلم والفنّ، وقلنا: إنَّ الحرب علمٌ وفن.

فإذا كان الله وهب خالداً عِلْم الحرب وفنّه، لا يعني أنه خيرٌ من أبي عبيدة، فقد كان لا بُدَّ من أمير، وخالد له سابق تجربة في الفتح، ومحاربة غير العرب، فما يمنع أن يكون خالد أميراً على الجيوش التي تحارب الروم؟ والإمارة لا تكون للأتقى، والأسبق في الإسلام، فتلك أفضلية عند الله تعالى. وقد ولّى رسول الله ﷺ كثيراً ممن تأخّر إسلامهم إلى ما بَعْد فتح مكّة. ولمَّا توفي رسول الله ﷺ كان أبو سفيان عامله على نجران، وكان أبو سفيان زعيم المشركين إلى يوم فتح مكّة.

١٢ ـ صورة أخرى لبداية فتح الشام، وقوَّاد فتحه:

هذه الصورة التي عرضناها لبداية الاستعداد لفتح الشام، هي الصورة المشهورة المتداولة، ولكن شهرة بعض الأخبار

وتداولها في كتب التاريخ لا يدلُّ على أنَّها صحيحة وثابتة؛ ذلك أنَّ المؤرخين يتبع اللاحق السابق فيما يختاره من الأخبار، ويتوارد على ذكر الخبر عدد من المؤلفين في أزمان متتابعة، فيشيع هذا الخبر، ويظنّ الناسُ أنه هو الأثبت الذي لا تزاحمه رواية أُخرى..

وأرى أنه في مثل روايات تاريخ فتح الشام الكثيرة المتعارضة، يحسنُ الجمع بين الروايات، والأخذ من كل رواية جانباً نضيفه إلى جانب آخر من رواية أُخرى، لتكتمل عندنا الصورة الصحيحة.

والصحيح المتَّفق عليه: أنَّ فتح الشام بدأ في خلافة أبي بكر، وتمَّ في خلافة عمر. وأنَّ أبا عبيدة، وشرحبيل بن حسنة، وعمرو بن العاص، ويزيد بن أبي سفيان، وخالد بن سعيد، وخالد بن الوليد، كانوا قادة فتح بلاد الشام.

ولكنَّ الذي اختلفوا فيه اختلافاً كبيراً:

كيف ومتى بدأت فكرة تحرير الشام، وإبلاغ الدعوة إلى العرب فيها؟

ومَنْ هم القادة الذي أُرسلوا إلى الشام، وما ترتيب إرسالهم، وهل كانت لهم قيادة واحدة ـ في عهد أبي بكر ـ ومَنْ هو القائد العام لهذه الجيوش في عهد أبي بكر؟

وهل كان أبو عبيدة قائداً عامّاً في عهد أبي بكر؟ وهل انضمَّ خالد بن الوليد إلى جيوش الشام بوصفه أميراً عاماً على الجيوش؟

وهل عَزَل عُمر بن الخطاب خالد بن الوليد عن قيادةٍ عامّة، بعهد من أبي بكر؟

١٣ ـ التفكير في إيصال الدعوة إلى الشام:

إنَّ التفكير في إيصال الدعوة إلى عرب الشام كان موجوداً في العصر النبويّ، وعرضنا لغزوات النبي ﷺ وسراياه وبعوثه إلى طريق الشام، وإلى أرض الشام ذاتها. . ولو أمدَّ الله في أجل رسول الله ﷺ لَتَحَقَّق فتح الشام أو جزء منه في العهد النبوي. . ومات رسول الله بعد أن عمَّ الإسلامُ أصقاع الجزيرة العربية في الحجاز ونجد واليمن وديار الخليج أو ما يسمَّى البحرين.

ولم يبقَ إلا الشام من الشاطىء الغربي لنهر الفرات إلى نهر النيل. . وكان العزم معقوداً في نفوس الصحابة، أن يبدأ فتح الشمال أو الشام مع بدايات أيام أبي بكر، ولكنَّ أموراً جديدة طرأت فأخَّرت تجهيز الجيوش إلى هذه الوجهة، وصرفتها الوجهة الجديدة، وهي جهاد أهل الردَّة. ومع ذلك فإنَّ أبا بكر ربط بين الجهتين، فسيَّر معظم الجيوش إلى حرب المرتدّين، ورمز إلى بقاء العزيمة بفتح الشام، بإرسال بَعْث أُسامة الذي

كان مُعدّاً قبل وفاة النبي ﷺ. فلما نجّى الله دينه من حركة الردة، وأعاد العرب إلى حظيرة الإسلام، كان من الطبيعي أن تبدأ مرحلة فتوح الشام.. فأخذ أبو بكر يسيّر الجيوش نحوها.

فالنيّة لفتح الشام لم تطرأ بعد وفاة النبيّ، وإنّما هي كامنة في نفوس المسلمين تنتظر تحقيقها، أو تنتظر دورها وتسلسلها. وكان ذلك منذ حدوث الإسراء، ثم أكّد رسول الله ﷺ النيّة بتبشيره بفتح الشام في أحاديث كثيرة، وسنّه السنن للعبادة في المسجد الأقصى، وإقطاعه المسلمين الأراضي في بلاد الشام، ففهم الصحابةُ أن فتح الشام أمانةٌ في أعناقهم.. ولكن المؤرخين القدماء جعلوا فتح الشام نيّةً طارئة، فنقل ابن عساكر[1] عن ابن إسحاق: أنَّ أبا بكر لما حدَّث نفسه بأن يغزو الروم ولم يطّلعْ عليه أحدٌ، جاءَه شرحبيل بن حسنة فقال: يا خليفة رسول الله، أتحدّث نفسك أنك تبعث إلى الشام جنداً؟ فقال: نعم، قد حدثت نفسي بذلك، وما أطلعتُ عليه أحداً.. ثمَّ قصَّ شرحبيل على أبي بكر رؤيا رآها في منامه، وفسَّرها أبو بكر بأنَّها بُشرى بفتح الشام.. فعند ذلك أمَّر الأمراء، وبعث إلى الشام الفتوح.

---

(١) تاريخ دمشق (١/ ١٢٦).

قلتُ: هذه بداية غير مقبولة، لأنَّ تحقيق الأهداف الكبرى لا يُبنى على الأحلام والرؤى، فذلك كان للنبيّ ﷺ، أما وقد انقطع الوحي، واكتمل الدين، فإننا مطالبون بالعزيمة والعمل والتوكّل على الله تعالى، وإذا صحَّ أن شرحبيل بن حسنة قد رأى ما قصَّه على أبي بكر، فإنه يكون تشوُّقاً لتحقيق البشارات النبويّة بفتح الشام.

وهل بدأ تجهيز الجيوش وإرسالها إلى الشام من المدينة؟

إنني أميلُ إلى الرأي القائل بأن أبا بكر أخذ برأي عبد الرحمن ابن عوف، عندما عرض أبو بكر الأمر على كبار الصحابة، حيث قال عبد الرحمن بن عوف: «إنها الروم وبنو الأصفر، حدٌّ حديد وركن شديد، ما أرى أن تقتحم عليهم اقتحاماً، ولكن تبعث الخيل فتغير على قواصي أرضهم ثم ترجع إليك، وإذا فعلوا ذلك مراراً أضرُّوا بهم وغنموا من أداني أرضهم. . ثم تبعث إلى أراضي اليمن وأقاصي ربيعة ومضر، ثم تجمعهم جميعاً إليك، ثم إن شئتَ بعد ذلك غزوتهم بنفسك وإن شِئْتَ أَغْزَيْتهم. . »[1].

وهو رأي معقول ومقبول، ولا يعترض عليه بذهاب خالد بن الوليد إلى العراق، دون أن تُتَبَع فيه مراحل غزو الشام،

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (١/١٢٨).

ذلك أن الوجود الفارسي غربي الفرات كان أقلَّ من الوجود الرومي في نواحي الشام، وكان الفرسُ قد خرجوا من الشام مهزومين أمام الروم قبل عقد من الزمان، وهي الحرب التي أشار إليها القرآن في سورة الروم. ثم إن الروم دخلوا النصرانية، وأصبحت بلاد الشام مقدَّسة عندهم، لوجود بيت المقدس فيها، فدفاعهم عنها يكون أشدّ من دفاع الفرس عن مناطق نفوذهم غربي الفرات.

١٤ ـ مراحل تحرير الشام:

إنَّ تحرير الشام من أيدي الروم مرَّ بمراحل:

الأولى: المناوشات والإغارة على الأطراف.

الثانية: إرسال الرُّسل إلى قبائل العرب، لدعوتهم إلى الجهاد.

الثالثة: عقْد الألوية لقُوَّاد فتح الشام.

وكانت **المرحلة الأولى**: عندما أرسل أبو بكر خالد بن سعيد بن العاص وأمره أن ينزل تيماء في شمال المدينة، وبلغ الروم عِظَمَ ذلك العسكر، فضربوا على العرب الضاحية البعوث، ليستعينوا بهم.. فكتب خالد إلى أبي بكر بذلك، فكتب إليه أبو بكر أن أَقْدِم ولا تُحْجِم واستنصر الله. فسار إليهم خالد بن سعيد.

وفي المرحلة الأولى أرسل أبو بكر إلى الوليد بن عقبة، وكان عاملاً على صدقات قضاعة في الشمال، وطلب منه أن ينيب عنه مَنْ يراه على عمله، فأجابه الوليد، وندب الناس إلى الجهاد فتضامَّ إليه بشرٌ كثير، واتَّجه نحو الأردن.

وكان عمرو بن العاص والياً على صدقات عُذْرة وجُذام في الشمال فكتب إليه أبو بكر: «وقد أحببتُ أن أُفرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك، إلا أن يكون الذي أنت فيه أحبّ إليك». فكتب إليه عمرو: «إني سهم من سهام الإسلام» ولبى الدعوة، وسار بجيشٍ إلى فلسطين من ناحية أيلة «العقبة» ولعلَّه سار في هذه الطريق، لأنه مأمون، حيث عُقِدتْ معاهدة بين المسلمين وصاحب أيلة منذ غزوة تبوك.

المرحلة الثانية: أرسل أبو بكر أنس بن مالك بكتاب إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الجهاد، ويخبرهم بعزمه على فتح الشام، فلبت القبائل اليمانية نداء أبي بكر، وأخذت تتجهَّز وتتَّجه نحو المدينة النبويَّة.

المرحلة الثالثة: مرحلة العزم على التوغل في بلاد الشام، وتسيير الجيوش من المدينة.. وإنما كانت جيوشاً، وليس جيشاً واحداً، لأسباب منها:

١ ـ أنَّ المجاهدين كانوا يتقاطرون على المدينة، فإذا اجتمع منهم عددٌ كافٍ أمَّر عليهم الأمير، واتَّجهوا نحو الهدف، وذلك أنَّ المدينة لا تحتمل مكوث عدد كبير من الناس فيها مدة طويلة، وخصوصاً أنَّ المجاهدين كانوا يأتون بنسائهم وذراريهم، حيث وقر في نفوسهم أن الفتح حاصل لا محالة، وأنهم سيرابطون في البلاد المفتوحة.

٢ ـ لأن تعدد الجيوش يربك العدوّ من حيث إخفاء مقصد كل جيش عليه، ويشتتُ تخطيط العدوّ حيث يوزّع قواته لملاقاة كل جيش منها، وتتعدَّد أماكن المرابطة ومواقع الدفاع، في حين يستطيع أي جيش من جيوش المسلمين أن يجد العون من الآخرين ـ سواء أكان بالانضمام إليه، أم بقيامه بعمليات منفردة تضطر العدوّ إلى تثبيت قوَّاته أو توجيهها وجهة معيَّنة.

١٥ ـ قوَّاد الفتح وإمارة الجيش في عهد أبي بكر:

قوَّاد فتح الشام المذكورون هم:

يزيد بن أبي سفيان

شرحبيل بن حسنة.

عمرو بن العاص.

أبو عبيدة بن الجراح.

خالد بن سعيد بن العاص بن أميَّة.

الوليد بن عقبة.

وخالد بن الوليد.

والروايات تختلف في تعيين مَنْ عُقِدَ لهم في المدينة، ولكنهم يتَّفقون على تعيين يزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة. ويختلفون في أبي عبيدة، وعمرو بن العاص، وخالد بن سعيد، والوليد بن عقبة.. وأما خالد بن الوليد فمن المتَّفق عليه أنه كان في العراق ثم قدِم إلى الشام.

ويعنينا في قصَّة الأمراء: أبو عبيدة بن الجراح، لأنه صاحب الترجمة. فهناك رواية تقول: إن أبا بكر أرسل إلى يزيد بن أبي سفيان وأبي عبيدة، ومعاذ بن جبل وشرحبيل بن حسنة فقال لهم: «إني باعثكم في هذا الوجه (الشام) ومؤمّركم على هذه الجنود، وأنا موجه مع كل رجل منكم من الرجال ما قدرت عليه، فإذا قدمتم البلد ولقيتم الجنود واجتمعتم على قتالهم، فأميركم أبو عبيدة بن الجرَّاح».

وإن لم يلقكم أبو عبيدة، وجمعتكم حرب، فأميركم يزيد بن أبي سفيان؛ وقد انفرد الأزدي بهذه الرواية، قال: «حدَّثني الحارث بن كعب عن عبد الله بن أبي أوفى الخزاعي». وهذا

السند ضعيف جداً لا يُعتمد في التأريخ، ويساوي الرواية بلا إسناد، من حيث احتمال الصدق والكذب. ومعاذ بن جبل لم يذكره أحدٌ في قوّاد الفتوح، وإنما كان في جيش فتح الشام. والمتن فيه اضطراب، حيث علَّق الإمارة بالالتقاء فقط، فإذا لم يكن لقاء فلا إمارة. وهذا يعني أنه لم يكن للجيوش قيادة واحدة حين تفرقهم، وأما كونهم يوحّدون قيادتهم حين لقاء العدوّ، فهذا أمر يفرضه الشرع، ويفرضه فنُّ الحرب.

ورواية أخرى نقلها البلاذري في كتاب «فتوح البلدان» تقول:

«إنَّ أبا بكر عقد ثلاثة ألوية لثلاثة رجال: خالد بن سعيد وشرحبيل بن حسنة، وعمرو بن العاص. وكان عَقْدُ الألوية يوم الخميس المستهلّ صفر سنة ١٣هـ، وذلك بعد مقام الجيوش معسكرين بالجُرف المحرم كله، وأبو عبيدة بن الجرَّاح يصلي بهم. وكان أبو بكر أراد أبا عبيدة أن يعقد له، فاستعفاه من ذلك. وقد روى قوم أنه عقد له، وليس ذلك بثبت، ولكن عمر ولأّه الشام كلَّه حين استخلف.

ويهمّنا في رواية البلاذري أن أبا عبيدة لم يُعقد له في المدينة، وإنما كان يصلّي بالناس إلى حين تسييرهم إلى الشام، ويعني هذا أنه ذهب إلى الشام جندياً في جيش.

وجاء خالد بن الوليد من العراق إلى الشام بأمرٍ من أبي بكر، وفي رتبته العسكرية حين وصل إلى الشام، روايتان:

الأولى: إنَّ أبا بكر جعله أميراً على الأمراء في الحرب.

والثانية: كان خالدٌ أميراً على أصحابه الذين شخصوا معه، وكان المسلمون إذا اجتمعوا لحربٍ أمَّره الأمراءُ فيها لبأسه وكيده ويُمْنِ نقيبته.

وليس هناك اختلاف كبير بين الروايتين:

فالرواية الأولى: تجعله أميراً في الحرب، وليس أميراً عاماً دائماً.

والرواية الثانية: تجعل الإمارة اختيارية من قبل الأمراء وليس بأمر من الخليفة. وأميل إلى ترجيح الرواية الثانية، لأنَّ أُمراء الشام قبل مجيء خالد، لم يجتمعوا على أميرٍ واحدٍ، لأنَّ المعارك لم تجمعهم في صعيد واحد.

وبهذا نصل إلى القول: إن أبا عبيدة لم يكن - في عهد أبي بكر - أميراً عامّاً على جيوش الشام، وعندما جاء خالد إلى الشام، وقاد المسلمين في المعارك التي جرت أيام أبي بكر، لم يعزل أحداً عن قيادة، ولم يحلّ محل أحدٍ في قيادة عامة.

وعندما أمر عمر بن الخطاب ـ بعد وفاة أبي بكر ـ بتولية أبي عبيدة أميراً على الجيوش، وعلى الشام، لم يعزلْ خالد بن الوليد عن القيادة، أو الإمارة، بل اختار واحداً من الصالحين للقيادة ليكون أميراً عاماً للجماعة، والصالحون للقيادة كثيرون، ولا بُدَّ من أمير واحد، فوقع الاختيار على أبي عبيدة، فجمع بين حكمة أبي عبيدة وعبقرية خالد الحربيّة في هذا الاختيار. لأن عمر بن الخطاب يعرف بفراسته أن أبا عبيدة سوف يكون قادراً على الاستفادة من شجاعة خالد الحربية وآرائه الموفقة، وأنَّ خالد بن الوليد لن يغضب إذا عمل تحت قيادة أبي عبيدة فهو الأقدم إسلاماً، وهو أمين هذه الأمة، كما شهد بذلك رسول الله ﷺ.

١٦ ـ التحقيق في قصة عزل خالد وتولية أبي عبيدة:

تناقل الرواة في قصة خالد وأبي عبيدة لفظ «عَزَل عمرُ خالداً» و «ولَّى أبا عبيدة» وربما جاء هذا الوهم من أن كتاب عمر وصل إلى الناس في الشام في أثناء اجتماع المسلمين في معركة، وكانوا إذا اجتمعوا ولّوا عليهم أميراً عامًّا، وهي السنّة: «إذا كنتم ثلاثةً فأمِّروا أحدكم». ولكن المؤرخين لم يتَّفقوا على زمن وصول كتاب عمر بتولية أبي عبيدة. فقال قومٌ: أثناء حصار دمشق، وقال آخرون: أثناء معركة اليرموك. وليس بين هذه

الروايات تفاضل، وليس هناك رواية أوْلَى بالقبول من رواية، لأنهم اختلفوا أيضاً في زمن فتح دمشق: هل كان قبل اليرموك أم بعدها؟

ولم أجد رواية مسندة صحيحة بعزل خالد عن ولاية الشام، وأقوى أسانيد القصة ضعيف، حيث روى الإمام أحمد[1] عن عبد الملك بن عمير قال: استعمل عمر بن الخطاب أبا عبيدة بن الجرَّاح على الشام، وعزل خالد بن الوليد، قال: فقال خالد بن الوليد: بُعثَ عليكم أمين هذه الأمَّة، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجرَّاح». قال أبو عبيدة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خالد سيف من سيوف الله ونِعْمَ فتى العشيرة».

وسند هذا الخبر ضعيف، لأن عبد الملك بن عمير ولد سنة ٣٢هـ، فلم يُدرك عمر بن الخطاب، وأبا عبيدة، وخالد بن الوليد، فروايته عنهم منقطعة. وقال أحمد: إنه مضطرب الحديث جداً. وقال ابن معين: إنه مخلط. وأنه كان مدلساً.

وقال: «بَعَث عليكم» وهذا يوحي بأن أبا عبيدة كان في المدينة، والمشهور أنه كان بالشام حين مات أبو بكر.

---

(١) المسند (٤/ ٩٠).

ويصح في متن الحديث ما رواه أبو عبيدة وخالد عن رسول الله في مناقب الرجال، فهذا القدر من المتن له شواهد في الصحيح.

وإذا كان عمر لم يعزل خالداً عن ولاية الشام، لأن خالداً لم يكن والياً عليها، فكلُّ ما ذكره الرواة في تعليل العَزْل باطل، لأن أصل القصة غير صحيح. وكلُّ ما في القصَّة أنَّ عمر لم يولِّ خالداً على الشام، وكان الناسُ يرون خالداً أهلاً لذلك، وهذا صحيح، ولكنه الكفءُ لها من ناحية الحرب، والولاية التي تولأها أبو عبيدة كانت عامَّة تشمل الحرب والإمارة والإدارة، ولصاحب الولاية العامة أن يختار الكفء لجانب من جوانب الولاية، ولهذا فإن أبا عبيدة اعتمد على عبقرية خالد الحربية في جميع المعارك والفتوح التي تمَّت تحت ولايته.

١٧ ـ التحقيق في قصة خالد ومالك بن نويرة:

والذين قالوا: إنَّ عمرَ عزل خالد بن الوليد، جعلوا في رأس أسباب العَزْل أن خالداً قَتَلَ مالك بن نويرة مسلماً، وتزوَّجَ امرأته، وكادوا يقولون إنَّ خالداً قتل مالكاً لسبي امرأته، وزعموا أنَّ عُمرَ أنكر ذلك على خالد، وطلب من أبي بكر أن يعزله عن قيادة الحرب، وزعموا أيضاً أن أبا بكر سكت عن زلّة خالد لحاجته إليه في الحرب، وأنه دفع دية مالك، وطلَّق امرأته من خالد.

قلتُ: وهذا كلُّه كذبٌ، ترويه كتب التاريخ والأدب، معزواً إلى فلانٍ وفلان ممن تفصله عن القصة مدة قرنين أو أكثر، وليس عنده سندٌ متَّصل ولا منقطع.. وما كان للمؤرخين أن يخوضوا في هذه القصة، وهم لا يعلمون لها سنداً، ولا يدرون لها وجهاً صحيحاً، لأنَّهم يشيعون الفاحشة، ويذيعون الأكاذيب.

وهم بذلك يُعدُّون من الكاذبين الذين يتعمّدون قول الكذب، ويتحمّلون إثم الكذب وإثم مَنْ يرويه عنهم من أغرار الناس، وبَبَّغاوات القصص. وفي الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: «كفى بالمرءِ كذباً أن يحدّث بكلّ ما سمع». وعن عمر رضي الله عنه: «بحسب المرءِ من الكذب أن يحدّث بكل ما سمع».

وإذا كان المؤرخون الفسقة قد خاضوا في القصة ونقلوها، فكيف يصحُّ لرجال الحديث أن ينقلوها في تراجم الصحابة.. وقد سقط في هذه الموبأة ابن حجر العسقلاني في كتابه: «الإصابة في تمييز الصحبة» فنقل عن المؤرخين الأكاذيب في تراجم الصحابة.. فقال: «وكان سبب عزل عمر خالداً ما ذكره الزبير بن بكَّار...» وذكر القصة. فلماذا لم يطلب من الزبير بن بكّار سنداً لما قاله ونقله، كما يطلب الأسانيد في الأحاديث المرفوعة إلى النبي ﷺ. أليست أفعال الصحابة سنة؟ ألم ينهل الصحابة من معين رسول الله ﷺ.

ويعجبني ابن سلام الجمحي في كتاب «طبقات الشعراء» حيث قال في ترجمة متمم بن نويرة أخي مالك: «رثى أخاه مالك بن نويرة، وكان قتله خالد بن الوليد، حين وجَّهه أبو بكر إلى أهل الردَّة. فمن الحديث ما جاء على وجهه، ومنه ما ذهب معناه علينا للاختلاف فيه. وحديث مالك مما اختُلِف فيه فلم نقف منه على ما نريد. وقد سمعتُ فيه أقاويل شتى.. والمجمع عليه: أن خالداً حاور مالكاً وراده، وأن مالكاً سمح بالصلاة والْتوى بالزكاة، فقال خالد: أما علمت أن الصلاة والزكاة معاً، لا تُقبل واحدة دون الأخرى، قال: قد كان يقولُ ذلك صاحبكم (يريد محمداً عليه الصلاة والسلام) قال: وما تراه لك صاحباً؟ والله لقد هممتُ أن أضرب عُنُقك، ثم تحاوروا فقال له خالد: إني قاتلك. قال: وبذا أمرك صاحبك؟ قال: وهذه بَعْدُ، والله لا أُقيلك، وتأوَّل خالدٌ ذلك بأنه إنكار منه للنبوة.

وكان مالكٌ قدم على رسول الله ﷺ فيمن قدم من أمثاله من العرب، فولاَّه صدقات قومه بني يربوع، فلما قُبِضَ رسول الله اضطرب فيها فلم يُحمد أمره، وفرَّق ما في يده من إبل الصدقة، فكلَّمه الأقرع بن حابس المجاشعي والقعقاع بن معبد فقالا له: إن لهذا الأمر قائماً وطالباً، فلا تعجلْ بتفرقةِ ما في يديك، وقال مالك شعراً:

وقلتُ: خُذُوا أموالكم غَيْرَ خائفٍ
ولا نـاظـرٍ فيمـا يجـيءُ مـن الغـدِ
فـإن قـام بالأمـر المخوَّف قـائـمٌ
مَنَعْنا وقلنا: الدينُ دينُ محمدِ[1]

فهذه الشواهد تدلُّ على أن مالكاً منع الزكاة، وعدَّ الطاعةَ فيها لمحمد عليه الصلاة والسلام فقط.

وقد بوَّب البخاري في كتاب (استتابة المرتدين) باب قَتْل مَنْ أبى قبول الفرائض. «وروى قول أبي بكر: واللهِ لأقاتلنَّ مَنْ فرَّق بين الصلاةِ والزكاة.. والله لو منعوني عَناقاً كانوا يؤدُّونها إلى رسول الله لقاتلتهم على مَنْعها. قال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيتُ أن قد شرح الله صدر أبي بكر للقتال، فعرفتُ أنه الحق».

قال ابن سلام الجمحي في كتاب الطبقات: «ومن أحسن مما سمعتُ من عُذْر خالدٍ، ما ذكروا أن عمر قال لمتمم بن نويرة: ما بلغ من جَزَعِكَ على أخيك؟ ـ وكان متمم أعور ـ

---

(١) الأمر المخوَّف: الذي خوفتموني به. والدين هنا: الطاعة. يقول: نمنع أن نعطي أيدينا، ونقول لهذا القائم بالأمر: إنما كانت الطاعة لمحمد وحده. وكذب فيما قال.

قال: بكيتُ عليه بعيني الصحيحة حتى نفد ماؤها فأسْعدتْها أُختها الذاهبة. فقال عمر: لو كنتُ شاعراً لقلتُ في أخي أجود مما قلت. قال: ياأمير المؤمنين: لو كان أخي أصيب مُصاب أخيك ما بكيته. فقال عمر: ما عزَّاني أحدٌ عنه بأحسنَ مما عزيتني».

وروى المبرّد في التعازي والمراثي ما يوضح هذه العبارة، أن عمر قال: لوددتُ أنك رثيت أخي بما رثيت به أخاك. فقال له: يا أبا حفص. لو علمتُ أن أخي صار حيث صار أخوك، ما رثيتُه. يقول: إن أخاك قُتِلَ شهيداً. وكان زيد بن الخطاب أخو عمر بن الخطاب استشهد في قتال المرتدين..

قالوا: وكان عمر بن الخطاب ينكر أشياء على خالد.. وذكروا منها قصة زوجة مالك التي صارت إلى خالد بعده.

قلتُ: إن عمر لم ينكر على خالد كونه تزوّج بامرأة مالك، وإنَّما الذي أنكره عمر من هذه القصة كون زوجة مالك ذات صلة بالغنائم، وأن خالداً اصطفاها لنفسه من دون المسلمين.. يدلُّ على ذلك ما نقله ابن حجر في ترجمة خالد من الإصابة: «أن خالداً كان إذا صار إليه المال قسمه في أهل الغنائم ولم يرفع إلى أبي بكر حساباً، وكان عمر ينكر هذا وشبهه على خالد».

ورُوي عن عُمر قوله: «إن ما عتبتُ على خالدٍ إلاَّ في تقدُّمه وما كان يصنع في المال».

١٨ ـ فتح بصرى:

إن أول مدينة محصنة تمَّ فتحها هي مدينة «بُصرى» قصبة حوران، وكان ذلك في الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ١٣هـ بعد قدوم خالد إلى الشام..

وبَعْدَ بُصرى توجَّه أبو عبيدة وخالد بن الوليد إلى حصار دمشق، وبقي شرحبيل في بُصرى، ويزيد بن أبي سفيان في البلقاء، وعمرو بن العاص في فلسطين. وبينما كان أبو عبيدة وخالد يُقاتلان مَنْ بجهة دمشق، جاءَتهما العيون بالأخبار تقول: إن وردان الأمير الرومي على حمص، خرج منها في جيش رومي كبير متجهاً نحو بُصرى، لاستردادها من أيدي المسلمين، وقطْع جيش أبي عبيدة وخالد عن بقية الجيوش.

وجاءَ إلى أبي عبيدة وخالد خبر آخر يقول: إن جيشاً كبيراً آخر للروم قد نزل بأجنادين من جنوب فلسطين، وعليهم قائد اسمه «تذارق» فالتقى أبو عبيدة وخالد، وتشاورا في ذلك، فاستقرَّ الرأيُ أن يتجها إلى أجنادين، حيث الجيش الرومي الأكبر، وأن يكتبا إلى الجيوش الأخرى للاجتماع في ذلك

المكان.. وتمَّ ما اتُّفق عليه، وكان لقاءٌ بين جيش الروم الذي يبلغ عدده حوالي مئة ألف، وبين جيش المسلمين البالغ عدده حوالي ثلاثين ألفاً. فنصر الله الملسمين، وهزم الروم شرَّ هزيمة، وانتهى خبر الهزيمة إلى هرقل، فنخب قلبُه وأُسقط في يده وملىء رُعباً، فهرب من حمص إلى أنطاكية. وكانت معركة أجنادين يوم السبت السابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ١٣هـ الموافق ٣٠ تموز سنة ٦٣٤م.

ونتيجة لهزيمة الروم في أجنادين، أصبحت فلسطين كلها مكشوفة أمام المسلمين.

١٩ ـ التحقيق بشأن مكان «أجنادين»:

لم ترصد الجغرافية الحديثة في فلسطين بقعةً آهلة، أو خربة، أو جبلاً أو وادياً باسم «أجنادين» ولم يذكر الرحالة القدماء أنهم مرُّوا على مكان في فلسطين اسمه «أجنادين». وذكر الجغرافيون العرب موضع أجنادين، بصيغة تدلُّ على أنهم لم يَرَوْه، وإنَّما سمعوا به فذكروه؛ فالبكري في كتاب «معجم ما استعجم» يقول: «أجنادين» موضع من بلاد الأردن بالشام، وقيل: بل من أرض فلسطين بين الرملة وحبرون»؛ وقال ياقوت في معجم البلدان: «هو موضع معروف بالشام من نواحي فلسطين، ونقل عن غيره أن أجنادين من الرملة من كورة بيت جبرين، كانت به وقْعة بين المسلمين والروم».

وهذا ليس تحديداً لمكان، وإنَّما هو تعمية مَنْ لم يعرف المكان ولم يَرَه، ولو رأوه لوصفوه كما وصفوا غيره. وإنما قال: من الرملة من كورة بيت جبرين، لأنهم يعرفون أن المعركة وقعت في هذه النواحي. والطريق بين جبرين والرملة نحو خمسين كيلاً، والخط المستقيم بينهما ٣٥ كيلاً. وبين هذه وتلك عشرات القرى والمواقع؛ ففلسطين صغيرة وقراها متراصَّة متقاربة جداً. . ففي أي مكان كانت المعركة، وأي مكان كان يسمَّى أجنادين؟

ويظهر من سياق كلام الجغرافيين القدماء، أن اسم «أجنادين» وصلهم مكتوباً، ولم يسمعْه أحدٌ من الواضعين الأوائل لهذا الاسم، ولذلك تجدهم يختلفون في لفظه. قال ياقوت: وأكثر أهل الحديث يقولون إنه بلفظ التثنية ـ بفتح الدال ـ ومن المحصّلين مَنْ يقوله بلفظ الجمع ولم أعرف مَنْ هم المحصّلون: هل هم طلاب العلم، أم هم الذين يحصّلون الزكاة؟ وقد ورد اسم «أجنادين» في الرسائل التي كتبها الصحابة من الشام إلى أبي بكر في المدينة، ولكن هذه الرسائل لا نثق بصحة نصها، لأننا لا نعلم كيف حصل المؤرخون عليها، وأسلوبها ينبىء عن الوضع والتلفيق، وربما صحَّ معناها، ولكن لا يصحُّ لفظها.

ونقل ياقوت الحموي شعراً لزياد بن حنظلة، وهو صحابي شهد المعركة، جاء فيه اسم «أجنادين»؛ حيث قال:

ونحن تركنا أَرَطبونَ مطرّداً
إلى المسجد الأقصى وفيه حسُور
عشيَّةَ أجنادين لما تتابعوا
وقامت عليهم بالعراءِ نسورُ

ولكن الأشعار التي ترد في كتب التاريخ والسيرة، ليس كلها صحيح النسبة، فقد دأب المؤرخون على تلخيص قصة المعركة في أبيات ينسبونها إلى شاعر لم يقلها.

ونُسبَ أيضاً إلى كثير عزّة بن عبد الرحمن قوله:

فإن لم تكن بالشام داري مقيمةً
فإنَّ بأجنادين كِنّي ومَسْكني

وكثيّر شاعر أُموي توفي سنة ١٠٥هـ.

وشعر كثيّر فيه الكثير من المنحول، وفي البيت اضطراب في المعنى، فهو يخبر أن داره ليس في الشام ثم يقول إن كِنّه ومسكنه بأجنادين. نقول: إذا كان قد وصلنا، أو وصل إلى المؤرخين، لفظ «أجنادين» مكتوباً، ولم يصل بالسند المتَّصل مسموعاً، فإنَّه قد يكون محرفاً من غيره، مما يشبهه في رسمه.. وهذا الرأي

يساعدنا على تحديد مكان معركة أجنادين على وجه اليقين:

فهناك خربتان: الأولى تسمى «جنابة الفوقا» والثانية «جنابة التحتا» في ظاهر قرية عجّورٍ الشرقي في الشمال الغربي من الخليل. عند خط الطول ٥٧ ٣٤ شرقاً وخط عرض ٤١ ٣١ شمالاً. ويمرُّ بجوارهما وادي «السنت» أو «البطم» وهو نوع من الشجر، وقد يقال وادي «الصمت» بالميم، لقرب مخرجها من النون. في هذا الوادي، بجوار الجنّابة الغربية والشرقية وقعت معركة أجنادين.

فإمّا أن تكون الباء من «جنابة» محرَّفة من الدال ويكون لفظها «جنادة» أو تكون الدال من أجنادين محرفة من الباء، ويكون لفظها «أجنابين»، وقد ذكر الدباغ أن أحد أقسام الوادي يسمى «الجندي».

ومما يستأنس به على أن «أجنادين» كانت في «وادي السنت» أن المؤرخين ذكروا خرافة لها واقع صحيح، وهي قولهم: «ولما كانت وقعة أجنادين، التقوا على النهر فكثر القَتْلُ في الروم يومئذٍ حتى جرى النهر، وطحنت طاحونة بدمائهم».

فالكذب في هذا الخبر: أن الطاحونة تحركت بفعل جريان الدماء في النهر، والذي يستأنس أنه صحيح، قولهم: «التقوا على النهر» وهو الوادي الذي جرت المعركة على جانبيه.

٢٠ ـ وفاة أبي بكر وولاية عمر، وموقع الحدث:

توفي أبو بكر رضي الله عنه في الحادي والعشرين من جمادى الآخرة سنة ١٣هـ الموافق ٢٣ من آب سنة ٦٣٤هـ. وكان قد أوصى بتولية عمر من بعده. فكان أول ما فعل عمر بن الخطاب أن جمع المسلمين في الشام على أمير واحد في جميع شؤونهم الحربية والإدارية، وكتب إلى أبي عبيدة: «قد ولّيتك جماعة المسلمين، فبثَّ سراياك.. وانظر في ذلك برأيك ومَنْ حضرك من المسلمين.. ومَنْ احتجتَ إليه في حصارك فاحتبسه، وليكن فيمن يحتبس خالد بن الوليد فإنه لا غنى بك عنه».

فهذه الرسالة تنصُّ على تولية أبي عبيدة، ولم تنصّ على عزل خالد لأن خالد بن الوليد لم يكن أمير الجماعة في الشام، وإنما كانوا يؤمرونه إذا اجتمعوا على عدوّهم في معركة.

ولم تكن ولاية أبي عبيدة، وعزْل خالد ـ على زعْم مَنْ يقول إنه عُزل ـ أثناء معركة اليرموك، كما هو شائع بين الناس، ولم يثبت أن كتاب عمر بتولية أبي عبيدة، وصل أثناء معركة فاصلة.. وإنما قال ذلك مَنْ لم يدقق في مواقيت الأحداث والمعارك، وقال هذا مَنْ لا يميز بين الروايات.. فتواريخ الوقائع جرت على النحو التالي:

١ـ معركة أجنادين في ٢٧ جمادىٰ الأولى سنة ١٣هـ ٣٠/ ٧/ ٦٣٤م، وقد أمَّر المسلمون عليهم خالد بن الوليد.

٢ـ وفاة أبي بكر في ٢١ جمادىٰ الآخرة سنة ١٣هـ ٢٣/ ٨/ ٦٣٤م.

٣ـ معركة فحل ـ بيسان في ٢٨ ذي القعدة سنة ١٣هـ ٢٣/ ١/ ٦٣٥م.

٤ـ فتح دمشق في ١٥ رجب سنة ١٤هـ الموافق أيلول ٦٣٥م.

٥ـ معركة اليرموك ٥ رجب سنة ١٥هـ ١٢/ ٨/ ٦٣٦م.

٦ـ فتح القدس ربيع الآخر سنة ١٦هـ الموافق أيار ٦٣٧م.

فقد ظهر أنه بين وفاة أبي بكر، ومعركة اليرموك حوالي أربعة وعشرين شهراً، وإذا كان عمَرُ مبيّتاً عزل خالد في نفسه ـ كما زعموا ـ فإنه لن ينتظر هذه المدَّة لعزْله.. وإنما ينتظر شهراً أو شهرين، لتصل أوّل رسالة إلى المسلمين تخبر بوفاة أبي بكر، ويكون فيها التغيرات الإدارية التي يرغب فيها الخليفة الجديد..

مع أنه لو صحَّ أن عُمَرَ عزل خالداً وولَّى أبا عبيدة، فإنَّ ذلك لا يطعن في سياسة عُمر، ولا يخفضُ منزلة خالد.. وإنما يكون العزلُ معيباً، لو أنَّ عُمرَ حبس خالداً، أو حرمه من المشاركة في الجهاد.. أو أنَّ خالداً قصَّر في مهماته الحربية

عندما صار مأموراً. . ولكن ذلك كله لم يحصل، وتمَّ الفتح على الوجه الصحيح.

٢١ ـ فِحْل بيسان:

كانت فِحْل تعرف عند الروم باسم «بلاّ» وهي اليوم أطلال، تقع إلى الشرق من نهر الأردن، بين نهر الزرقا جنوباً ونهر اليرموك شمالاً، وبين آبل إلى جنوبها الشرقي وبيسان إلى شمالها الغربي عبر نهر الأردن. . أنشأها المكدونيون عام ٣١٠ ق.م، واستولى عليها السلوقيّون عام ٢١٨ ق.م، ثم الرومان عام ٦٨، وبها اليوم أطلال يونانية ورومانية. وتسمَّى خربة فِحْل.

وكان هرقل أراد وقْف زحف المسلمين الذين وصلوا إلى دمشق، فحشد نواحي فحل جنداً كثيراً بقيادة (سقلار) أحد خاصته، فقابلهم المسلمون بحشد معظم جندهم بالشام، وعلى رأسهم كبار قوّادهم، وكانت القيادة العامّة لأبي عبيدة بن الجرَّاح، وكان خالد بن الوليد على المقدمة، وكانت كلها من الفرسان، وعلى الميمنة معاذ بن جبل، وعلى الميسرة هاشم بن عتبة. . فلما رأت الروم تصميم المسلمين على حربهم بثقوا المياه من سدود بيسان التي كانت تحيط بها قنوات كثيرة يرفدها نهر الأردن، بقصد أن تتوحَّل الأرض وتعوق تقدّمهم، ولكن

المسلمين أخذوهم على غِرَّة، فاقتتل الفريقان قتالاً شديداً لم يشهد مثله من قبل واستمرَّ ليلتهم ونهارهم، فلما أظلم الليل التالي دفع المسلمون الروم إلى ذلك الوحل أو ما يسمى «الردغة».. وركبوهم فيها بالرماح، فأصاب العربُ قائدهم سقلار والذي يليه، وقتلوا من الروم ألوفاً، ولم ينجُ منهم إلا الشريد، ولذلك عرفت تلك الواقعة بيوم فِحل أو يوم الرّدغة أو يوم بيسان، وقد ترتّب على هزيمة الروم محاصرة «فحل»، فكانت أول المدن المحاصرة في الشام، فسأل أهلها الأمان على أداء الجزية، فترك عليهم أبو عبيدة فيها الأمير شرحبيل بن حسنة الذي استمرَّ عليها والياً إلى أن هلك في طاعون عمواس. وبعد هذه المعركة لم تَعُدْ قوات رومية في فلسطين تستطيع الوقوف أمام زحف المسلمين.

٢٢ - فتح دمشق:

دمشق، اسم عربي آرامي بلفظ «دار مِسِق» بمعنى الأرض أو الدار المسقيّة. وحَرَّف اليونان والرومان هذا الاسم إلى «داماسكس» وورد في الوثائق الفرعونية «دمشقا» و«تمشقو» وفي النصوص الآشورية «دمشقي» وكلها مأخوذة من الأصل العربي الآرامي.. وربما أخذه المؤرخون والجغرافيون العرب عن التوراة، بلفظ «دمشق» فما أكثر ما ينقل المؤرخون العرب عن

التوراة! ولم نقع على نصّ عربي جاهلي يذكر «دمشق»، ولم ترد في شعر حسان بن ثابت، مع كثرة المعالم الشامية التي وردت في شعره. . وزعم المؤرخون أن «جلّق» في شعر حسان، هي دمشق، ولم يثبت ذلك، لأنَّ جلّق، إحدى عواصم الغساسنة كانت في حوران، وانظر كتابنا «حسان بن ثابت» في سلسلة أعلام المسلمين. كانت دمشق محصّنة بأسوار عالية تحيط بالمدينة إحاطة السوار بالمعصم في حيز طوله حوالي ١٦٠٠م، وعرضه نحو ١٠٠٠م. وكان يحيط بالسور خندق مملوء بالماء، يقترب منه حتى يكاد يلاصقه في بعض المواضع، أو يبتعد عنه مسافة قد تصل إلى عشرين متراً في مواضع أُخرى، وكان لها ستة أبواب هي: الباب الشرقي، وباب توما، وباب الفراديس، وباب الجابية، والباب الصغير، وباب كيسان. وسور دمشق بناه الرومان فيما بين عام ١٠٥، و٢٩٥م كان ارتفاعه نحواً من ستة أمتار، وسمكه خمسة عشر قدماً.

كان اليوم الفاصل لمعركة فحل ٢٨ من ذي القعدة سنة ١٣هـ، وبعد المعركة توجَّه أبو عبيدة بن الجرَّاح بجيوش المسلمين من الأردن إلى دمشق فحاصرها من جميع جهاتها أربعة أشهر، استولى المسلمون أثناءها على غوطة دمشق. ونزل خالد بن الوليد أمام الباب الشرقي، ونزل أبو عبيدة على باب الجابية غربي المدينة. ونزل يزيد بن أبي سفيان على الباب

الصغير إلى باب كيسان (باب يونس قبل الفتح).

ونزل عمرو بن العاص على باب توما في الشمال، ونزل شرحبيل بن حسنة على باب الفراديس. . وتمَّ الفتح يوم الأحد الخامس عشر من رجب سنة ١٤هـ الموافق ٣/ ٩/ ٦٣٥م.

ويختلف رواة فتوح الشام، شأنهم في كل واقعة ـ فيمن كتب العهد والأمان لأهل دمشق، أهو أبو عبيدة، أم خالد بن الوليد، وهل فتحتْ دمشق كلها صُلحاً، أم فتح بعضها عنوة. . ولن نخوض في هذا الخلاف. ولكن المحقّق أن أبا عبيدة، كان الأمير المؤمّر على أهل الشام قاطبة، وأنَّه اشترك في فتح دمشق مع غيره من قوَّاد المسلمين، وأنَّه دخلها من باب الجابية.

ولما كان فتح دمشق، في بواكير فصل الشتاء، فقد أمضى المسلمون بقية الفصل البارد في دمشق. . وبعد انقضاء فصل الشتاء توجَّه أبو عبيدة وخالد بن الوليد إلى حمص لفتحها، وسلكوا إليها طريق سهل البقاع ماراً بمدينة بعلبك ثم جوسية[1]

---

(١) جوسية: في المعجم الجغرافي للقطر السوري «جوسية الخراب» و«جوسية العمار». وهما متجاورتان في منطقة القصير في محافظة حمص. على الحدود بين لبنان وسورية. . تبعد عن حمص ٣٨ كيلاً في الجنوب الغربي.

إلى حمص. . ففتحوا بعلبك، وكتب أبو عبيدة لأهلها كتاب أمان. . ووصلوا إلى حمص فتمَّ فتحها دون مقاومة صلحاً.

٢٣ - اليرموك في رجب سنة ١٥هـ:

نهر اليرموك هو الحدُّ السياسي الفاصل بين سورية والأردن اليوم على طول ثلاثين كيلاً. . ذُكِرَ في القرن الأول للميلاد باسم «هيرومكس». . ومنه حرّف اسمه الحالي، ويعرف أيضاً باسم «شريعة المناظرة» أو شريعة المنظور، نسبة إلى قبيلة المناظرة القاطنة في تلك الديار، وهي من عشائر الجولان.

ويُعدُّ اليرموك أكبر روافد الأردن، ينبع من مرتفعات حَوران ويلتقي مع الأردن في جنوبي بحيرة طبرية على بُعْد ستة أكيال منها بالقرب من جسر المجامع.

ومن الأودية التي تصب في اليرموك «الحرير» و«الرُّقاد» الذي يروي سهول الجولان. و«الزيدي» في حوران.

طول اليرموك ٥٧ كيلاً، منها ١٧ كيلاً في فلسطين.

ويُطلق اسم « اليرموك » على الأرض والوادي والنهر، فيقال: اليرموك، ووادي اليرموك، ونهر اليرموك. وهذه الملاحظة ـ ملاحظة التسمية ـ مفيدة في تحديد مكان معركة اليرموك، حيث أُطلق اسم اليرموك على المعركة التي جرت بين

المسلمين والبيزنطيين في المنطقة ذاتها، وهذا لا يعني أن المعركة كانت ملاصقة للنهر، فأخذت اسمه، فأضفت المعركة على اسم اليرموك شهرة لم يَحْظَ اليرموك بها من قَبْلُ، وما يزال يذكر بها إلى اليوم.

وكان أبو عبيدة عندما خرج من دمشق إلى حمص، استخلف على دمشق يزيد بن أبي سفيان، وعلى فلسطين عمرو بن العاص، وعلى الأردن شرحبيل بن حسنة.. وعندما كان أبو عبيدة في حمص قدمت إليه العيون والجواسيس، فأخبروه أن الروم قد جمعوا جموعاً لا حصر لها، وأنَّهم متَّجهون إلى جنوب الشام.. فجمع أبو عبيدة رؤوس المسلمين لمشاورتهم، واتَّخذ القرار بالانسحاب من حمص والعودة إلى المناطق المحرَّرة من بلاد الشام..

وكان أبو عبيدة قد استعمل حبيب بن مسلمة على الخراج، فبعث إليه وقال له: انظر ما كنتَ جبيته من الخراج من حمص، فاحتفظ به حتى آمرك فيه بأمري، ولا تجبينَّ أحداً ممن بقي من الناس حتى أُحدِثَ إليك في ذلك.

فلما أراد أبو عبيدة أن يمضي بجيش المسلمين دعا حبيب بن مسلمة وقال له: اردد على القوم الذين كنا صالحناهم من أهل البلد ما كنا أخذنا منهم، فإنه لا ينبغي لنا، إذْ لم نمنعهم

أن نأخذ منهم شيئاً، وقل لهم: نحن على ما كُنّا عليه فيما بيننا وبينكم من الصلح، لا نرجع فيه إلاّ أنْ ترجعوا عنه، وإنَّما ردُّنا عليكم أموالكم أنَّا كرهنا أن نأخذ أموالكم ولا نحمي بلادكم.

وأصبح الصباح، فأمر أبو عبيدة برحيل جيش المسلمين إلى دمشق، واستدعى حبيب بن مسلمة القوم الذين أخذ منهم الجزية، فردَّ عليهم مالهم وأخبرهم بما قال أبو عبيدة، فأخذ أهل حمص يقولون: ردَّكم الله إلينا، ولعن الله الذين كانوا يملكوننا من الروم.. ولو كانوا هم ما ردُّوا علينا شيئاً، بل غصبونا وأخذوا ما قدروا عليه من أموالنا.. إن ولايتكم وعدلكم أحبُّ إلينا مما كنَّا فيه من الظلم.

وعاد أبو عبيدة إلى دمشق، وجاءَت جحافل الروم فدخلت حمصَ ثم تحركتْ جنوباً خلال وادي البقاع إلى بعلبك، ولم يتجهوا إلى دمشق حيث اجتمع المسلمون وإنما اتَّجهوا إلى الحولة في اتّجاه نحو الجنوب.. فرأى المسلمون في مسار الروم حركة التفاف يستهدفون بها قطع خط الرجعة على جيش المسلمين وحصره بين جيشهم، وبين أرض ليست في يد المسلمين.. وتشاور قادة الجيوش الإسلامية، واتّفقوا على أن تجتمع الجيوش في «الجابية» ومنها اتّجهت إلى اليرموك.

وانعقد مجلس الشورى في الجابية، وتعدَّدت الآراء،

فمنهم مَن رأى الرجوع إلى حدود أيلة «العقبة» ومنهم مَنْ رأى الثبات في المكان. .

وقال خالد بن الوليد: أرى والله إن كُنَّا نقاتل بالكثرة والقوة، فهم أكثر منا وأقوى علينا، ومالنا بهم طاقة، وإن كنا إنما نقاتلهم بالله، ولله، فما أن جماعتهم ولو كانوا أهل الأرض جميعاً تغني عنهم شيئاً. . ثمَّ وجَّه كلامه لأبي عبيدة قائلاً:

فولّني ما وراء بابك وخلّني والقوم، فإني لأرجو أن ينصرني الله عليهم.

قال أبو عبيدة: قد فعلتُ. فولّى أبو عبيدة خالداً سلطانه في القيادة العامة على جيوش المسلمين بالشام.

* كان أُمراء الجيش مجتمعين في خباء يزيد بن أبي سفيان بالجابية يسمعون الخبر من عينٍ لهم يخبرهم بكثرة الروم، ونزولهم على نهر «الرقاد» ـ من روافد اليرموك ـ ومرج الجولان. فأقبل عليهم أبو سفيان بن حرب ـ وهو خبير بأرض الشام وطرقها ـ فقال: إن معسكركم هذا ليس بمعسكر، إني أخاف أن يأتيكم أهل فلسطين والأردن فيحولوا بينكم وبين مددكم من المدينة، فتكونوا بين عسكرهم. فارتحلوا حتى تجعلوا أذرعات ـ درعا ـ خلف ظهوركم، يأتكم المدد والخير.

* ولا يُعرف على وجه التحديد المكان الذي جرت فيه المعركة من أرض اليرموك، فهي واسعة نسبياً، وتمتدُّ حتى يلتقي اليرموك بنهر الأردن، ولكن مشورة أبي سفيان التي رواها ابن عساكر وابن كثير، بجعْلِ البرية وراء ظهورهم. . فنزلوا على رأيه، وجعلوا أذرعات (درعا) خلف ظهورهم. هذه المشورة تعطينا تحديداً تقريبياً للمكان، لأنَّهم قالوا إن الروم نزلت بين دير أيوب، وما يليه من نهر اليرموك. . ويذكر في تحديد أماكن الروم «الياقوصة»[1] ووادي الرقاد. . ولذلك يمكن القول إن معركة اليرموك وقعت في السهل القائم بين درعا ووادي الرقاد الذي يقع على بُعد عشرين كيلاً غرب مدينة درعا.

* ويقدّر المقلُّ من المؤرخين حشود الروم بمئة ألف، ويجعلهم المكثر أربعمئة ألف، وبين الرقمين روايات أخرى.

أما المسلمون فكانوا في قلّة من العدد بالنسبة إلى عدد الروم، فقد قيل إنهم كانوا أربعة وعشرين ألفاً، وقيل كانوا ستة وثلاثين ألفاً، وكان بينهم ألف من الصحابة، منهم مئة ممن حضر بدْر. . واشترك في المعركة كثير من القبائل العربية.

---

(١) الياقوصة: قرية في الجولان ـ محافظة القنيطرة. يبدأ عندها وادٍ يسمَّى باسمها، وتشرف جنوباً على وادي اليرموك.

* وذكرنا مِنْ قبلُ أنَّ أبا عبيدة وحّد جيوش المسلمين تحت قيادة خالد بن الوليد، فوضع خالد خطة القتال، وتنظيم جند المسلمين بإزاء الروم، وقالوا: إنَّه قسّم الجيش ميمنة وميسرة وقلباً، واتّبع أسلوباً جديداً في تعبئة الجيش، هو طريقة الكراديس أو الكتائب، وقسّمه إلى كتائب مشاة وكتائب خيالة، فحوّل الجيش إلى ستة وثلاثين كردوساً. وجعل أبا عبيدة وشرحبيل بن حسنة قائدين لكراديس القلب، وعمرو بن العاص على كراديس الميمنة، ويزيد بن أبي سفيان على كراديس الميسرة، وبقي خالد في الوسط تحت راية العُقاب، وحشد الرماة على الجانبين، واضعاً النساء خلف الجيش.. ودامت المعارك ستة أيام.. وكانت خطة العرب فصل مشاة الروم عن خيّالتهم لإبقاء المشاة تحت سيطرة المهاجمين المسلمين، وتقهقر الروم شمالاً باتّجاه المخاضة في وادي الرقاد ـ رافد نهر اليرموك ـ على المنحدر الشرقي منه. وعندما انتقل مشاة الروم المسلسلين إلى المنحدر الغربي بدؤوا يتهاوون إلى «الواقوصة» ألوفاً. والواقوصة: الهوّة في الأرض، حيث كان جيش الروم على مرتفع من الأرض تحيط بها الانحدارات.

وانتهت المعركة بهزيمة ساحقة للروم، وبنصر باهر للعرب المسلمين، وكانت أكبر كارثة حلّت بالإمبراطورية البيزنطية، انهار على إثرها الحكم البيزنطي في بلاد الشام، وغادر هرقل

أنطاكية وهو يقول: وداعاً يا سورية وداع مَنْ لا يعود إليكِ.

كما عُدَّت معركة اليرموك من أعظم فتوح المسلمين، وباباً إلى ما جاء بعدها من فتوح.. وصار المسلمون بعد ذلك يعملون في ميدانين أحدهما شمالي يضم دمشق وحمص وما والاهما، وثانيهما جنوبي يضم الأردن وفلسطين، كما يسَّر فتح اليرموك فتح العراق، ومدَّ حركة الفتح إلى مصر.

ومن المؤكد أن معركة اليرموك كانت في رجب سنة ١٥هـ الموافق آب سنة ٦٣٦م.

٢٤ ـ أخطاء تاريخية تتَّصل بقصة اليرموك:

الأول: شاع بين طلبة عِلْم التاريخ، أن عمر بن الخطاب عزل خالد بن الوليد، وولَّى أبا عُبيدة أثناء سير معركة اليرموك، وقد ظهر لنا خطأ هذه الرواية، فإن كان عزلٌ وتولية، فإنَّ ذلك كان سنة ١٣هـ في أول إمارة عمر. والحق أنه كانت تولية بدون عزْل. لأن خالداً لم يكن أميراً عامّاً للجيوش.

الثاني: ذكروا ضرار بن الأزور في معركة اليرموك، ويبدو أنَّ في القصَّة خلطاً بينه وبين ضرار بن الخطاب، فالأخير هو الذي شارك في فتح الشام، أما ابن الأزور فأخباره مضطربة ومتناقضة، فقد ذكر الواقدي أنه توفي في

حرب الردَّة؛ وذكر البغدادي[1] أن عمر بن الخطاب أمر برجمه بالحجارة في أيام حرب الردّة، فمات قبل وصول كتاب عمر. . ونقل أيضاً أنَّ أبا عبيدة جلده في الخمر. . وقال موسى بن عقبة توفي بأجنادين ـ زمن أبي بكر ـ وقيل نزل حرَّان فمات بها. . وهذا الاضطراب في أخباره هو الذي شجَّع مؤلف «فتوح الشام» أن يقحم ضرار بن الأزور وأخته في الفتوح.

الثالث: في قصة جبلة بن الأيهم: حيث نقل البلاذري في فتوح البلدان أن جبلة انحاز يوم اليرموك إلى الأنصار فقال: أنتم إخوتنا وبنو أبينا؛ وأظهر الإسلام، قلت: قصة إسلام جبلة ثم ارتداده، لا يصحُّ فيها خبرٌ. فالبلاذري يذكر أنَّ قصة الردَّة كانت في الشام، وأن الذي لطمه رجل من مزينة. وفي الخزانة عن الزبير بن بكَّار أن القصة في المدينة وهي تحريف «مزينة» ورواية أُخرى أن القصَّة في مكة. . وليس في إحداها سندٌ صحيح، أو رواية عن موثوق. فكلها من روايات أهل الأدب والقصة، وهؤلاء لا تؤخذ رواياتهم للتأريخ، وإنَّما تؤخَذ للأدب فقط. والله أعلم.

٢٥ ـ مع أبي عبيدة بَعْدَ اليرموك:

توجَّه أبو عبيدة بَعْدَ اليرموك إلى دمشق وقسَّم الشام على الأمراء، فاستخلف:

---

(١) الخزانة (٣/ ٣٢٦).

يزيد بن أبي سفيان على دمشق.

وعمرو بن العاص على فلسطين.

وشرحبيل بن حسنة على الأردن.

وأمّا خالد بن الوليد، فقد كان يطارد فلول الروم بعد اليرموك، ووصل إلى حمص فتبعه أبو عبيدة، وتوجَّه إلى حمص: وبعث خالد بن الوليد إلى قنسرين[1].

ثم رحل أبو عبيدة إلى حلب، فوجد أهلها قد تحصنوا ثم طلبوا الصلح والأمان على أنفسهم وأموالهم، وسور مدينتهم ومنازلهم فأعطوا ذلك واستثنى عليهم موضعاً للمسجد.

---

(١) كانت قنسرين على الطريق بين حلب وأنطاكية، نزلتها قبيلة تنوخ في خيام الشعر منذ نزلت الشام، ثم ابتنوا بها المنازل فصارت حاضرة من الحواضر. وفي المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري قال محرّر المادة: موقع أثري في هضبة حلب الجنوبية، منطقة جبل سمعان محافظة حلب؛ ومعنى الاسم «قنّ النسور» بالسريانية. يقع في الجهة الجنوبية الغربية من مدينة حلب على بُعْد سبعة أكيال من مركز الناحية جنوباً. . ازدهرت في العهد الروماني، وأسهمت في صدّ هجمات البدو، وأصبحت في العهد البيزنطي مركز مطرانية. . كانت خربة في زمن ابن جُبير سنة ١١٨٤م.

ثم سار إلى أنطاكية[1]، التي ظلَّت مدة الفتوح مقرَّ هرقل ومأمنه. ففتحها أبو عبيدة، أو حرَّرها من الروم عام ٦٣٨ م، وقد صالح أبو عبيدة أهلها على الجزية والجلاء، فجلا بعضهم وأقام بعضهم.. ولما فتحت أنطاكية، كتب عمر إلى أبي عبيدة أن يرتب بها جماعة من المسلمين من أهل النيّات والحسبة، وأن يجعلهم مرابطين بها، ولا يحبس عنهم العطاء.

وبلغ أبا عُبيدة أنَّ جمعاً للروم بين معرَّة مصرين وحلب، فلقيهم وفضَّ جمعهم وسبى منهم وغنم، وفتح معرَّة مَصْرِين[2]

---

(١) أنطاكية: هي اليوم في حوزة الجمهورية التركية. وقد ترجم لها المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، لأنها من لواء اسكندرون العربي الذي ضمَّته فرنسة إلى تركية. وأنطاكية في حقيقة وضعها الجغرافي تدخل في منطقة بلاد الشام العربية، لأنها تدخل في حدود جزيرة العرب، كما حدَّدها الجغرافيون العرب قديماً، باعتبار حدود الجزيرة من الشمال نهر الفرات عند خروجه من الأراضي التركية، وأنطاكية تأتي دون هذا الحدّ، فهي تبعد عن مدينة اللاذقية شمالاً ١١٠ كيل، ومثلها عن مدينة حلب. بل تمتد حدود الشام والجزيرة العربية إلى ما بعد أنطاكية شمالاً.

(٢) معرَّة مَصْرين: مَصْرين: ضبطها ياقوت: بفتح الميم وسكون الصاد وراء مكسورة، وياء ساكنة، ونون: هي اليوم بلدة في هضبة إدلب الشمالية، تبعد عن مدينة إدلب أحد عشر كيلاً باتجاه الشمال الشرقي.

على مثل صلح حلب.

وجالت فرسان أبي عبيدة فبلغت «بوقة»[(١)].

وفُتحت قرى: جُومة[(٢)]، وسَرْمين[(٣)]، ومَرْتَحْوان[(٤)]، وتيزين[(٥)].

---

(١) بوقة: لم أجدها في المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، وذكرها ياقوت الحموي من قُرى «أنطاكية» فهي إذن من لواء اسكندرون العربي الشامي السوري، وقال ياقوت: إن هشام بن عبد الملك بنى حصن بوقة من عمل أنطاكية، ونسب إليها ياقوت عدداً من علماء الحديث، وهذا يعني أنها كانت عامرة.

(٢) الجُومة: بضم الجيم، ذكرها ياقوت من نواحي حلب. وفي المعجم الجغرافي للقطر السوري: ذكر «جوم» قرية في جبل حلب منطقة عفرين. وذكر «جوم» قرية في الجزيرة العليا، منطقة عين العرب محافظة حلب. و«جوم» قرية في لواء اسكندرونة. ولم أعرف العلاقة بين «جوم» وجومة.

(٣) سَرْمين: بفتح السين: قرية في محافظة إدلب، تبعد عن إدلب تسعة أكيال إلى الجنوب الشرقي.

(٤) مَرْتحوان: قال ياقوت: من نواحي حلب، ولم يذكرها المعجم الجغرافي لسورية.

(٥) تيزين: بكسر التاء: قال ياقوت: قرية كبيرة من نواحي حلب، كانت تُعدّ من أعمال قنسرين، ثم صارت في أيام الرشيد من العواصم مع منبج وغيرها. وفي المعجم السوري ثلاثة أماكن بهذا الاسم: =

قال البلاذري في فتوح البلدان: وصالحوا أهل «دير طايا» و«دير الفسيلة»[1] على أن يضيفوا مَنْ مَرَّ بهم من المسلمين. وأتاه نصارى «خُناصرة»[2] فصالحهم، وفتح أبو عبيدة جميع

= أولها في هضبة حماة مصياف ـ وليست هي المقصودة. والثانية: قرية في جبل سمعان تتبع ناحية قرى مركز الريحانية من لواء اسكندرون. وذكر خربة أثرية في منطقة حارم محافظة إدلب، قال: مهجورة منذ القرن الثاني عشر للميلاد. لعلَّها هي المذكورة في فتوح الشام، فهي الأقرب إلى ما ذكره ياقوت، حيث يغلب على بلدان ياقوت الحموي التي تذكر في الفتوحات. والله أعلم.

(١) دير طايا، ودير الفسيلة، لم أجد ترجمة لهما في معجم البلدان، وفي معجم سورية الجغرافي.

(٢) خُناصِرة: بضم الخاء، وكسر الصاد. ذكرها المعجم الجغرافي للقطر السوري باسم «خناصر» بلدة في الأطراف الجنوبية لهضبة حلب، في محافظة حلب وهي بلدة قديمة على الطريق بين قنسرين والفرات وحلب وتدمر، ولم يذكر المسافة بينها وبين حلب. وقال محرر المادة: إنها بقيت عامرة حتى أواخر العصر الأموي. مع أن المتنبي ذكرها فقال:

أحِبُّ حمصاً إلى خناصرة ... كلُّ نفسٍ تحبُّ محياها.

ونسب إليها ياقوت المحدِّث أبو يزيد بن خالد الخناصري، عاش في القرن الثالث. ولو كانت قد دثرت في أواخر العصر الأموي، ما نسب إليها العلماء.

هذا، وقال: وفي مطلع القرن العشرين أُعيد بناؤها.

أرض قنسرين وأنطاكية.

وسار أبو عبيدة يريد «قُورس»[1] فتلقاه راهب من رهبانها يسأل الصلح عن أهلها، فبعث به المقدمة، إلى أبي عبيدة وهو بين «جبرين»[2] و«تل أعزاز»[3] فصالحه، ثم أتى قورس، فعقد

---

(١) قورس: بضم القاف والراء: قال ياقوت: مدينة أزلية قديمة وكورة من نواحي حلب، وهي الآن خراب ـ أيام ياقوت ـ، ولم يذكرها معجم سورية الجغرافي. وفي المنجد اليسوعي ذكر «قورش» بالشين، قال: قديماً موضع في سورية الشمالية قرب أعزاز ـ محافظة حلب ـ كانت فيه مستعمرة سلوقية.. فتحها العرب ٦٣٧م، ثم الصليبيون، ودخلها نور الدين زنكي ١١٥٠م. وهذا يدلُّ على أنها كانت عامرة.

(٢) جبرين: قال ياقوت: جبرين الفستق قرية على باب حلب بينهما نحو ميلين، وهي كبيرة عامرة. وذكر «جبرين قورسطايا» من قرى حلب من ناحية أعزاز، ويعرف أيضاً بجبرين الشمالي، وينسبون إليه «جبراني» على غير قياس. وفي معجم سورية الجغرافي «جبرين» مزرعة في هضبة حلب، في محافظة حلب، تبعد عن حلب مسافة ثمانية أكيال نحو الشرق. ويفهم من الكلام أنها مزرعة حديثة النشأة. لكن ينطبق عليها تحديد «جبرين الفستق» فالميلان حوالي ستة أكيال. ولكن المذكورة في الفتح يظهر أنها «جبرين قورسطايا» لأنه قال: «جبرين الشمالي» وقال ياقوت: من ناحية عزاز، وعزاز في الشمال الغربي من حلب.

(٣) تل أعزاز ذكرها ياقوت باسم «عَزَار» وفي معجم سورية «أعزاز» ولم=

لأهلها عهداً وأعطاهم مثل الذي أعطى أهل أنطاكية، وكتب للراهب كتاباً في قرية له تدعى «شرقينا»[1] وبث خيله فغلب على جميع أرض قورس إلى آخر حدّ «نقابلس»[2] وكانت قورس كالمسلحة لأنطاكية يأتيها كلَّ عام طالعة من جند أنطاكية ومقاتلتها.

وأتى أبو عبيدة «حلب الساجور»[3] وقدَّم قوة إلى

= يضبطوا همزتها، ويبدو أنها مكسورة. وهي تحريف «عزاز»: تبعد عن حلب ١٤٦ كيلاً نحو الشمال الغربي، وعن الحدود التركية خمسة أكيال. وقيل: تل أعزاز، لوجود تلّ أثري فيها.

(١) شرقينا: لم يذكرها ياقوت. وفي معجم سورية «شرقان» قرية في محافظة حلب و«شرقلي» قرية في لواء اسكندرون.

(٢) نقابلس: ذكرها البلاذري في فتوح البلدان، ولم تذكرها المصادر الجغرافية وفي القطر السوري «جرابلس»: مدينة في وادي الفرات، تتبع محافظة حلب، تقوم غرب النهر بكِيلَيْن على سفح واديه الأيمن، تبعد عن حلب ١١٨ كيلاً إلى الشمال الشرقي.. لعلَّها هي المقصودة. لأن البلاذري قال: وبلغ أبو عبيدة الفرات ثم رجع إلى فلسطين.

(٣) حلب: معروفة. والساجور: وادٍ نهري ـ يصب في نهر الفرات.. تبدأ روافده بجوار بلدة عينتاب التركية. يبلغ طوله مئة كيل، منها ٤٥ كيلاً داخل الأراضي السورية. ولكن «حلب» مضافة إلى «الساجور» لم أجدها عَلَماً على مكان. ولعلَّ المؤرخين أرادوا: الأراضي التي في نواحي حلب على جانبي وادي الساجور. وذكر ياقوت «الساجور» بأنه نهر في نواحي منبج، ومنبج من نواحي حلب.

«منبج»[1] ثم لحقها وصالح أهلها على مثل صلح أنطاكية. وبعث عياض بن غَنْم إلى ناحية «دُلُوك»[2] و«رعبان»[3] فصالح أهلها على مثل صلح منبج واشترط عليهم أن يبحثوا عن أخبار الروم، ويكاتبوا بها المسلمين. وولّى أبو عبيدة كلَّ كورة فتحها عاملاً وضمَّ إليه جماعة من المسلمين وشحن النواحي المخوفة.

ثم سار أبو عبيدة حتى نزل « عراجين »[4] وقدم مقدمته إلى « بالس »[5]، وبعث حبيب بن مسلمة في جيش إلى

---

(١) منبج: تقع إلى الغرب من الفرات بمسافة ١٥ كيلاً، وإلى الشمال من حلب بمسافة ٨١ كيلاً. كان اسمها في العهد الآشوري «مبّوغ» منها الشاعر البحتري، وسكنها أبو فراس الحمْداني. ومنها الشاعر الحديث عمر أبو ريشة.

(٢) دُلوك: بضم الدال واللام: قال ياقوت: بليدة من نواحي حلب بالعواصم. ولم يذكرها المعجم السوري.

(٣) رَعبان: ـ بفتح الراء وسكون العين ـ قال ياقوت: مدينة بالثغور بين حلب وسميساط قرب الفرات، معدودة في العواصم. وهي قلعة تحت جبل خربتها الزلزلة سنة ٣٤٠هـ فأمر سيف الدولة ببنائها. لم يذكرها المعجم الجغرافي لسورية.

(٤) عراجين: نقلها ياقوت عن كتب الفتوح، ولم يترجم لها.. ولم يذكرها المعجم السوري.

(٥) بالس: قال ياقوت: بلدة بالشام بين حلب والرَّقة، كانت على ضفّة الفرات الغربية، فلم يزل الفرات يشرّق عنها قليلاً قليلاً، حتى=

«قاصرين»[1] فجلا أكثر أهلها إلى جسر منبج وبلاد الروم والجزيرة. ورتَّب أبو عبيدة حامية في بالس، وأسكنها قوماً من عرب الشام، أسلموا بعد قُدوم المسلمين إلى الشام، كما أسكن قاصرين قوماً، وبلغ أبو عبيدة الفرات ثم رجع إلى فلسطين.

واستخلف أبو عبيدة على حمص عبادة بن الصامت قبل أن يمضي إلى بيت المقدس، فأتى عبادة اللاذقية ففتحها، وفتح بقية الساحل ـ جبلة وطرطوس.

٢٦ ـ فتح أورشليم (إيلياء ـ بيت المقدس ـ القدس):

أما «أورشليم» فهو الاسم العربي الكنعاني الأقدم.. وقد وضعه العرب الكنعانيون على مدينتهم قبل أن يوجد اليهود أو العبرانيّون، أو بنو إسرائيل، ومَنْ قال أنَّ الاسم «عبراني»، فقد أخطأ. ومجيئه فيما يسمَّى اللغة العبرية، لا يدلُّ على أنَّه

= صار بينهما في أيامنا ـ أيام ياقوت ـ أربعة أميال ـ حوالي أحد عشر كيلاً ـ، وفي معجم سورية «بالس» مزرعة في منطقة أريحا، محافظة إدلب. ولا علاقة لها ببالس التي ذكرت في الفتوح.

(١) قاصرين: قال ياقوت: بلد كان بقرب «بالس» ولم يذكره المعجم السوري.

عبراني، لأن ما يسمى اللغة العبرية نشأت متأخّرة جداً، وهي ملفقة من اللهجات العربية القديمة الكنعانية فالآرامية.

وقد ورد اسم «أورشالم» لأول مرَّة في نصوص مصرية ترجع إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد، فيما يُدعىٰ نصوص اللعنات.. وورد بعد ذلك بخمسمئة سنة في نصوص تلّ العمارنة. فثبت أن الاسم «أورشليم» قديم قِدَم وجود المدينة ـ منذ ثلاثة آلاف قبل الميلاد ـ ولا علاقة لليهود بتسميتها.

وأصل الاسم في الكنعانية «ياروشاليم» بمعنى: دع سالم يؤسس. وكان سالم إله السلام عند الكنعانيين. أو بمعنى «ملك السلام»، فإن «يروش» تساوي في عربيتنا «يرث، أو ميراث» وكانت تعني «الملك».

وأمّا «إيليا» فهو الاسم الرومي بعد سنة ١٣٥ م، مأخوذ من اسم الإمبراطور هادريان، الأوسط «إيليا». وجاء الفتح الإسلامي وهو شائع ومستعمل، فأُثبت في معاهدة الصلح مع أهل القدس.

وبيت المقدس: هو الاسم الإسلامي، وقد يطلق على البلدة، وقد يطلق على المسجد. وجاء لفظه في الأحاديث النبويَّة.

ثم شاع لفظ «القدس» بعد القرن الرابع الهجري.

وفي العصر التركي قالوا: «القدس الشريف» كما قالوا: مكة المكرّمة والمدينة المنوَّرة.

هذه البقعة ـ المسجد والمدينة والأرباض، والقرى المطيفة بها ـ أراد الله أن تكون مباركة مقدَّسة منذ خلق الله الخلق، وفرض عليهم عبادته. لم تبارك بسبب الإسراء، وإنَّما أُسْري بالنبي ﷺ إليها لأنها كانت مباركة من قبْل محمد ﷺ وقبل أبيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام. فقد ذكر الله لنا بركة هذه الأرض قبل الإسلام بثلاثةِ آلاف سنة. فقد هاجر إليها إبراهيم فقال تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧١]. فهي إذن مباركة أيضاً قبل إبراهيم، ونجاه الله إليها لأنها كانت مباركة من قبله.

وهذا يشهد للحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم، «عن أبي ذر قال: قلتُ: يا رسول الله، أي مسجد وُضِعَ في الأرض أولَ؟ قال: المسجد الحرام. قال: قلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: المسجد الأقصى. قلتُ: كم كان بينهما؟ قال: أربعون سنة».

ومعلوم أن المسجد الحرام (الكعبة) كان مبنياً قبل إبراهيم، وإنما رفع إبراهيمُ قواعده التي كانت موجودة من قَبْلُ. وعلى

ذلك فإنَّ المسجد الأقصى كان مبنياً قبل إبراهيم عليه السلام. وعندما هاجر إبراهيم إلى فلسطين وجد بقعة المسجد الأقصى مُعدَّة للعبادة قد سبقه أهل تلك الديار إلى أداء شعائرهم الدينية فيه.

هذا هو القول الفصل الذي نؤمن به، لأن القرآن الكريم والحديث الصحيح أصدق المصادر في هذا الموضوع، ولم يستطع التاريخ الذي دوَّنه البشر أن ينقض حرفاً مما جاء به القرآن والحديث الصحيح.. ومع كل حملات التنقيب الأثري التي قادها ووجهها اليهود، فإنَّهم لم يأتوا بما يخالف ماذكرناه.. فلا تلتفتنَّ إلى ما تذكره الكتب التي تعتمد على التوراة اليهودية التي تقول إنَّ داود أسس القدس، وإن سليمان بنى المسجد الأقصى.. فهذا كلُّه كذب، لأنه ثبت أن التوراة الحالية من تأليف أهواء اليهود، وأثبت التاريخ الأثري كذب كلّ ما جاءَت به من الأحداث التاريخية التي كان مسرحها فلسطين وبيت المقدس.

هذه البقعة الطيبة المباركة، سكنها العربُ اليبوسيُّون منذ فجر التاريخ، وهم أول مَنْ عمَّر بنيانها، وبقيت عربية مع تعاقب الأزمان حتى زمن داود، فداود الذي نؤمن به كان نبياً للناس كلّهم في محيطه، ودخل بيت المقدس داعياً إلى الله الواحد

الأحد ـ ولم يكن يهودياً، لأنَّ اليهودية نشأت بعده بقرون عديدة ـ دخل داود القدس وهي عامرة بسكانها اليبوسيين، وعاشَ ما عاش وهم ثابتون في وطنهم. فلم يبنِ داود المدينة ولا المسجد الأقصى. وجاء ابنه سليمانُ وكان نبيّاً، وبنى لنفسه هيكلاً، أي قصراً ملكياً بعيداً عن المسجد الأقصى.. وكلُّ خبرٍ يقول إنَّ سليمان بنى المسجد الأقصى فهو غير صحيح، لأنَّه منقوضٌ بالحديث الصحيح الذي رويناه قبل قليل.

وتعاقبت القرون، وغزا أرض الشام فئام من الأمم الغريبة، لم يستطيعوا أن يغيّروا التركيبة السكانية لبلاد الشام، فبقيت عربية، يتعاقب على سكناها أجيال من العرب بمسميات متعددة من كنعانيين وفينيقيين ويبوسيين وآراميين... إلخ.

وفي زمنٍ من ضعف الجنس العربي، احتل الرومان بلاد الشام، ومنها القدس، فحكموها بوصفهم مستعمرين غرباء، بحامياتٍ من الجند تسكن الحصون والقلاع.. إلى أن أذن الله بصحوة العرب من رقدتهم، واستلامهم قيادة أنفسهم عندما بعث الله إليهم نبياً برسالة، وجب تبليغها إلى الناس قاطبة.. وبعد انتشار الرسالة في قلب جزيرة العرب وجنوبها، اتَّجهوا لتبليغها إلى عرب الشمال، أو عرب الشام وتحريرهم من سيطرة الأجنبي الغريب، وأذن الله بفتح الشام كما عرضناه سابقاً،

وبقيت بيت المقدس من آخر المعاقل التي تحصَّن الروم وراء أسوارها، وتمَّ فتحها في خلافة عمر بن الخطاب، وفي أمارة أبي عبيدة بن الجرَّاح على الشام.

هذا، وكان أبو عبيدة قد فرغ من تطهير وتحرير شمال الشام، ثم عاد إلى فلسطين، وكان عمرو بن العاص يحاصر القدس، حيثُ صارت جيباً معزولاً محاصراً فوق الجبال.. فلما وصل أبو عبيدة طلب أهل القدس أن يصالحهم على مثل صُلْحِ أهل مدن الشام، وأن يكون المتولي لعقد الصلح عمر بن الخطَاب.

فقال المؤرخون: إنّ أبا عبيدة كتب إلى عمرَ بن الخطاب برغبة أهل بيت المقدس، فلبّىٰ عُمرُ وحضر إلى الشام.

ولكنَّ الذي أرجِّحَهُ أنَّ عمر كان بالشام، عندما طلب أهل القدس أن يكون عمر متولّي عقد الصلح معهم، ولم يحضر إلى الشام بناءً على رغبتهم.

فقد ثبت أنَّ عمر جاء إلى الشام مرَّتين[1]: الأولى لتفقد أحوال المسلمين. والثانية: وصل فيها إلى مشارف الشام، ثم عاد إلى المدينة، وذلك سنة الطاعون الذي عمَّ الشام.

---

(١) المراد بالمرتين في أيام ولاية أبي عبيدة على الشام.

وعندنا في هاتين المرَّتين خبران صحيحان:

في المرَّة الأولى: روى البخاري في صحيحه، وعبد الرزاق في مصنَّفه: «لمَّا قَدِمَ عُمرُ الشامَ صنع له رجل من النصارى طعاماً، وكان من عظمائهم، وقال: أحبُّ أن تجيئني وتكرمني، فقال له عمر: «إنَّا لا ندخل كنائسكم من أجل التماثيل التي فيها الصور، أو قال: من أجل الصور التي فيها»[1]. والظاهر أن القصة حصلت في القدس، أو في بيت لحم، لأن المصادر المسيحية تزعم أنَّ عمر زار كنيسة القيامة في القدس، وكنيسة المهد في بيت لحم.

وفي المرَّة الثانية: جاء في حديث صحيح رواه البخاري في كتاب الطب باب «ما يذكر في الطاعون». سنذكر نصَّه في الفصل الرابع إن شاء الله. والمرجَّح أن عمر ذهب إلى الشام لالتقاء الأمراء ودراسة أحوال البلاد. لما يروى أنه كتب إلى أمراء الشام أن يوافوه بالجابية، وحضر إليه ممثلون عن أهل القدس وهو بالجابية، وعقد لهم الصلح وهو بالجابية أيضاً، وبعد أن بعث عمر بأمان إلى أهل القدس، وفُتِحت أبواب السور، ودخل جيش المسلمين إليها. وقد سار إليها عمر من الجابية.

---

(١) الفتح (١/ ٥٣١).

ونقل الطبريُّ في تاريخه نسخة الكتاب الذي كتبه عمر لأهل القدس ويتضمَّن «أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم. . ولا يُكرَهون على دينهم ولا يُضارُّ أحدٌ منهم. . » والكتاب في جملته موافق لما ورد في القرآن والسُّنَّة حول أحكام أهل الكتاب وأهل الذمّة مما يُطَمْئِن إلى صحة متن الكتاب، وصحة نسبته إلى عمر بن الخطاب. كما أنَّ مفرداته، وجمله، وأسلوب كتابته يوافق أساليب كتب العهود التي وصلتنا من عصر صدر الإسلام[1].

وفي الكتاب شرط يقول: «ولا يسكنُ بإيلياء معهم أحدٌ من اليهود». ولفظ العبارة يحتمل أن يكون شرطاً لهم طلبوه فأثبت في العقد، ويحتمل أن يكون شرطاً عليهم فرضه عمر بن الخطَّاب.

ولكنَّ الأرجح أن أهل القدس طلبوا من الخليفة ألاَّ يسكن في القدس بعد فتحها أحد من اليهود، والمسلمون هم الذين يملكون السلطان والقوة التي تمنع اليهود من سكنى القدس، ولهذا فإنَّ مهمة تطبيق هذا الشرط تقع على عاتق السلطان المسلم.

---

(١) انظر نصّه في الطبري (٣/ ٦٠٩).

والعبارة كما يبدو تنصُّ على مَنْعِ اليهود من السكن في «إيلياء» وليس في الكتاب نصٌّ على إجلاء اليهود عن القدس، كما تضمَّن إجلاء العناصر الغريبة «وعليهم أن يُخرِجوا منها الروم واللصوص». وهذا يدلُّ على أن اليهود لم يكن لهم وجود في بيت المقدس أثناء كتابة عهد الصلح، وأثناء دخول المسلمين إليها، وقد أقرَّ المسلمون واقعاً اجتماعياً ودينياً، ومما يؤكّد هذا الواقع، أنَّ اليهود حثُّوا عمر بن الخطَّاب على فتح القدس، وبشَّروه بفتحها عندما وصل إلى الشام، لِما روى الطبري عن سالم بن عبد الله قال: «لما قدِم عمرُ الجابيةَ، قال له رجل من يهود: يا أمير المؤمنين، لا ترجع إلى بلادك حتى يفتح الله عليك إيلياء.

وفي رواية عن سالم: لما دخل عمر الشام تلقَّاه رجل من يهود دمشق فقال: السلام عليك يافاروق. أنت صاحب إيلياء، لا والله لا ترجع حتى يفتح الله إيلياء»[1].

ذلك أنَّ اليهود كانوا ومازالوا يكرهون النصارى، وكانوا يطمعون في دخول القدس وسكناها في ظلّ الفتح الإسلامي.. ولكن عَقْد الصلح جاء مخيّباً لآمالهم، لأنَّه نصَّ على منعهم من سكناها.

---

(١) الطبري (٣/ ٦٠٨).

وسواء أكان شرط منع السكن في القدس، شرطاً للنصارى، أم شرطاً عليهم، فهو موافق للأحكام الشرعية الخاصة بأهل الكتاب، فإذا مُنِعَ اليهود من دخول القدس، لا يكونون قد حُرِمُوا حقهم في أداء شعائرهم الدينية في كنائسهم.. فالقاعدة الشرعية في أحكام أهل الكتاب أن يبقى القديمُ ساعة الفتح على قِدَمِه، واليهود لم يكن لهم وجود في القدس، ولم يكن لهم كنيس في القدس يوم الفتح.. ولذلك لم يكونوا طرفاً في العقد، وإنَّما نصَّ على إعطاء الأمان للنصارى فقط، لأنَّه ذكر الكنائس والصلبان، والصليب شعار النصارى فقط.

وهذا الواقع الاجتماعي المقدسي الذي يخلو من اليهود قديم جدَّاً، بدأ قبل الفتح الإسلامي بأكثر من ستمئة سنة.

ففي سنة ٧٠م جاء القائد الروماني تيتوس، وخرَّب القدس وأجلى جميع اليهود عنها. وجاء بعد ذلك الإمبراطور هدريان سنة ١٣٦م وهدم كلَّ ما تبقَّى في المدينة، ولم يترك فيها يهودياً، ومحا اسم «أورشليم» وسمَّاها إيلياء، وهو جزء من اسمه، ومنع اليهود من دخولها، وجعل الموت عقوبة مَنْ يقدم منهم على ذلك.

وفي سنة ٣١١ م اعتنق قسطنطين المسيحيّة، فازداد الاضطهاد المسيحي لليهود، وأعاد قسطنطين أحكامَ هادريان الخاصَّة بمنع

اليهود من الإقامة في القدس، واستمرَّ أخوه قسطنطيوس من بعده في تنفيذ سياسته تجاه اليهود الذين عدَّهم قتلة عيسى عليه السلام. وفي سنة ٦١١ م غزا الفرس فلسطين واحتلُّوها، فانضمَّ اليهود إلى الفرس فرحين، وانتقموا هم والفرس انتقاماً دموياً من المسيحيين. حيثُ حطَّم الفرس كنيسة القيامة، واشترك اليهود مع الفرس في قَتْل جميع مسيحيي القدس وتدمير أماكنهم الدينية. وكان اليهود يشترون من الفرس الأسرى النصارى ليذبحوهم، فزاد العداءُ بينهم وبين النصارى.

وقد طمع اليهودُ في ظل الفرس أن يُسمَح لهم بإقامة كيان لهم، ولكنَّ آمالهم لم تتحقَّق، ولهذا مال اليهود إلى البيزنطيين حين قدَّم هرقل وعداً إليهم بالتسامح سنة ٦٢٧ م، ثم قدَّم وعداً آخر بالعفو سنة ٦٢٨ م.. ولكن هرقل لم يفِ بوعده بعد انتصاره على الفرس، لأنَّه وقع تحت ضغط رجال الدين الذين قالوا له: إنهم سيتحمَّلون المسؤولية، وإن الاتفاقيات مع الكفَّار ليست واجبة التنفيذ، وعند ذلك وقعت مذبحة لليهود لم ينجُ منها إلا الذين فرُّوا إلى مصر، أو الذين اختفوا عن أعين الروم.

فجاء الفتح الإسلامي، والقدسُ خاليةٌ تماماً من اليهود، ومن معابد اليهود. ولو كانوا من أهل القدس يوم الفتح لدخلوا فيما دخل فيه النصارى، ولكان نصَّ عليهم العهد بوصفهم من أهل إيلياء، ولكن العهد العمري لم يذكر إلاَّ النصارى من أهل

القدس، لأنه لا يوجد غيرهم. ولو كان اليهود موجودين لأُعطوا العهد كما أُعطي للنصارى. ربَّما وُجد في فلسطين أو الشام يهود وقت الفتح الإسلامي، ولكنهم لم يكونوا في القدس على وجه اليقين. وقد أُعطوا عهد الذمَّة في الأماكن التي وُجِدُوا فيها، ولكل أهل مدينة من مدن الشام عهد خاصٌ بهم يتناسب مع حالة الفتح، إن كانت صلحاً أو حرباً.

وشرط «أن لا يسكن في القدس أحد من اليهود» شرط شرعي. وقد أثبتَه الطبري في كتاب العهد، ولم يُنْقَل عن أحدٍ من المسلمين الفقهاء اعتراضٌ عليه، ولا يخالف آيةً في كتاب الله، أو سنَّةً نبويَّة.. ولكن بعض الباحثين المعاصرين، زعموا أن عمر بن الخطاب قبل شروط أهل إيلياء، إلا شرط «ألاَّ يسكن معهم بإيلياء أحد من اليهود»، وزعم أن عمر اعتذر لهم بأنَّ القرآن قد حدَّد ما لأهل الكتاب وما عليهم، وليس فيه ـ أي في القرآن ـ شيءٌ يسمح بهذا الشرط، وزعم أيضاً أنه تعهَّد لمسيحيي القدس بألاَّ يدخل أحد من اليهود إلى مقدَّساتهم أو يسكن في حاراتهم[1].

---

(١) جاء هذا الزعم في مقالة للدكتور حسن ظاظا، نشرتها مجلة الفيصل السعودية مع العدد ٢٣٢ سنة ١٩٩٦م. وسرعان ما انتقل هذا الرأي إلى بعض أساتذة الجامعات العربية فأخذوا يرددونه في =

قلتُ: وهذا كلامٌ باطل من وجوه:

١ ـ لم يذكر الباحثُ مصدره الذي نقل عنه. وكل كلام تاريخي لا يعتمد على سندٍ أو مصدر موثوق، فلا يؤخذ به. ولعلَّه أخذه من مصادر يهوديّة. فهذا الباحث تخرَّج في الجامعة العبريَّة، ومتخصص في تاريخ اليهود ويقرأ أسفارهم وكتبهم، وينقل كثيراً من أخبار بلاد العرب عنهم، كقصة الكنيس اليهودي التي حدثت في عهد السلطان المملوكي قايتباي، ونقلها عن «أحد مشاهير أحبار اليهود الذين عاصروا تلك الأحداث»[1]. وليس لهذه القصة مصدر آخر غير ما ذكره.. وإذا نقلَ عن المصادر العربية، فإنَّه يختار من الكتب ما ليس موثوقاً في رواياته، وينقل عنه ماله صلة باليهود مما يخدم هدفه.

٢ ـ قوله: ليس في القرآن شيء يسمح بهذا: هذا كلام مَنْ يجهل أحكام الشريعة الإسلامية، ويجهل مصادرها ومنابعها.

وإذا لم يكن في القرآن شيءٌ يسمح بهذا، فإنَّه ليس في القرآن ما يمنع هذا الشرط أيضاً. وليس في القرآن من أحكام أهل الكتاب، إلا السماح لهم بالبقاء على دينهم، ودفْع الجزية.

= الندوات التي تذيعها المحطات التلفازية الفضائية.

(١) انظر ص٣٦ من الرسالة.

أما العقود والعهود التي يكتبها الخلفاء والأمراء والقادة، فإنهم يجتهدون فيها، ويثبتون ما فيه صالح الأمة. وقد جاء أن عمر كتب إلى قادة الفتوح «إذا حاصرتم قصراً فلا تقولوا: انزل على حكم الله، فإنكم لا تدرون ما حكم الله، ولكن أنزلوهم على حكمهم، ثم اقضوا فيهم»[1]. ويُروىٰ هذا الأثر أيضاً مرفوعاً إلى النبي ﷺ.

قلتُ: القولُ بأنه ليس في القرآن شيءٌ يسمح بهذا «هو من كلام اليهود الذي يزخرفونه ويذيعونه بين المسلمين من العجم الذين يجهلون الإسلام، حيث يقولون لهم: إنَّ العرب المسلمين خالفوا القرآن بمحاربتهم اليهود، لزعمهم أنَّ القرآن ذكر وَعْد الله لنبي إسرائيل امتلاك الأرض المقدَّسة.

٣ ـ والدليل على صحَّة هذا الشرط، والتزام الخلفاء بتنفيذه، أنَّه لم يكن لليهود وجود أيام الخلفاء الراشدين، وخلفاء بني أُمية، وخلفاء بني العباس. وربَّما بدؤوا يتسلَّلون إلى القدس في عهود ضعف الخلافة وانفراد بعض الحكَّام بالحكم في بعض الأقاليم.

أما ما ذكره الحنبلي أنَّه كان للمسجد الأقصى من الخدم

---

(١) انظر فتح الباري (٦/ ٢٧٤).

اليهود عشرة رجال، وأنَّ اليهود كانت تسرج بيت المقدس في زمن سليمان. .»[1]. فهذا كلامٌ مرتجل ليس له سند صحيح، والمؤلف متوفى سنة ٩٢٨ هـ، فهو من المتأخّرين جدّاً عن العصر الذي يؤرّخ له.

وإذا صحَّ وجود هؤلاء العمال، فإنَّه لا يدلُّ على إباحة سكنى اليهود في القدس. . فربَّما استقدم بعضهم لخدمة فنيّة طارئة ثم يخرجون بعد انتهاء العمل. كما أنَّه يباح دخول أهل الكتاب إلى مكة والمدينة دخولاً مؤقَّتاً بأمر من السلطان، لحاجة المكان إليهم.

ولذلك روى مجير الدين أيضاً أن عمر بن عبد العزيز أخرج العمَّال اليهود عندما تولّى.

٤ ـ أما قول الباحث بأنَّه ضَمِنَ للمسيحيين بألاَّ يدخل أحدٌ من اليهود إلى مقدَّساتهم أو يسكن في حاراتهم: فهذا تعهد لا معنى له، لأنَّ اليهود إن وُجِدوا، فإنَّهم لن يدخلوا إلى كنائس النصارى، كما أنَّ النصارى لن يدخلوا إلى معابد اليهود.

ولفظ الشرط يدلُّ على عموم المنْع في إيلياء كلّها، وليس في حارات النصارى فقط. وليس هذا مكان التوسُّع في بحث

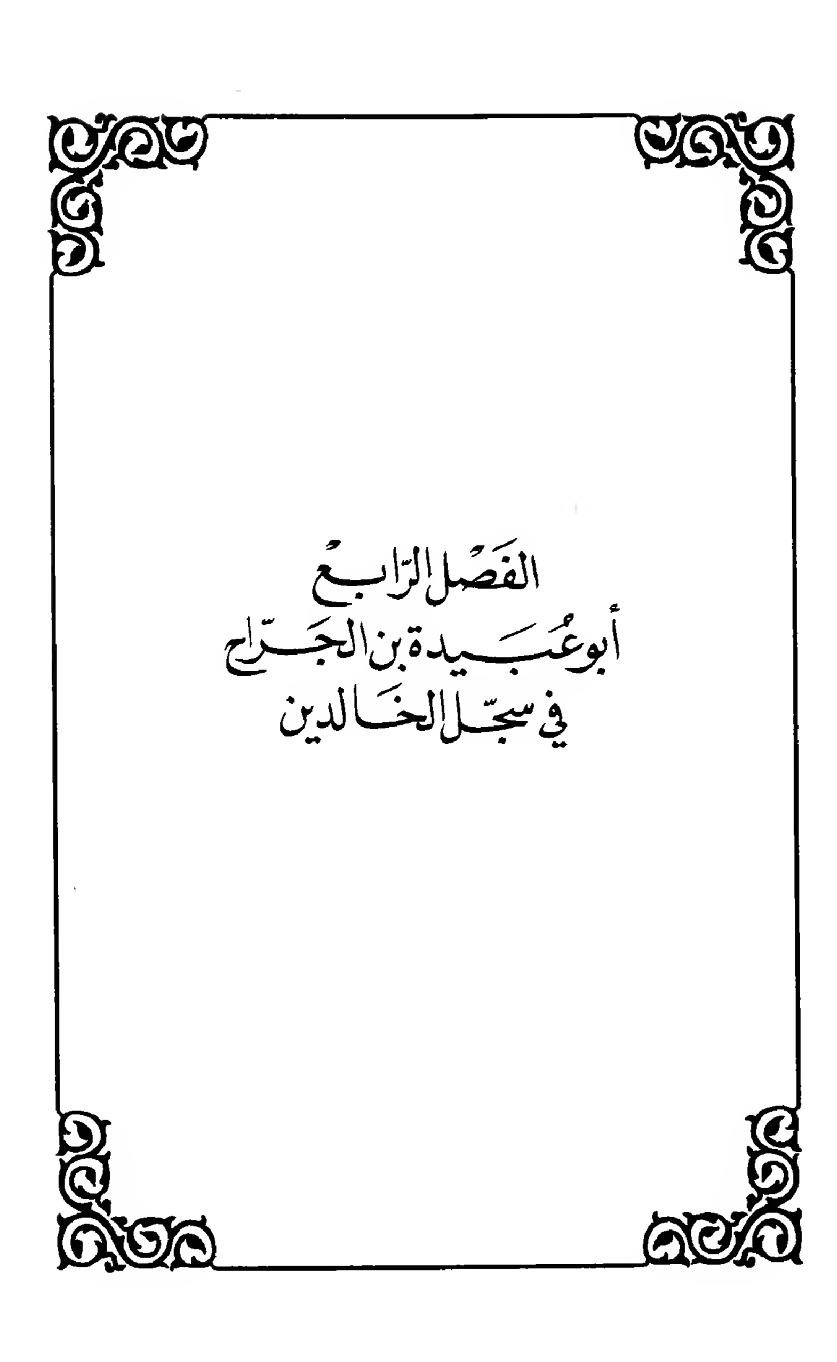
---

(١) الأنس الجليل (١/ ٢٨١ ـ ٢٨٢).

الموضوع، فانظر أيُّها القارىء كتابنا «بيت المقدس والمسجد الأقصى» فقد ثبت أنَّ أمراء المسلمين بقوا محافظين على العهد العمري، بمنع اليهود من سكنى القدس بعامة حتى أواخر العصر المملوكي.

* * *





الفصل الرابع

أبو عُبَيدة بن الجرّاح في سجّل الخالدين



أبو عُبَيدة بن الجرّاح في سجلّ الخالدين

١ ـ طاعون عمواس، أم «عماتوس» عَمْتا:

الطاعون: بوزن فاعول من الطعْن، عدلوا به عن أصله، ووضعوه دالاً على الموت العام كالوباء. ويُقال: طُعِنَ فهو مطعون وطعين، إذا أصابه الطاعون، وإذا أصابه الطعن بالرمح فهو مطعون.

وقد ذكر القدماءُ في حقيقته المرَضيَّة تعريفات كثيرة، أدلى بدلوه فيها الأطباءُ وغير الأطباء. وننقل منها ما ذكره أبو علي ابن سينا في تعريف الطاعون؛ حيث قال: الطاعون مادّة سميَّة تُحْدِثُ ورماً قتَّالاً يحدث في المواضع الرخوة والمغابن من البدن، وأغلب ما تكون تحت الإبط أو خلف الأذن أو عند الأرنبة. وسببه دمٌ رديء مائل إلى العفونة والفساد، يستحيل إلى جوهر سمّيٍّ يُفسد العضو ويغيّر ما يليه، ويؤدي إلى القلب كيفية رديئة، فيحدث القيء والغثيان والغشي والخفقان، وهو لرداءته لا يقبل من الأعضاء إلا ما كان أضعف بالطبع، وأردؤه

ما يقع في الأعضاء الرئيسة، والأسود منه قلَّ مَنْ يسلم منه، وأسلمه الأحمر ثم الأصفر. والطواعين تكثر عند الوباء في البلاد الوبئة، ومن ثمَّ أُطلق على الطاعون وباءٌ وبالعكس. وأما الوباء: فهو فساد جوهر الهواء الذي هو مادة الروح ومدده.

قال ابن حجر[١]، بعد أن ذكر الأقوال في الطاعون: فهذا ما بلغنا من كلام أهل اللغة وأهل الفقه والأطباء في تعريفه، والحاصل أنَّ حقيقته ورمٌ ينشأ عن هيجان الدم أو انصباب الدم إلى عضو فيفسده، وأن غير ذلك من الأمراض العامة الناشئة عن فساد الهواء يسمَّى طاعوناً بطريق المجاز، لاشتراكهما في عموم المرض به، أو كثرة الموت. والغرض من هذا التفريق بين الوباء والطاعون، التدليل على صحة الحديث النبوي الذي يُخبِر أنَّ الطاعون لا يدخل المدينة النبويَّة. أما الوباء فقد يدخلها. وقد دخلها في القرون التي خلت.

وقال أهل العصر الحديث في تشخيص الطاعون: «الطاعون مرضٌ مُعدٍ يتسبَّب عن بكتريا قصيرة بيضوية عَصَويَّة تنتقل إلى الإنسان والقوارض بواسطة البراغيث، وحصل الطاعون على موجات عاتية خلال التاريخ وسمّي الموت الأسود، لأنَّه يُحيل

---

(١) الفتح (١٠/ ١٨٠).

الحياة أثراً بعد عين فلا يُبقي ولا يذر.. وتحصل الإصابة بواسطة البرغوث حيث يتغذى من فأر مصاب فيمتص دمه المصاب بالبكتريا، وتتكاثر البكتريا في معدة البرغوث، وعندما يلدغ البرغوث الإنسان، فإنَّ المعدة المثقلة بالبكتريا تقذف بعض محتوياتها إلى مكان اللدغة، وينتشر في دم الإنسان. والطاعون على أنواع أهمها:

١ ـ الطاعون الدمَّلي، ويتميَّز بالحرارة وتضخُّم الغدّة الليمفية خاصة في الرقبة وتحت الإبط، ويتضخَّم الطحال كذلك؛ ونسبة الوفاة فيه ٤٠٪.

٢ ـ الطاعون الرئوي القاتل: وهنا طريقة الإصابة مباشرة عن طريق رذاذ آخر، ونسبة الوفاة ١٠٠٪.

٣ ـ الطاعون الدموي: حرارة وطفح على الجلد وأعصاب ثائرة، ومرض منتشر بكل أنحاء الجسم، ونسبة الوفاة ٧٠٪.

وأوَّل طرق الوقاية «الحجر الصحي» فلا يدخل أحد مدينة مصابة أو يخرج منها إلا بشهادة التطعيم، والحجر الصحي ومكافحة الفئران والبراغيث، وعزل المصاب ومتابعة علاجه.

والحجر الصحي: هو تفسير الحديث الصحيح: «إذا سمعتم بالطاعون في أرضٍ فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرضٍ وأنتم

بها فلا تخرجوا منها..»[1].

والطاعون الذي مات فيه أبو عبيدة يُضاف إلى «عمواس» فيقال: طاعون عمواس. أو يقولون: مات عام عمواس.. فأين تقع عمواس التي أُضيف هذا الطاعون إليها؟

إنَّ كلَّ مَنْ ذكر تعريفاً لعمواس التي أُضيف إليها الطاعون، قال إنها في فلسطين وإنَّ الطاعون بدأ فيها ثم انتشر في الشام:

و«عمواس»: في ضبطها روايات:

الأولى: كسر الأول وسكون الثاني.

والثانية: فتح الأول والثاني.

والثالثة: فتح الأول وسكون الثاني.

تقع جنوب شرق الرملة، وهي على طريق رام الله ـ الرملة ـ يافا وطريق رام الله ـ غزَّة. تبعد عن يافا مسافة ٢٨ كيلاً تقريباً وأكثر من ذلك عن القدس. أنشئت في السفح الشمالي الغربي لتلّ يرتفع ٣٧٥ م عن سطح البحر، وتقابلها قرية «يالو» المجاورة على السفح الآخر للتلّ، وأُقيمت عمواس على ارتفاع يتفاوت بين ٢٢٥ و٢٥٠ م عن سطح البحر، وتشرف رقعتها

---

(١) انظر صحيح البخاري، كتاب الطب، باب ما يُذكر في الطاعون.

على السهل الساحلي الفلسطيني الأوسط غرباً.. وكانت عمواس في العهد الروماني مركزاً لمقاطعة، فتحها عمرو بن العاص بعد استيلائه على «اللد» و«يُبْنى» في خلافة أبي بكر.. وبعد سنة ١٩٤٨ م سلمت القرية من احتلال اليهود، وأُلحقت بلواء «رام الله» في الضفة الغربية. وفي سنة ١٩٦٧ م قامت القوّات اليهودية بطرد السكان وتدمير بيوت القرية، ومحيت القرية من الوجود.

قرية عمواس التي نسبوا إليها الطاعون، زَعَمَ بعضهم أنَّها أصبحت بعد فتحها على يد عمرو بن العاص، مركزاً لجند المسلمين في الشام.

٢ ـ رأي بشأن مكان الطاعون:

ربما فهِمَ من الكلام السابق أنَّ الطاعون أصاب أول مَنْ أصاب، الجند العربي المسلم، وأنَّ الطاعون بدأ من معسكر الجيش المسلم في عمواس.

ولكنني سوف أنفرد برأي في قصة طاعون عمواس، لم أجدْ مَنْ سبقني إليه. وهو أن طاعون عمواس لم يضف إلى عمواس الموجودة في فلسطين، وإنَّما أضيف إلى «عماتوس» Amathos ـ المدينة اليونانية التي تعود بتاريخها إلى القرن الثاني

قبل الميلاد، والتي ذكرت في كتب الجغرافيين العرب باسم «عمتا»، وتقوم على وادي «راجب» الذي يصبّ في نهر الأردن من الضفة الشرقية، في غور البلاونة على نحو ٢٢٥ م تحت سطح البحر، في محافظة إربد.

ويبدو أنها حُرّفت إلى «عمتا» بعد انتقال الخبر عن «طاعون عماتوس» إلى الناس شفهياً. وعندما بدأ التدوين وكُتب التاريخ، كانت «عمتا» هي المشهورة، فاتَّجهت أنظار المؤرّخين والجغرافيين العرب إلى ما يشبه لفظ «عماتوس» أو «عَمَتوس» فلم يجدوا إلاَّ اسم «عمواس» في غربي نهر الأردن، فأضافوا الطاعون إليها. وعندي شواهد وقرائن تدلُّ على أنَّ صاحبة الطاعون هي «عماتوس» أو «عمتا» في غور البلاونة من شرقي نهر الأردن:

١ ـ الشبه اللفظي بين «عَمواس» و«عماتوس» فلا فرق بينهما إلا حرف التاء، وقد ضبط بعضهم «عمواس» الفلسطينية بفتح العين والميم، وكأنَّ لفظ «عماتوس» بفتح الحرفين الأولين يرنّ في أُذنه.. والمعروف أنَّ التحريف والتصحيف اعتور كثيراً من مفردات التراث، نتيجة لانعدام النقط والضبط، حتى لجأ المتأخّرون إلى الضبط اللفظي خوفاً من التحريف.

٢ ـ قالوا: إنَّ الطاعون تسببه البراغيث، وهذه تكثر في

المواطن الحارة المنخفضة. وَعَمْتا، أو عماتوس في الغور، تنخفض عن سطح البحر ٢٢٥ م.. وقد وصف ياقوت الحموي[1] بيئة طبرية التي تشبه المحيط الذي نتحدَّث عنه فقال: طبريَّة قصبة الأردن بلد وادي كنعان موضوعة بين جبل وبحيرة، فهي ضيقة كربة في الصيف وخمة وبئة، ويقال: أهل طبرية يرقصون من كثرة البراغيث شهرين، وشهرين يلوكون[2] (كذا) ولعلَّها يدلكون ـ بالدال يعني: البقّ فإنَّه كثير عندهم، وشهرين يثاقفون، يعني بأيديهم العصيّ يطردون الزنابير عن طعومهم وحلاوتهم، وشهرين عُراة، يعني من شدّة الحرّ، وشهرين يزمرون، يعني يمصُّون قصب السكر، وشهرين يخوضون من كثرة الوحل في أرضهم».

٣ ـ ومما يدلُّ على أنَّ أبا عبيدة ومَنْ معه كانوا ينزلون في نواحي عمتا أو عماتوس من الغور الأردني الشرقي، ما رواه الطبري في أحداث سنة ١٧ هـ، وابن عساكر في ترجمة أبي عبيدة، أنَّ عمر بن الخطاب كتب إلى أبي عبيدة «عام الطاعون»

---

(١) وجاء هذا الوصف أيضاً عند المقدسي المتوفىٰ سنة ٣٩٠ هـ في كتاب «أحسن التقاسيم».

(٢) في «أحسن التقاسيم» يلوكون النبق، وهو ثمر السدر، يشبه الزعبوب.

أما بَعْدُ، فإنَّكَ قد أنزلت الناسَ أرضاً غمقة ـ من الغمق وهو فساد الريح وخمومها ـ فارفعهم إلى أرضٍ مرتفعة نزهة، قال الراوي ـ وهو أبو موسى الأشعري ـ فلما أتاه كتابه دعاني فقال: يا أبا موسى، إنَّ كتاب أمير المؤمنين قد جاءَ بما ترى، فاخرج فارْتَدْ للناس منزلاً، حتى أتبعك بهم، فرجعتُ إلى منزلي لأرتحل فوجدتُ صاحبتي (زوجي) قد أُصيبَتْ فرجعتُ إليه، فقلتُ له: والله لقد كان في أهلي حَدَثٌ، فقال: لعلَّ صاحبتك أصيبتْ، قلتُ: نعم، قال: فأمر ببعيره فرُحِلَ له، فلما وضع رجله في غرزه طُعِنَ، فقال: والله لقد أُصبتُ، ثم سار بالناس حتى نزل الجابية، ورفع عن الناس الوباء».

وفي رواية ابن عساكر «أن عمر اختار الجابية فقال في كتابه «إن الأردن أرض غمقة، وإنَّ الجابية أرض نزهة، فاظهر بالمسلمين إلى الجابية..»، وفيه «فركب هو ـ أبو عبيدة ـ يبوّىء الناس منازلهم.. فطُعِنَ بعد أن بوَّأ الناس منازلهم وارتحلوا على أثره، وكان بموته انكشاف الطاعون».

٤ ـ إنَّ معاذ بن جبل وشرحبيل بن حسنة وأبو عبيدة، ماتوا جميعاً بالطاعون، وقبورهم في أماكن متقاربة من الغور الأردني الشرقي، ووجود قبورهم في تلك النواحي متواتر، وتواردت على ذكر أماكن قبورهم في الغور المصادر التاريخية والجغرافية،

والرَّحَّالة العرب.. وقد ذكر في مكان قبر أبي عبيدة ثلاث روايات لا تخرج عن ذلك الحيّز: فالأكثرية أنه في «عمتا» وقيل في «بيسان»، وقيل في «طبرية»، والأماكن الثلاثة متقاربة لا تخرج عن الغور.

٥ ـ نقل ابن عساكر في ترجمة أبي عبيدة أنَّ ابن سعد قال: «إنَّ أبا عبيدة قُبِرَ بعمواس». وهذا القول تفرَّد به ابن سعد. ولعلَّ اسم «عماتوس» وصل إليه قبل تحريفه إلى «عمتا» فأثبته، ثم حرَّفه النسّاخ فيما بعد إلى «عمواس» ومما يدلُّ على أن «عمواس» عند ابن سعد هي «عماتوس»، أنَّه ذكرها من ناحية الأردن، فقال في ترجمة معاذ بن جبل: «وتوفيَ في طاعون عمواس بالشام بناحية الأردن» فقوله «بناحية الأردن» وصف لعمواس، والجار والمجرور متعلّقان بمحذوف تقديره «عمواس الموجودة في الأردن». وهذا يدلُّ على أنه يريد «عماتوس» أو عمتا.

لأنَّ «عمواس» تذكر من فلسطين، فقال ياقوت: «عمواس: كورة من فلسطين بالقرب من بيت المقدس».

٦ ـ نقل ابن عساكر في رواية: أنَّ أبا عبيدة انطلق من الجابية يريد الصلاة في بيت المقدس واستخلف على الناس معاذاً فأدركه أَجَله بفَحْل فتوفي بها. وفحل في منطقة الغور أمام بيسان من الجهة الشرقية. وقد يفهم من هذه الرواية أن أبا عبيدة

كان مارّاً بمنطقة الوباء فأصيب به. . ولكن الروايات السابقة تدلُّ على أنَّه كان مقيماً بأهله ساعة المرض. . ورُوي أيضاً «أنَّه لما طُعِنَ بالأردن دعا مَنْ حضره من المسلمين وقال إنّي موصيكم. . يا معاذ بن جبل، صلِّ بالناس. ثم إنَّ أبا عبيدة مات بعد ذلك، فقام معاذ في الناس فقال: . . أيها المسلمون قد فجعتم برجل. . فترحموا عليه، واحضروا الصلاة عليه. .». وسياق هذا الكلام يدلُّ على أن جماعة المسلمين كانت حيث مات أبو عبيدة ودُفِنَ، ولم يكونوا بالجابية.

٣ ـ لماذا اختاروا الغور سكناً ودار إقامة؟

في ربيع الآخر سنة ١٦ هـ تم فتح بيت المقدس، ولم يبقَ إلا قيسارية على ساحل البحر، وقد تأخَّر فتحها لأنَّ المدد كان يأتيها من البحر، ولم يكن للعرب يومها أسطول بحريّ. . وكان يتولّى أمر حصارها عمرو بن العاص مع جُنْدِه. أما بقية القادة فإنهم كانوا ينتظرون أمر الخليفة عمر في الخطوة التالية. . وكان من سياسة عمر بن الخطاب الحربية ألاَّ يسكن الجندُ في المدن المفتوحة، لئلاَّ تفتر همتهم عن الجهاد والحرب، ولهذا كان بناء البصرة والكوفة في العراق ليكونا معسكرين للجنود.

وبَعْدَ فتح القدس، وفي مدّة انتظار الخطوة التالية، جاء فصل الشتاء، حيث كان فتح القدس في أيار سنة ٦٣٧ م، ولم

يكن للعرب القادمين من الحجاز أن يحتملوا فصل الشتاء البارد، وهم في غير حالة جهاد تضطرهم إلى الصبر على شدَّة البرد.. عندئذٍ اختاروا قضاء فصل الشتاء في منطقة دافئة شتاءً، فكان الغور هو المكان المناسب فانتقلوا إليه، وقضى الله أن ينتشر وباء الطاعون في هذه المدَّة.

ومما يؤيّد هذا التفسير، أنَّ روايات ذكرت أنَّ الطاعون كان سنة ١٧ هـ في أوائل شهورها، ودام هذا الوباءُ شهوراً. وفي هذه السنة ـ سنة ١٧ هـ ـ كان مجيء عمر بن الخطاب إلى الشام، وعودته قبل دخوله، لأنَّه أُخبر به فعاد إلى المدينة، فكان في السنة التالية عام الرمادة، حيث شُغِلَ عمر بإطعام الناس الذين وفدوا إلى المدينة من البوادي.

وللأصمعي الراوية اللغوي المشهور رأي طريف في اسم طاعون عمواس، هو من قولهم زمن الطاعون «عمَّ وآسى» وهذا يعني أنَّ منشأه كان عامَّاً وواسعاً لعموم انتشار البراغيث في ذلك العام.. والله أعلم.

٤ ـ قبل الشهادة:

روى البخاري عن ابن عباس قال: إن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام، حتى إذا كان بسرْغ[١]، لقيه أُمراءُ الأجناد ـ أبو عبيدة بن

---

(١) سرْغ: قال ياقوت: أول الحجاز وآخر الشام، وفيها لقي عمر بن الخطاب=

= أبا عبيدة وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام فرجع إلى المدينة.
وقد اتّفق المحقّقون الأثريون في العصر الحديث أن «سَرْغ»، هي «المدوّرة» التي تقع على الحدود بين الأردن والسعودية، وكان فيها نقطة الجمرك والجوازات قبل أن تنتقل إلى مركزها الجديد، الذي يبعد حوالي كيلين عن الجمرك السعودي.
قال الدباغ: ولما وصلت سكة الحديد إلى سَرْغ، أطلق عليها العثمانيون اسم «المدوَّرة».
وتبعد عن تبوك ١٢٩كيلاً، وعن معان ١١٤كيلاً، وعن العقبة ١٣٠كيلاً.
وتبعد عن عمَّان حوالي خمسمئة كيل، وأكثر من ذلك عن الحدود السورية.
قلتُ: وفي تفسير «سرْغ» بأنها المدوَّرة على الحدود بين الأردن والسعودية، إشكال. فالحديث يقول: إن أبا عبيدة وأصحابه لقوا عمر بسرْغ. وقوَّاد الأجناد كان يتراوح وجودهم بين حوران السورية، والغور الأردني في محافظة إربد وفي فلسطين على الساحل. والمسافة بين مناطق وجودهم و«سرْغ» أو المدوَّرة، بعيدة جداً. وما الذي جعلهم يذهبون إلى ذلك المكان؟ هل كانوا في استقبال الخليفة؟ ولكن عمر لا يقبل أن يتكبدوا مشقة المسافات الطويلة لاستقباله. هل علموا بمقدمه، فأسرعوا لإخباره بالوباء، والإشارة عليه بالرجوع؟ لكن سياق الحديث لا يدلُّ على ذلك.
إنني أشكُّ في كون «سرْغ» هي المدوَّرة.. ومما يزيد في الشكّ، أنَّ ابن حجر نقل في الفتح [١٠/ ١٨٤] قولاً لبعضهم «سرْغ: مدينة افتتحها أبو عبيدة، وهي واليرموك والجابية متصلات: فأين الجابية واليرموك (في حوران السورية) من المدوّرة؟ إنه لغز جغرافي تاريخي لم أستطع حلَّه.

الجرَّاح وأصحابه ـ فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشام. قال ابن عباس: فقال عمر: ادعُ لي المهاجرين الأولين. فدعاهم فاستشارهم، وأخبرهم أنَّ الوباء قد وقع في الشام، فاختلفوا فقال بعضهم: قد خرجنا لأمر، ولا نرى أن ترجع عنه.

وقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ، ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء، فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادعوا لي الأنصار، فدعوتهم؛ فاستشارهم، فسلكوا سبيل المهاجرين، واختلفوا كاختلافهم. فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادعُ لي مَنْ كانَ ها هنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فدعوتهم، فلم يختلف منهم عليه رجلان، فقالوا: نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء، فنادى عمر في الناس: إني مصبّحٌ على ظهْر، فأصبحوا عليه.

فقال أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قدرِ الله؟

فقال عمر: لو غيرُكَ قالها يا أبا عبيدة.. نعم، نفرُّ من قدر الله إلى قدر الله. أرأيتَ إن كان لك إبلٌ هبطت وادياً له عدوتان: إحداهما خصيبة، والأخرى جَدْبة؛ أليس إن رعيت الخصيبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله.

قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف، وكان متغيّباً في بعض حاجته، فقال: إن عندي في هذا علماً، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«إذا سمعتم به بأرضٍ فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها، فلا تخرجوا فِراراً منه». قال: فحمد الله عمر، ثم انصرف»[1].

وقد اختلف الصحابة في مفهوم النهي عن الخروج والدخول، فمنهم مَنْ عمل به على ظاهره، ومنهم مَنْ تأوّله. والذين تأوّلوا النهي أباحوا خروج مَنْ وقع في أرضه الطاعون. ونُقِل عن عمر بن الخطاب بإسناد حسن إلى أبي موسى الأشعري قال: إني كنتُ مع أبي عبيدة بالشام عام طاعون عمواس، فلما اشتعل الوجع، وبلغ ذلك عمر، كتب إلى أبي عبيدة ليستخرجه منه: أنْ سلامٌ عليك، أما بعدُ: فإنه قد عرضت لي حاجة أُريد أن أشافهك فيها، فعزمت عليك إذا نظرت في كتابي، ألاَّ تضعه من يدك حتى تُقبِل إليَّ. قال: فعرف أبو عبيدة إنما أراد أن يستخرجه من الوباء، فقال: يغفرُ الله لأمير المؤمنين، ثم كتب إليه:

يا أمير المؤمنين، إنّي قد عرفتُ حاجتك إليَّ، وإنّي في جُنْد من المسلمين، لا أجدُ بنفسي رغبة عنهم، فلستُ أريد فراقهم حتى يقضي الله فيَّ وفيهم أمْرَه وقضاءه، فحلّلني من عزمتك ياأمير المؤمنين ودعني في جندي.

فلما قرأ عمرُ الكتاب بكى.

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون.

فقال الناس: ياأمير المؤمنين! أمات أبو عبيدة، قال: لا وكأن قدْ»[1].

وروينا من قَبْلُ أن عمر كتب إليه فيما بعدُ أن يرتحل بالمسلمين من الأرض الغمقة التي تكثر فيها المياه والمستنقعات، إلى أرضٍ نَزِهَةٍ عالية، ففعل أبو عبيدة. وكانت كتابة عمر إلى أبي عبيدة، بعد أن التقيا في سَرْغ، وسمعا حديث عبد الرحمن بن عوف بالنهي عن الخروج والقدوم إلى أرض الوباء. ورجع عُمر إلى المدينة، ويظهر أنَّ الوباء كان في بدايته ولم يكن قد استشرى واشتعل لهيبُه، فلما رجع عمر إلى المدينة وصلته أخبار بكثرة الموت من هذا الطاعون.

ومفهوم عمر بجواز الخروج من أرض الطاعون، نُقِلَ أيضاً عن بعض الصحابة الذين عاصروا أبا عبيدة في الشام وعاشوا محنة المرض. حيث روى الإمام أحمد بسند صحيح أنه لما وقع الطاعون بالشام خطب عمرو بن العاص فقال: هذا الطاعون رجس، فتفرَّقوا عنه في هذه الشعاب، وفي هذه الأودية، فبلغ ذلك شرحبيل بن حسنة، فغضب فجاء وهو يجرُّ ثوبه معلق نعله بيده، فقال: صحبتُ رسول الله وعمرٌو أضلُّ من حمار أهْله، ولكنه رحمةُ ربكم ودعوة نبيكم ووفاة الصالحين قبلكم».

---

(١) انظر الفتح (١٠/ ١٨٨)؛ والطبري (٤/ ٦١).

يشير شرحبيلُ إلى حديث نبويّ بمعنى ما قال[1].

وفي تاريخ الطبري أن الذي رادَّ عمراً أبو واثلة الهذلي، وأنَّ عمراً قال: والله ما أردُّ عليك ما تقول، وايم الله لا نقيم عليه، ثم خرج وخرج الناسُ فتفرَّقوا، ورفعه الله عنهم. قال: فبلغ ذلك عمر بن الخطاب من رأي عمرو بن العاص، فوالله ما كرهه»[2].

ونُقِلَ عن أبي موسى أنه قال: «إنَّ هذا الطاعون قد وقع، فمن أراد أن يتنزَّه عنه فليفعل»[3].

والخلاف جارٍ في مسألة الخروج من أرض الطاعون، لا في الدخول إلى أرض الطاعون.

فبعضهم أباح الخروج على ألاَّ يكون الخروج فِراراً من قدر الله، والاعتقاد بأنَّ فراره هو الذي سلَّمه من الموت.

أما مَنْ خرج لحاجة متمحضة فهو جائز، ومَنْ خرج للتداوي فهو جائز. فإنَّ تركَ الأرض الوبئة والرحيل إلى الأرض

---

(١) انظر المسند (٤/ ١٩٥).

(٢) انظر الطبري (٤/ ٦٢).

(٣) انظر الفتح (١٠/ ١٨٨).

النزهة مندوب إليه ومطلوب. . وقد بوَّب البخاري في كتاب (الطب): «باب مَنْ خرج من أرض لا تلائمه».

وذكر قصة رجال من عكل وعُرينة قدموا المدينة فاستوخموها، لأنهم كانوا أهل بادية ولم يكونوا أهل ريف، فأباح لهم رسول الله ﷺ الخروج إلى ظاهر المدينة.

وفي سنن أبي داود أن فروة بن مسيك قال: قلتُ: يارسول الله، إنّ عندنا أرضاً يُقالُ لها أَبْيَن، وهي أرض ريفنا وميرتنا وهي وبئة، فقال: «دعها عنك، فإن من القرف التلف». والقرف: القرب من الوباء. وإنما يريد: اترك العيش والنوم فيها، لا أن يترك خيراتها.

لكنَّ أبا عُبيدة رضي الله عنه، علَّل بقاءه بأسباب صحيّة واجتماعية وسياسيّة وقيادية، ينظمها الدين في نظامه، وتعدُّ مثلاً أعلى للقيادة الأمينة، وأبو عبيدة أمين هذه الأمّة. حيث قال معلّلاً سبب ثباته: «إني في جُندٍ من المسلمين ولا أجدُ بنفسي رغبةً عنهم».

إذا هربَ الناسُ كافةً، فإنَّ الأمير الأمين يثبت ويكون آخر قومه رحيلاً، وإذا جاع الناسُ فإن الأمير الأمين يطعم قومه، ويكون آخر مَنْ يأكل، وإذا أُصيبَ القوم، يكون أميرهم أول مَن يواسيهم ويمسح جراحهم. . . وهذه حال أبي عبيدة الأمين. .

وهذا ما فهمه أبو عبيدة. وقد أصاب بعض العلماء المفصل عندما ذكر من حكمة النهي عن الخروج فراراً من الطاعون:

أن الناس لو تواردوا على الخروج، لصار مَنْ عجزَ عنه ـ بالمرض المذكور أو غيره ـ ضائع المصلحة، لفقْد مَنْ يتعهّده حيّاً وميّتاً.

ولو أنَّه شُرعَ الخروج، فخرج الأقوياء، لكان في ذلك كسر قلوب الضعفاء. وقد قالوا: إنَّ حكمة الوعيد في الفرار من الزحف لما فيه من كسر قلْبِ مَنْ لم يفرّ، وإدخال الرعب عليه بخذلانه.

وجمع الغزالي بين الحكمة الطبية والاجتماعية في النهي عن الخروج، فقال: الهواءُ لا يضرُّ من حيث ملاقاته ظاهر البدن، بل من حيث دوام الاستنشاق، فيصل إلى القلب والرئة فيؤثر في الباطن، ولا يظهر على الظاهر إلاَّ بعد التأثير في الباطن، فالخارج من البلد الذي يقع به لا يخلص غالباً مما استحكم به.

ويضاف إلى ذلك أنه لو رُخّص للأصحاء في الخروج لبقي المرضى، لا يجدون مَنْ يتعاهدهم فتضيع مصالحهم.

والخلاصة: أن البقاء رخصة، والخروج رخصة. فمَنْ كان

في الوباء وأصيب، فلا فائدة من خروجه، وهو بخروجه ينقل المرض إلى الناس الأصحاء. ومَنْ لم يصب، فإنه يرخّص له في الخروج من باب التداوي على ألاَّ يخرج الناسُ جميعاً، فلا بدَّ أن يبقى مَنْ يعتني بالمرضى.

٥ ـ الشهادة والشهيد:

قال عليه الصلاة والسلام: «الطاعون شهادة لكلّ مسلم». وقال عليه الصلاة والسلام: «المبطون شهيد والمطعون شهيد». وقال عليه الصلاة والسلام: «.. فليس من عبدٍ يقع الطاعون فيمكث في بلده صابراً، يعلم أنه لن يصيبه إلاَّ ما كتب الله له، إلاَّ كان له مثل أجر الشهيد». هذه الأحاديث الثلاثة رواها البخاري في كتاب «الطب».

وحسب نصّ هذه الأحاديث، فإنَّ أبا عبيدة لم يحرم الشهادة وأجر الشهيد، لأنَّه صبر على ما قدَّره الله له، فظفر بمنزلة الشهيد عند ربّه، بعد أن فتح الله على يديه بلاد الشام كلّها، ومنها القدس وبيت المقدس مسرى محمد ﷺ، ومعراجه، وأولى القبلتين وثالث ثلاثة مساجد لا تُشدُّ الرحال إلاَّ إليها.

وقد رُوي في بداية إصابة أبي عُبيدة بالطاعون أخبار، منها

ما رواه الطبري عن الحارث بن عمير، قال: «أخذ بيدي معاذ بن جبل، فأرسله إلى أبي عبيدة، فسأله: كيف هو، وقد طُعنّا، فأراه أبو عبيدة طعنة خرجت في كفّه، فتكاثر شأنها في نفس الحارث، وفرق منها حين رآها، فأقسم أبو عبيدة بالله: ما يُحبّ أنَّ له مكانها حُمْرَ النَّعم»[1]. وروى الذهبي: «أنّ وَجَعَ عمواس كان معافىً منه أبو عبيدة وأهله، فقال: اللهم نصيبك في آل أبي عبيدة. فخرجتْ بأبي عبيدة في خنصره بثرة، فجعل ينظر إليها، فقيل له: إنها ليست بشيء، فقال: أرجو أن يبارك الله فيها، فإنَّه إذا بارك في القليل، كان كثيراً».

وروى الطبري بإسناده: لما اشتعل الوجع ـ الطاعون ـ قام أبو عبيدة في الناس خطيباً، فقال: أيها الناس، إنَّ هذا الوجع رحمة بكم، ودعوة نبيّكم، وموت الصالحين قبلكم. وإنَّ أبا عبيدة يسأل الله أن يُقسم له منه حظَّه، فطعن، فمات.

٦ ـ مكان قبر أبي عبيدة:

يوجد اليوم «مزار أبي عبيدة» في غور البلاونة على الطريق العام الذي يقطع الغور من الشمال إلى الجنوب، وعلى بعد أربعين كيلاً من مدينة السلط.

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٢٢).

وكان الظاهر بيبرس قد بنى على قبر أبي عبيدة مشهداً، وأوقف عليه وقفاً ريعه للمؤذّن والإمام.

فهل لهذا القبر تواتر يثبت دَفْن أبي عبيدة في المكان المذكور؟

قلتُ: هناك اتّفاق وتواتر بوفاة أبي عبيدة في الشام بسبب الطاعون.

وهناك تواتر بأنه توفي بالغور الأردني، وإن لم يوجد اتّفاق على بقعة محدّدة من الغور، ولكنّهم ذكروا أماكن متقاربة، تساعد على حصر المكان في بقة صغيرة؛ تجعل زائر قبر أبي عبيدة مطمئناً أنه يقف أمام قبر حقيقي.

فقال ابن سَعد: إنّه قُبر بعمواس. وذكرنا من قبلُ أنها محرَّفة من «عماتوس» أو عمتا على وادي الراجب بغور البلاونة.

ونقل ابن عساكر عن عطاء ـ ولم أعرف مَنْ هو عطاء ـ أن قبر أبي عبيدة في بيسان. وبيسان تقع غربيّ النهر في الغور، في الجهة المقابلة من مزار أبي عبيدة. ويؤول قوله «في بيسان» أنه في كورة بيسان أو صقع بيسان، وليس بالضرورة أن يكون في بقعة بلدة بيسان، لأن القدماء كانوا ينسبون الأمكنة إلى أشهر مكان قريب، وبيسان هي أشهر الأماكن في تلك الناحية.

ونقل الذهبي: أنه أدركه أجله بفحْل، فتوفي بها، بقرب بيسان. وفحل على الضفة الشرقية من النهر أمام بيسان، ولذلك يقال للمعركة المشهورة «فِحْل بيسان».

وقال ياقوت الحموي: «عمتا: قرية بالأردن، بها قبر أبي عبيدة بن الجراح، وهي في وسط الغور». وهو ليس في بقعة عمتا، وإنما يقع إلى الجنوب منها، ولكن عرَّفه بأقرب القرى.

وقال ياقوت: «وقيل إنه في طبريَّة. وطبرية من الغور الأردني».

ولكن هذا القائل أبْعد المسافة.

وقال العمري ـ في مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المتوفى سنة ٧٤٨هـ ـ: «قبر أبي عبيدة بن الجرَّاح بقرية عمتا من الغور، وعليه بناء ولخادمه مرتب جار، أُجري له في الأيام التنكزيّة بعلم الوزير أمين الملك ووساطته».

وقال ابن بطوطة ـ المتوفّى عام٧٥٦هـ ـ: «مررتُ بالغور، وهو وادٍ بين تلال وفيه قبر أبي عبيدة بن الجرَّاح.. زرناه، وعليه زاوية فيها الطعام لأبناء السبيل، وبتنا هناك ليلة، ثم وصلنا إلى القصير وبه قبر مُعاذ بن جبل، تبركتُ أيضاً بزيارته».

وقال صاحب كتاب (الأنس الجليل): «وقبره ـ أبو عبيدة ـ في قرية يُقال لها عمتا، تحت جبل عجلون بين فقارس والعادلية بزاوية دير علاَّ بالغور».

فتأكد عندنا أنَّ قبر أبي عبيدة موجود شرقي النهر في نواحي قرية عمتا. وكل قبر غيره، يكون مقاماً موهوماً. وفي خان يونس ـ من لواء غزة ـ قبر، أو مقام في شرقي البلدة، يزعم بعضهم أنه قبر أبي عبيدة بن الجرَّاح. وخان يونس بلدة محدثة في القرن الثامن الهجري أيام السلطان برقوق، ليس لها ذكر في الفتوح. فآخر فلسطين من الجنوب «رفح» وجاء لها ذكرٌ. والمرحلة الثانية في الشمال: «الداروم»، أو دير البلح. ثم غزَّة.

وقد مرَّ الصحابة بأرض خان يونس، وهم يطاردون الروم من وادي عربة، ثم إلى «الدبية» في رفح، ثم إلى داثن بالقرب من معسكر النصيرات. فإن صحَّ وجود قبر في المكان، فقد يكون لرجل من الجيش الإسلامي وافته منيته في هذا المكان، ولكن ليس أبا عبيدة بن الجرَّاح، والله أعلم.

٧ ـ من الكلام الموقوف على أبي عبيدة:

رُوي أنه كان يسير في العسكر فيقول: «ألا رُبَّ مُبيّضٍ لثيابه مُدنّس لدينه، ألا رُبَّ مُكرمٍ لنفسه وهو لها مُهينٌ. بادروا

السيئات القديمات بالحسنات الحديثات».

وقال أبو عبيدة: «ياأيها الناسُ إني امرؤ من قريش، وما منكم من أحمرَ ولا أسودَ يفضُلني بتقوى، إلاّ وَدِدْتُ أني في مِسْلاخه». والمسلاخ: الهدي والطريقة.

وقال أبو عبيدة بن الجرَّاح:

«وَددْتُ أني كنتُ كبشاً فيذبحني أهلي، فيأكلون لحمي ويحْسُون مَرَقي».

وقد نقلتُ هذا الكلام من كتب التراجم، ولست متأكداً من صحته، بل أشكُّ في صحة نسبته إلى أبي عبيدة، وبخاصة تمنِّيه أن يكون كبشاً.. فكيف يتمنَّى أن يكون مخلوقاً أدنى من الإنسان، والله كرَّم بني آدم، ومنَّ عليهم أنه خلقهم في أحسن تقويم، وفضَّلهم على الملائكة، بل أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم.. إنه كلام لا يقوله أبو عبيدة المؤمن الصابر المجاهد.

٨ ـ في زُهده:

روى جمعٌ من الرواة، قالوا: قدم عمرُ الشام، فتلقاه الأمراءُ والعظماءُ، فقال: أين أخي أبو عُبيدة؟ قالوا: يأتيك الآن. فجاء على ناقة مخطومة بحبل، فسلَّم عليه، ثم قال للناس: انصرفوا عنَّا، فسار معه حتى أتى منزله، فنزل عليه،

فلم يَرَ في بيته إلا سيفه وتُرْسه ورحله. فقال له عمر: لو اتَّخذت متاعاً، أو قال: شيئاً. فقال: يا أمير المؤمنين، إن هذا سيبلغنا المقيل.

وفي المعنى نفسه برواية أُخرى: «أن عمر حين قدم الشام، قال لأبي عبيدة، اذهب بنا إلى منزلك، قال: وما تصنعُ عندي؟ ما تريد إلاَّ أن تعصر عينيك عليّ، فدخل، فلم يرَ شيئاً، قال: أين متاعك؟ لا أرى إلاَّ لِبْداً[١] وصَحْفة[٢] وشنَّاً[٣]، وأنت أمير، أعندك طعام؟ فقام أبو عُبيدة إلى جَوْنَةٍ[٤] فأخذ منها كسيرات، فبكى عمر، فقال له أبو عبيدة: قد قلت لك: إنك ستعصرُ عينيك عليَّ. . يا أمير المؤمنين، يكفيك ما يبلغك المقيل. قال عمر: غيَّرتنا الدنيا كُلَّنا، غَيْرَكَ يا أبا عُبيدة.

قال الذهبي: أخرجه أبو داود في (سننه) وقال: «وهذا والله هو الزهد الخالص، لا زُهد مَن كان فقيراً مُعْدماً».

وروى ابن سعد[٥]، عن مالك: أن عمر أرسل إلى أبي عبيدة

---

(١) اللبد: الصوف المتلبد. لعلّه جلد ضأن مدبوغ.
(٢) الصحفة: وعاء الطعام.
(٣) الشّنّ: القربة من الجلد.
(٤) جونة: وعاء يشبه السلة أو الجرّة يوضع فيه الخبز.
(٥) انظر: الطبقات (٣/ ١/ ٣٠١).

بأربعة آلاف، أو بأربعمئة دينار، وقال للرسول: انظر ما يصنع بها، قال: فقسمها أبو عبيدة. قال: ثم أرسل إلى معاذ بمثلها، فقسمها إلا شيئاً قالت له امرأته نحتاج إليه، فلما أخبر الرسول عمر، قال: الحمد لله الذي جعل في الإسلام من يصنع هذا.

٩ ـ من أخلاقه المحمودة:

روى الذهبي أن النبيَّ ﷺ أرسل عمرو بن العاص إلى «ذات السلاسل» من مشارف الشام، فخاف عمرو من جانبه ذلك، فاستمدّ رسول الله ﷺ، فانتدب أبا بكر وعمر في سراة من المهاجرين، وأمَّر عليهم أبا عُبيدة، فلما قدموا على عمرو بن العاص، قال: أنا أميركم، فقال المهاجرون: بل أنت أمير أصحابك، وأميرنا أبو عبيدة، فقال عمرو: إنما أنتم مدد أُمْدِدْتُ بكم. فلما رأى ذلك أبو عبيدة بن الجرَّاح: وكان رجلاً حسن الخُلُق لين الشيمة، متَّبعاً لأمر رسول الله ﷺ وعهده.. فسلَّم الإمارة لعمرو.

وفي رواية أن أبا عبيدة قال: يا عمرو، إن رسول الله قال لي: إن قدمتَ على صاحبك فتطاوعا، وإنك إن عصيتني أطعتك.

وروي أن عمر بن الخطاب قال: «إن أدركني أجلي وأبو عُبيدة حيٌّ استخلفته، فإن سألني الله: لِمَ استخلفته على أُمّة

محمد؟ قلتُ: إني سمعتُ رسول الله يقول: إن لكل أمة أميناً، وأمينُ هذه الأُمَّة أبو عبيدة بن الجرَّاح»[1].

وروى الحاكم[2] وابن سعد[3] «أنَّ عمر بن الخطَّاب قال لجلسائه: «تمنّوا، فتمنّوا، فقال عمر: لكني أتمنّى بيتاً ممتلئاً رجالاً مثل أبي عُبيدة بن الجرَّاح».

وروى البخاري[4] «أنَّ معاذاً سمع رجلاً يقول: لو كان خالد بن الوليد، ماكان بالناس دَوْك[5] (اختلاط الأمر) وذلك في حضر أبي عبيدة، فقال معاذ: فإلى أبي عبيدة تضطرُّ المعجزة لا أبالك! والله إنّه لخير من بقي على الأرض.

ويفسّر الخبر السابق روايةُ ابن حجر في الفتح: «إن معاذ بن جبل بلغه أن بعض أهل الشام استعجز أبا عبيدة أيام حصار دمشق، ورجَّح خالد بن الوليد، فغضب معاذ وقال: أبأبي عبيدة يُظن، والله إنه لمن خيرةِ مَنْ يمشي على الأرض».

---

(١) رواه الحاكم (٣/ ٢٦٨)؛ والإمام أحمد (١/ ١٨).
(٢) المستدرك (٣/ ٢٦٢).
(٣) الطبقات (٣/ ١/ ٣٠٠).
(٤) انظر: التاريخ الصغير (١/ ٥٨).
(٥) في طبقات ابن سعد جاءت العبارة «ماكان بالبأس ذوكَوْن» وكلتاهما تؤدي المعنى المطلوب.

قال ابن حجر في الفتح: أخرج ابن سعد هذا الخبر بإسنادٍ حسن.

قال أبو أحمد: وفي بعض ألفاظ المتن نظر.

فقوله: فغضب معاذٌ: هذا يمكن وقوعه، ولكن لم يغضب لوصف أبي عبيدة بالعجز، ولكن غضب، لأن كلام الناس يوقعهم في دَوْكة واختلاط، ويُفقِدُ الثقة بالقائد، وإذا فُقِدَتْ الثقة فترت عزائم المجاهدين.

وقوله: «استعجز أبا عُبيدة» لا يريدون العجز بمعنى الضعف والخور، وإنما أرادوا خطة الهجوم، وكونها مناسبة، أو يحسُن تغييرها ووضع الخطط الحربية المناسبة، وهذا ليس تفضيلاً. وإنما هو وضْع الرجل المناسب للمكان المناسب له، أو تكليف الناس بالأعمال التي تناسب مواهبهم واختصاصاتهم وقدراتهم. ولم يخلق الله الناس سواسية. فخالد قد يتفوّق على أبي عبيدة في فنّ، وأبو عبيدة قد يتفوَّق على خالدٍ في فنّ، وكلاهما عبقريٌّ في فنّه، ولا يُعدُّ أحدهما أفضل من صاحبه.

وقد ولّى رسول الله ﷺ رجال بني أمية الذين أسلموا بعد الفتح أعمالاً، ولم يستعمل الصحابة السابقين إلى الإسلام، فلم يقدح هذا في منزلة الصحابة، ولم يرفع أولئك فوق منزلة السابقين إلى الإسلام.

والمشهور أن قادة الشام أمّروا عليهم خالد بن الوليد في أجنادين، وفيهم أبو عبيدة، وأمّر أبو عبيدة خالد بن الوليد في معركة اليرموك، وأخذ بخطّته في الحرب.. وفيه اعتراف بتفوّق خالدٍ في مجال الحرب.

وإذا صحَّ الخبر فإنه ينتهي عند قوله: «أبأبي عبيدة يُظَنُّ» أي: يُظنُّ العجز.

وأما قوله: «والله إنه لمن خيرة مَنْ يمشي على الأرض» فهذا من كلام الراوي أو زيادة منه.. لأن الذين تكلَّموا في أبي عبيدة، إنما تكلَّموا في ناحية الحرب، والعبارة الأخيرة يفهم منها المفاضلة في نواحٍ أخرى.. ولم يكن الناس يفضّلون خالداً على أبي عبيدة فيما سوى الحرب، فمن المتَّفق عليه أنَّ أبا عبيدة أفضل من خالد، لسبقه إلى الإسلام وجهاده...

والخلاصة: إن رسول الله ﷺ: فَصَل في القضية: فقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: إن خالداً سيف من سيوف الله.

وثبت أن رسول الله ﷺ قال: أبو عبيدة أمين هذه الأمة.

ولقب خالد بـ «سيف الله» في مناسبة حربية، هي غزوة مؤتة. حيث استطاع خالد أن ينقذ الجيش من الهلاك بعد استشهاد قوّاده الثلاثة. وهذا يعني أن رسول الله ﷺ اعترف له بتفوّقه الحربي.

ولُقّب أبو عبيدة «أمين الأمة» في مناسبة إدارية، حيث أرسله رسول الله ﷺ مع وفْد نجران ليفصل في قضايا ماليّة أو إدارية. . وهذا يعني أن رسول الله ﷺ اعترف له بتفوّقه في مجال الإدارة والسياسية وقيادة المجتمع.

ومما يشهد لمنزلة أبي عبيدة، ما ذكر ابن حجر في الإصابة، قال: وهو الذي قال لعمر أتفرُّ من قدر الله، فقال: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفرُّ من قدر الله تعالى إلى قدر الله تعالى. قال ابن حجر: وذلك دالٌّ على جلالة أبي عبيدة عند عمر.

وفي الطبراني من طريق عبد الله بن عمرو قال: ثلاثة من قريش أصبحُ النـاس وجوهـاً وأحسـنهم خلقاً وأشدُّهم حياءً: أبو بكر، وعثمان، وأبو عُبيدة.

وأخرج الحاكم في المستدرك أنه لما طُعِنَ أبو عبيدة قال: يا معاذ، صلِّ بالناس. فصلّى ثم مات أبو عبيدة، فخطب معاذ، فقال في خطبته: وإنكم فجعتم برجل ما أزعم والله أني رأيتُ من عباد الله قطُّ أقلَّ حقداً، ولا أبرأ صدراً، ولا أبعد غائلةً، ولا أشدَّ حياءً للعاقبة، ولا أنصح للعامة منه، فترحموا عليه. [عن الإصابة]. وربما كان في النصّ تصحيف، تفسره رواية ابن عساكر: «قد فجعتم برجل ما أزعم أني رأيتُ عبداً أنقى صدراً

ولا أبعد من الغائلة، ولا أشدَّ حبّاً للعامّة، ولا أنصحَ لها منه، فترحَّموا عليه، واحْضُروا الصلاة عليه».

وكان أبو بكر يقول: عليكم بالهيّن اللين، الذي إذا ظُلِم لم يَظْلِم، وإذا أُسيءَ إليه غَفَر، وإذا قُطِعَ وَصَل، رحيمٌ بالمؤمنين شديد على الكافرين: عامر بن الجرَّاح.

وفي الحديث المرسل عن الحسن، أن رسول الله ﷺ قال: «ما مِنْ أحدٍ من أصحابي إلا لو شئتُ لأخذتُ عليه في خُلُقِه، ليس أبا عُبيدة بن الجرَّاح». قال السيوطي في «الجامع» رواه الحاكم ورمز إليه «صح» ولكنه مرسل.

وما نقلته رواية الإصابة لابن حجر، وفي الجامع «غير أبي عبيدة».

قال أبو أحمد: ولفظ الحديث يشبه المذكور في قصة طلب سيبويه النحو. قالوا: إن سيبويه لزم حلقة حماد بن سلمة يطلب الحديث، فبينا هو يستملي على حمَّاد قول النبي ﷺ: «ليس من أصحابي إلا مَنْ لو شئتُ لأخذتُ عليه ليس أبا الدرداء» فقال سيبويه: «ليس أبو الدرداء» وظنَّه اسم ليس. فقال حمّاد: لحنت يا سيبويه، ليس هذا حيث ذهبت، إنما «ليس» هنا استثناء. فقال: سأطلب علماً لا تلحنني فيه، فلزم الخليل فبرع. [عن طبقات النحويين للزبيدي]. والله أعلم بحقيقة الحديث والقصة.

١٠ - مناقب وفضائل:

* مَنْ أَحَبّ الناس إلى رسول الله ﷺ؟

فعن عبد الله بن شفيق قال: سألتُ عائشة: أيُّ أصحاب رسول الله ﷺ كان أحبَّ إليه، قالت: أبو بكر، ثم عمر، ثم أبو عبيدة بن الجرّاح[١].

وهذا الترتيب في الأفضلية يوافق ما رواه مسلم عن عائشة، وقد سئلت: مَنْ كان رسول الله مستخلفاً لو استخلفه، قالت: أبو بكر. فقيل لها: ثمَّ مَنْ بَعْدَ أبي بكر، قالت: عُمر. ثم قيل لها: مَن بعْدَ عمر؟ قالت: أبو عبيدة بن الجرَّاح، ثم انتهت إلى هذا»[٢].

* ـ من المبشرين بالجنة:

روى الإمام أحمد[٣] عن عبد الرحمن بن عوف، قال: قال رسول الله ﷺ: أبو بكر في الجنَّة، وعُمر في الجنَّة، وعليٌّ في الجنَّة، وعثمان في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب (٧٥٦٣) وابن ماجه (١٠٢) في المقدمة. باب فضل عمر، ورجاله ثقات. وأخرجه الحاكم: ٣/ ٧٣؛ وصحَّحه ووافقه الذهبي.

(٢) انظر: صحيح مسلم ـ باب فضائل أبي بكر.

(٣) انظر: المسند (١/ ١٩٣).

الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعد بن أبي وقاص في الجنة، وسعيد بن زيد في الجنة، وأبو عُبيدة بن الجرَّاح في الجنة»[1].

قال أبو أحمد: إنْ صحَّ متن الحديث بعد صحة سنده، فربما جمعها الراوي من مجالس متعدّدة، بشَّر رسول الله ﷺ في كل مجلس عدداً من الصحابة بالجنة. وقد ثبت في صحيح البخاري أن رسول الله بشَّر أبا بكر وعمر وعثمان بالجنة في مجلس واحد، أو في مناسبة واحدة..

فإن قيل: كيف يبشِّر رسول الله ﷺ بعض أصحابه بالجنة، وهو من علم الغيب؟

قلتُ: لقد علم رسول الله ﷺ أن هؤلاء الذين يبشّرهم بالجنة سيداومون على أعمالهم الصالحة التي تُدخل صاحبها الجنَّة، وقد يكون هذا العلم من الوحي، وقد يكون بالفراسة التي تعرف معدن الرجال.. وتبشير العشرة بالجنة لا يعني أن الآخرين غير مبشَّرين بها، فكلُّ مَنْ عمل عملهم وسار على

---

(١) إسناده صحيح، وأخرجه الترمذي في المناقب (٣٧٤٨) وأخرجه أبو يعلى من مسند عبد الرحمن بن عوف، بتحقيق الشيخ حسين أسد، وقال: إسناده صحيح.

دربهم فهو في الجنة إن شاء الله تعالى.

* وأبو عبيدة بن الجرَّاح أمين هذه الأمة، فقد روى البخاري[1] عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ لكلّ أمّة أميناً، وإنَّ أميننا أيتُها الأمة[2]: أبوعبيدة بن الجرَّاح».

قال ابن حجر: الأمينُ: الثقة الرضيّ، وهذه الصفة، وإن كانت مشتركة بينه وبين غيره، لكن السياق يُشعِر بأن له مزيداً في ذلك، لكن خصَّ النبيُّ ﷺ كلَّ واحدٍ من الكبار بفضيلة ووصفه بها، فأشعر بقدْرٍ زائدٍ فيها على غيره، كالحياء لعثمان، والقضاء لعليّ، ونحو ذلك.

ولهذا اللقب، وهذه المنقبة مناسبة، لكن لفظ الحديث يدلُّ على أن رسول الله ﷺ، عرف في أبي عبيدة هذه الصفة، فحكى لزومها في أبي عبيدة، بعد فوات المناسبة.

ومناسبة هذا اللقب كما رواها البخاري[3]: «أنَّ العاقب والسيد ـ صاحبي نجران ـ قدِما إلى رسول الله ﷺ، يريدان أن

---

(١) كتاب (٦٢)، باب (٢١).

(٢) قوله: «أيتها الأُمة»: صورته، صورة النداء، لكن المراد فيه الاختصاص. أي: أُمتنا مخصوصون من بين الأمم، وعلى هذا فهو بالنصب على الاختصاص ويجوز فيه الرفع.

(٣) كتاب (٦٤)، باب (٧٢).

يلاعناه، فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعَلْ، فوالله لئن كان نبياً فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا. قالا: نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلاً أميناً، ولا تبعث معنا إلا أميناً، فقال: لأبعثنَّ معكم رجلاً أميناً حقَّ أمين، فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ. فقال: قُمْ يا أبا عبيدة بن الجرَّاح، فلما قام، قال رسول الله ﷺ: هذا أمينُ هذه الأمَّة».

فهذا الخبر مرويٌّ عن حذيفة، حيث شهد المناسبة. وتثبيت المنقبة، وإطلاق وصفه بها، يرويه أنس بن مالك، فهذا يدلُّ على أن النبيَّ ﷺ أعاد تلقيب أبي عبيدة بصفة الأمانة، وجعلها صفة لازمة له، وليستْ بمناسبة بَعْثه مع وفد نجران، وكان رسول الله ﷺ قد صالح أهل نجران ـ النصارى ـ على قدرٍ من المال، فذهب أبو عبيدة لقبض مال الصلح.

وفي الرواية: فاستشرف لها أصحاب رسول الله.. أي: تطلَّعوا للولاية ورغبوا فيها حرصاً على تحصيل الصفة المذكورة، وهي الأمانة، لا على الولاية من حيث هي.

ويظهر من الروايات المتعدّدة، أنَّ أبا عبيدة ذهب إلى اليمن مرَّتين في واقعتين منفصلتين:

الأولى: في قبض مال الصلح من أهل نجران، كما جاء في نص الحديث الذي رواه البخاري.

والمرة الثانية: ذهب معلِّماً. ففي مناقب أبي عبيدة من صحيح مسلم عن أنس: «أنَّ أهل اليمن قدموا على رسول الله، فقالوا: ابعث معنا رجلاً يعلّمنا السنة والإسلام، قال: فأخذ بيد أبي عبيدة، فقال: هذا أمين هذه الأمّة».

ومع أنَّ (نجران) تُعدُّ من (اليمن) في اصطلاح القدماء، فإن الواقعتين مختلفتان، فأهل نجران بخاصة، كانوا على دين النصرانية، وليس في نصّ الحديث أنَّهم أسلموا، والدليل على ذلك، أنَّهم قالوا: «نعطيك ما سألتَنا». وهو الجزية. ونقل ابن حجر[1] أنَّه صالحهم على ألفي حلّة؛ ألفٍ في رجب، وألفٍ في صفر، ومع كلّ حلة أوقية. فذهب أبو عبيدة لقبض ما تمَّ الاتّفاق عليه، ولو أسلموا ما كانت جزية.

وربَّما عاد أبو عبيدة إليهم مرة ثانية معلّماً، فقد ذكر ابن سعد أن السيد والعاقب رجعا بعد ذلك فأسلما، وسماهم الراوي في حديث أنس (أهل اليمن) لأنَّ نجران من اليمن، والله أعلم.

١١ ـ مسند أبي عُبيدة:

أسلم أبو عُبيدة في وقت مبكّر من بداية البعثة النبويّة، وقالوا: إنَّه أسلم قبل دخول النبيﷺ إلى دار الأرقم.. ووقّت بعضهم

---

(١) الفتح (٨/ ٩٥).

دخول الرسول إلى دار الأرقم بين السنة الرابعة والخامسة من البعثة، وهذا يعني أنّ أبا عبيدة رافق رسول الله ﷺ في مكّة حوالي عشرة أعوام، ثم هاجر إلى المدينة فكان من المهاجرين الأولين، وصاحب رسول الله ﷺ في المدينة عشر سنوات، لم يكن يشغله عن حضور مجلس رسول الله ﷺ إلا خروجه في سريّة، يغيب فيها عن المدينة أسبوعاً أو شهراً. . وهذا يدلُّ على أنَّه استوعب السُّنّة القولية والعملية، وعُدَّ ممَّن جمعوا القرآن وحفظوه.

ويشهد لسعة علمه بالسنَّة والكتاب، ما رواه الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: «لما قدِمَ أهل اليمن على النبي ﷺ قالوا: ابعث معنا رجلاً يعلّمنا كتاب ربّنا والسُّنَّة. قال: فأخذ النبيّ بيد أبي عبيدة، فدفعه إليهم، وقال: هذا أمين هذه الأمّة»[1].

ومع هذه الصحبة الطويلة، والشهادة له بالعلم، فإنَّ كتب الحديث لم ترِو عنه إلا أحاديث قليلة.

فالبخاري يخلو من الأحاديث المسندة إلى أبي عبيدة.

وروى مسلم حديثاً واحداً.

وروى الترمذي حديثاً واحداً.

---

(١) المسند (٣/ ٢١٢).

وفي مسند الإمام أحمد اثنا عشر حديثاً، إذا حذفت المكرَّر بقي منها سبعة أحاديث.

وفي مسند أبي يعلى تسعة أحاديث، يوافق الإمام أحمد في ستة منها، وتبقى ثلاثة أحاديث متضمّنة في حديث واحد.

فيكون مجموع ما روي عن أبي عُبيدة ثمانية أحاديث، منها ما هو مرسل، ومنها ما هو متَّصل، وصحَّ بعض أسانيد المتَّصلة، وضعف بعضها.

فما أسباب قلَّة أحاديث أبي عُبيدة؟

من أحسن ما كُتب في تعليل كثرة الأحاديث أو قلَّتها، ما قاله أو نقله ابن سعد(١)؛ قال: «قال محمد بن عمر الأسلمي: إنَّما قلَّت الروايةُ عن الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ، لأنهم هلكوا قبل أن يُحتاج إليهم. وإنما كثرت عن عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب، لأنهما وليا فسُئلا وقضيا بين الناس وكلُّ أصحاب رسول الله ﷺ كانوا أئمة يُقتدى بهم، ويحفظ عليهم ما كانوا يفعلون، ويُسْتَفْتَوْن فيُفتون.

وسمعوا أحاديث فأدَّوها.

---

(١) الطبقات (٢/ ٣٧٦).

فكان الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ أقلَّ حديثاً عنه من غيرهم مثل أبي بكر وعثمان، وطلحة والزبير وأبي عُبيدة بن الجرَّاح ونظرائهم، فلم يأتِ عنهم من كثرة الأحاديث مثل ما جاء عن الأحداث من أصحاب رسول الله ﷺ، مثل جابر بن عبد الله وأبي سعيد الخدري وأبي هريرة.. ونظرائهم. فكان أكثر الرواية والعلم في هؤلاء ونظرائهم من أصحاب رسول الله ﷺ، **لأنهم بقوا وطالت أعمارهم واحتاج الناسُ إليهم.**

ومضى كثير من أصحاب رسول الله ﷺ قبله، وبَعْده بعلمه لم يُؤْثر عنه بشيء. ولم يُحْتَج إليه لكثرة أصحاب رسول الله ﷺ.

قال: شهد مع رسول الله ﷺ تبوكاً وهي آخر غزاة، غزاها ثلاثون ألف رجل، وذلك سوى مَنْ قد أسلم وأقام في بلاده وموضعه لم يغزُ فكانوا عندنا أكثر ممن غزا معه تبوكاً.. فمنهم مَنْ تقدَّم موته قبل وفاة رسول الله ﷺ، ومنهم مَنْ تأخر موته، وهم أكثر:

فمنهم مَنْ حُفِظَ عنه ما حدَّث به عن رسول الله ﷺ، ومنهم مَنْ أفتى برأيه، ومنهم من لم يحدّث عن رسول الله ﷺ شيئاً، ولعله أكثر صحبة ومجالسة وسماعاً من الذي حدَّث عنه.

ولكنا حملنا الأمر في ذلك منهم على: التوقّي في الحديث

أو على أنه لم يُحتَج إليه لكثرة أصحاب رسول الله ﷺ، وعلى الاشتغال بالعبادة والأسفار في الجهاد.. حتى مضوا ولم يحفظ عنهم عن النبي شيء».

وإذا أردنا أن نطبق ما قاله ابن سعد على حياة أبي عبيدة:

١ ـ توفي سنة ١٨هـ والصحابة في زمنه كثيرون.

٢ ـ انشغل بالجهاد، فخمس السنوات التي أمضاها في الشام كانت معارك وفتوحاً مستمرّة.

وقد أخذ التابعون من أهل الشام عن أبي الدرداء، وعبادة بن الصامت، ومعاوية بن أبي سفيان، أضعاف ما أخذوا عن أبي عُبيدة ومعاذ بن جبل وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان، لأن هؤلاء ماتوا في طاعون عمواس في وقت متقدّم، والآخرين تأخر زمنهم إلى أن استقرَّ أمر الفتح وكثر المسلمون من التابعين واحتاجوا إلى الحديث والفقه.

١٢ ـ دراسة تاريخية لمسند أبي عبيدة:

عن عياض بن غُطيف قال: «دخلنا على أبي عبيدة بن الجرَّاح نعوده من شكوى أصابه، وامرأته تُحَيفةُ قاعدة عند رأسه.

قلت: كيف بات أبو عبيدة؟ قالت: والله لقد بات بأجرٍ. فقال أبو عبيدة: مابتُّ بأجرٍ. وكان مُقبلاً بوجهه على الحائط،

فأقبل على القوم بوجهه، فقال: ألا تسألوني عما قلت؟. قالوا: ما أعجبنا ما قلتَ فنسألك عنه. قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: مَنْ أنفق نفقةً فاضلة في سبيل الله فبسبعمئة، ومَنْ أنفق على نفسه وأهله أو عاد مريضاً أو ماز أذى فالحسنة بعشر أمثالها، والصوم جُنَّةٌ مالم يخرقها.

ومَنْ ابتلاه الله ببلاءٍ في جسده فهو له حِطَّة».

١ ـ الحديث رواه الإمام أحمد، وأبو يعلى في المسند: وقال أحمد شاكر محقق مسند أحمد: إسناده صحيح. وقال حسين أسد محقق مسند أبي يعلى: إسناده حسن. وبين الحسن والصحيح فروق. واختلفا مع أنَّ الإسناد واحد. وكلمة «صحيح» توحي بصحة مضمون الحديث. ويتضمن هذا الحقيقة التاريخية لرجال السند، وملابسات الرواية والمتن المتَّصل برسول الله ﷺ. وربما رُبط في ذهن القارىء بصحيحي البخاري ومسلم. ومعلوم أنهما لم يستوعبا كل صحيح، ولكن ما لم يروياه قد يكون صحيحاً على شرطهما، وقد يكون على شرط غيرهما. وقد تعدَّد المحدّثون، واختار كلٌّ واحدٍ منهم شروطاً للصحة فما يكون صحيحاً عند فلان، يكون ضعيفاً عند الآخرين. . ولذلك يجب أن نحتاط في الحكم، وأن نترك مجالاً لاحتمالات الوهم والخطأ والنسيان، والاختلاط، والتصحيف.

٢ ـ وقد جاء في سياق الرواية: «دخلنا نعوده وامرأتُه (تُحيفة) قاعدة. . » وتحيفة ـ تصغير (تُحفْة). . وقد بحثنا في الكتب التي ترجمت لأبي عبيدة، فلم نجد له زوجة تسمى تحيفة. . فقد جاء في نسب قريش: فولد أبو عبيدة بن الجرَّاح، يزيد وعُميراً وأمهما «هند بنت جابر». ولم أجد في أسماء الصحابيات أو التابعيات، اسم «تُحيفة» وربما كانت محرَّفة من الفعل (تحدثه)، أو ما يشبهه.

٣ ـ الراوي: عياض بن غطيف، بالغين، أو بالعين، اختلفوا فيه وفي اسمه. فهل هو عياض بن غطيف. أو غطيف بن الحارث، أو غضيف ـ بالضاد ـ ابن الحارث.

٤ ـ قال: دخلنا على أبي عبيدة نعوده من شكوى. .

لم نعرف أين دخلوا عليه. فإن كانوا دخلوا عليه في الشام ـ ففي أي مكان؟ في دمشق، في حمص، في الجابية، في الغور حيث مرض ومات. . وهذه الشكوى: هل هي مرض ألمَّ به قبل الطاعون أو هو الطاعون؟ فقد أمضى أبو عبيدة في الشام خمس سنوات وتنقَّل في أماكن وبلدان. . فهذا نقص في الرواية يفقدها تحديد الزمان والمكان، وبهما تعرف صحة الرواية وصدق اللقاء.

٥ ـ قالت: بات بأجرٍ، وقال: ما بتُّ بأجر، والأجر: الثواب الحاصل من صبره على قضاء الله. ولكن أبا عبيدة لم يُعطِ تبريراً لنفيه البيات على أجر، وقد ذكر في حديثه الذي سمعه من رسول الله ﷺ «من ابتلاه الله ببلاء في جسده فهو له حِطَّة» وحِطَّة: أي تحط عنه خطاياه وذنوبه. وهذه توافق حاله، وكونه بات مريضاً، فهو إذن بات بأجر.

٦ ـ وهذا الحوار الذي دار بين الراوي، وأبي عبيدة: أما تسألوني؟ وقولهم: «ما أعجبنا ما قلت».. هذا حوار لا يشبه ما كان ويكون بين متحاورين في الصدر الأول، وكان الناسُ في مثل هذه الحال، يبشّر العائد المريض بالثواب، والعافية.

٧ ـ قد يكون في متن الحديث ما يوافق الصحيح المروي عن رسول الله ﷺ، لكن هذا المتن لم يأتِ في سياقه المناسب والله أعلم. هذا وللحديث رواية أخرى في المسند، بدون سؤال الزوجة، وبدون الحوار الذي جرى مع أبي عبيدة.. قال: إني سمعتُ رسول الله يقول (وذكر الحديث) فالذي يصحُّ من معنى الحديث هذا السياق المرفوع إلى النبي ﷺ.

الحديث الثاني: عن أبي عبيدة قال: آخر ما تكلَّم به النبيُّ ﷺ: «أخرجوا يهود أهل الحجاز، وأهل نجران من جزيرة العرب. واعلموا أنَّ شرار الناس الذين اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

١ ـ هذا الحديث رواه الإمام أحمد، وأبو يعلى، واتَّفق شاكر وأسد محققا الكتابين على صحة الإسناد، ويشهد لبعض لفظه ما رواه البخاري. فقد بوَّب البخاري باب «إخراج اليهود من جزيرة العرب»، وروى عن ابن عباس حديثاً، فيه آخر ما أوصى به رسول الله ﷺ، بلفظ «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب». ويكون البخاري فهم من لفظ «المشركين» بأنهم اليهود، وقد وهم ابن حجر[1]، فزعم أن البخاري اقتصر على اليهود في العنوان، لأنهم يوحّدون الله تعالى إلا القليل منهم، ومع ذلك أمر بإخراجهم فيكون إخراج غيرهم من الكفار من باب أولى. قلت: إن كلام ابن حجر غير صحيح. فإن اليهود لا يوحدون الله تعالى. ومَن اطّلع على توراتهم التي بين أيديهم عرف أنهم وثنيون. ربما لا يعدُّون من المشركين، لأنهم لا يعدّدون الآلهة، ولكن إلههم الذي يعبدونه «يهوه» إله مُجَسَّم، يجالس الناس، ويأكل معهم، ويصارعهم، وهو إله قَبَلِيّ خاص بهم، وليس إله العالمين. فمن أين جاء إلى اليهود التوحيد، إذا كانت هذه عقيدتهم في الإله؟

٢ ـ جزيرة العرب ـ في مفهوم العرب ـ تشمل: الحجاز ونجد واليمن والشام إلى جبال طوروس شمالاً، وإلى حدود الفرات شرقاً، وإلى حدود نهر النيل غرباً.

---

(١) انظر: الفتح (٦/ ٢٧١).

٣ ـ وأحاديث أبي عبيدة، غالباً شامية ـ حدَّث بها وهو بالشام ـ، ويظهر أن مناسبة التحديث بهذا الحديث، أنه كان يفهم من الأمر بإخراج اليهود من جزيرة العرب، أن يخرجوا من الشام أيضاً، لأنها من جزيرة العرب. والمشهور أن العهد العمري لأهل القدس، تضمَّن ألا يسكن في بيت المقدس أحد من اليهود.

الحديث الثالث: «أجار رجلٌ من المسلمين رجلاً، وعلى الجيش أبو عبيدة بن الجرَّاح. فقال خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص: لا تجيروه. وقال أبو عبيدة: نجيره. سمعتُ رسول الله يقول: يجيرُ على المسملين أحدهم».

١ ـ الحديث رواه أحمد، وأبو يعلىٰ. وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

وقال الشيخ حسين أسد: إسناده ضعيف. وقال: وله شواهد كثيرة. وحقّه أن يقول: «صحيح المعنى».

والغريب في الأمر: أن العلة التي من أجلها ضعَّف الشيخُ الأسدُ إسناد الحديث، موجودة في سند الحديث الذي رواه أحمد: ففي الإسنادين: الحجاج بن أرطأة. وهو مدلّس كثير الخطأ. فعدَّ أحدهم حديثه صحيح الإسناد، وعدَّ الآخر حديثه

ضعيف الإسناد. قلتُ: هناك نقص في التحقيق يترك القارىء في حيرة.

ويُرجى من محققي الحديث النبويّ، أن يضيفوا كلمة إلى تحقيقاتهم: فإن كان الحديث صحيح الإسناد، يذكر المحقّق ما يدلُّ على صحة المعنى، أو عدم صحته، كأن يقول: يوافق السنة، أو يوافق القرآن، أو يوافق معناه ما في البخاري ومسلم... إلخ.

وإن كان الحديث ضعيف الإسناد، صحيح المعنى، أشار المحقق إلى صحة المعنى، بالإشارة إلى ما يشبه لفظه في الصحاح.. لأن الراوي الضعيف، قد يأتي على لسانه كلام صحيح معنى وشرعاً.

ويعجبني في هذا المقام العجلوني في كتابه «كشف الخفاء» فإنه إذا ذكر حديثاً ضعيفاً أو موضوعاً، يحكم على متنه بالصحة أو الخطأ. فما لم يصلح تشريعاً، يصلح أن يكون حكمة يباح العمل بها في غير العبادات.

٢ ـ قوله: «وعلى الجيش أبو عبيدة»: هذا يدلُّ على أنَّ القصة شامية. لأنه لم يُعرف اجتماع أبي عبيدة، وعمرو بن العاص، وخالد بن الوليد في جيش واحد إلا في الشام. وفيه القيادة كانت في الشام لأبي عبيدة. وربما كان ذلك في حصار

دمشق، أو في حصار القدس؛ لأن المعارك الكبرى ـ أجنادين، واليرموك ـ كانت القيادة العسكرية فيهما لخالد بن الوليد.

٣ ـ في قصة الحديث منقبة لأبي عُبيدة، تدلُّ على سابقته وكثرة محفوظه من الحديث النبوي، لأنه حفظ ما لم يحفظه صاحباه، لأنهما قد تأخر إسلامهما.

٤ ـ معنى الحديث صحيح: فقد بوَّب البخاري في كتاب «الجزية والموادعة» باب «ذمة المسلمين وجوارهم واحدة يسعى بها أدناهم».

وروى حديث علي بن أبي طالب، وفيه «وذمّةُ المسلمين واحدة»، وبوّب باب «أمان النساء وجوارهنّ»، وفيه حديث «قد أجرنا مَنْ أَجَرْتِ يا أمَّ هانىء».

٥ ـ وقد استَشْهَد بهذا الحديث بعض القادة العرب المعاصرين، لتبرير عَقْد معاهدة صلح مع أعداء استولوا على بلاد المسلمين.

وقد أخطأ في استشهاده، وضلَّ في فتواه، لأنَّ الحديث في جوار رجل لم يؤذ المسلمين. وجواره المزعوم لقوم سرَّاق، وقطاع طرق، ومفسدين في الأرض.. وهؤلاء لا جوار لهم، بل جزاؤهم أن يُصلَبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو يُنفوا من الأرض التي سرقوها.

الحديث الرابع: وهو حديث طويل رواه أحمد فقط، وقال محققه: إسناده ضعيف. ولكن بعضه صحيح المعنى، وهو قول عمرو بن العاص: «أيها الناسُ، إنَّ هذا الوجع ـ الطاعون ـ إذا وقع فإنما يشتعل اشتعال النار، فتجبَّلوا منه في الجبال.. وايم الله لا نقيم عليه. ثم خرج وخرج الناس، فتفرَّقوا عنه، ودفعه الله عنهم».

وفيه شاهد على أن طاعون عمواس وقع في الغور ـ نواحي عمتا ـ وفِحْل وبيسان. ولم يكن في «عمواس» الفلسطينية. لأنها مرتفعة عن سطح البحر. وأما الغور فهو المنخفض عن سطح البحر، وأرضه وبئة تكثر فيه البراغيث مسببة الطاعون. ولذلك قال عمرو: فتجبَّلوا منه في الجبال.. أي ارتفعوا عن الأرض الغورية. وارجع إلى ما كتبناه في الفصل السابق عن طاعون عمواس.

الحديث الخامس: عن عامر الشعبي قال: بعث رسولُ الله جيش ذات السلاسل، فاستعمل أبا عبيدة على المهاجرين، واستعمل عمرو بن العاص على الأعراب، فقال لهما: تطاوعا. قال: وكانوا يؤمرون أن يغيروا على بكر، فانطلق عمرو فأغار على قضاعة، لأن بكراً أخواله، فانطلق المغيرة بن شعبة إلى أبي عبيدة فقال: إنَّ رسول الله استعملك علينا وإن ابن فلان قد اتبع أمر القوم

وليس لك معه أمر، فقال أبو عبيدة: إن رسول الله ﷺ أمرنا أن نتطاوع، فأنا أطيع رسول الله، وإن عصاه عمرو.

١ ـ رواه أحمد، وقال محققه: إسناده ضعيف لإرساله، فالشعبي لم يدرك أبا عبيدة، ولم يدرك مَنْ عاش بعد أبي عبيدة، عمر بن الخطاب. والحقُّ أن الحديث ليس رواية، وإنما هو قصة مرتجلة، لأن الشعبي لم يقل حدثني، أو أخبرني فلان.. وفي الحديث ما يخالف روايات كتب السيرة.

٢ ـ فقوله: استعمل أبا عبيدة.. واستعمل عَمْراً.. ليس كذلك، وإنما أرسل رسول الله عمراً أولاً، ثم أمدَّه بأبي عبيدة.

قوله: استعمل أبا عبيدة على المهاجرين: لا يصح، فقد كان في المدد المهاجرون والأنصار.

٤ ـ وقوله: استعمل عمراً على الأعراب: غير صحيح؛ لأن جيش عمرو خرج من المدينة، وفيه مَنْ فيه من المهاجرين والأنصار، ثم أوصاه رسول الله أن يضمَّ إليه مَنْ أسلم من الأعراب في طريقه إلى الغزوة.

٥ ـ قوله: وكانوا يؤمرون... إلخ: لا يُعقل أن يغيّر عمرو بن العاص ما أمره به رسول الله ﷺ.

٦ ـ قوله: لأن بكراً أخواله: هذا يخالف المشهور، أن

أخوال أبيه من بليّ، وبليّ من قضاعة. قال مصعب الزبيري[1] «وأمره أن يدعو أخوال أبيه العاصي من بليّ إلى الإسلام» وفي جمهرة النسب أن بليّ من قضاعة.

٧ ـ قوله: قال أبو عبيدة: «فأنا أطيع رسول الله وإن عصاه عمرو»: لا يصح. وإنما قال: فأنا أطيعه ـ أي يطيع عمراً ـ إن عصاني.

وقد أوصى رسولُ الله ﷺ أبا عبيدة أن يتطاوعا. .

الحديث السادس: حديث يتصل بقصّة الدجّال ـ وهو من علامات الساعة ـ.

قال محققوه: إسناده صحيح. وسواءٌ أصحَّ سندُ هذا الحديث أم لم يصحّ، فإنَّ إخبار النبي ﷺ عن ظهور الدجَّال في آخر الزمان ثابت في صحيحي البخاري ومسلم. . ولم أقف عند الحديث لصلته بالتاريخ، لأن الدجال لم يظهر بَعْدُ، وما لم يقع لا يُعدُّ من التاريخ. . ولكنني وقفتُ عند الحديث، لأن الناس ربطوه بالتاريخ، وبتاريخ فلسطين بخاصة التي فتحها الله على يد أبي عبيدة بن الجرَّاح.

فقد روى البخاري عن النبي ﷺ قوله: «تقاتلكم اليهود

---

(١) انظر: نسب قريش (ص ٤١٠).

فتسلَّطون عليهم حتى يقول الحجر: يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتلْه». وقد فسّرتْ رواية أخرى عند أحمد زمن هذا القتال ومكانه، وأنه يكون عند ظهور الدجال، ونزول المسيح عليه السلام في آخر الزمان. وأما المكان: ففي رواية أنَّه يكون خارج المدينة النبويَّة، وفي رواية أن عيسى يدركه عند باب «لُدّ» وفي الأحاديث أنه يكون وراء الدجال سبعون ألف يهودي.

ومجموع الروايات تنبيء أن ذلك يكون في أخر الزمان، لأن ظهور الدجال ونزول عيسى، يكونان من علامات الساعة. وعلامته: وجود الدجال ووجود عيسى.

ولكن بعض المتمشيخين، فهموا هذه النبوءة فهماً خاطئاً، فطبَّقوها على حال اليهود الذين غزوا فلسطين اليوم، وأخذوا يقولون: دعوهم يتجمَّعون تحقيقاً لنبوءة محمد ﷺ، وكأنَّهم يريدون أن يخذلوا الناس عن جهاد اليهود، وقد تلقَّف اليهود الخبثاء هذه الفكرة وأشاعوها، يقولون للناس: لم يأتِ أوانُ قتالنا وانتصاركم علينا.

الحديث السابع: يذكر الراوي أنه دخل على أبي عُبيدة فوجده يبكي، لأنه خالف الحال التي فارق رسول الله ﷺ وهو عليها، لكثرة ما عنده من الرقيق والدواب والخيل... إلخ. وقال المحقق: إسناده ضعيف. قلتُ: أظنّه موضوعاً، لأنَّه

ينافي الحال التي كان عليها أبو عُبيدة ـ بعد فتح الشام ـ من الزهـد في الدنيـا والتعلُّق بالآخرة. وإذا صحَّ ما أوصى به رسول الله ﷺ «إن أحبكم إليّ وأقربكم مني مَنْ لقيني على مثل الحال التي فارقني عليها» إنما يريد رسول الله ﷺ، العبادة، والأعمال الصالحة التي تقرّبنا إلى الله. وأما الاستمتاع المباح بما أنعم الله على الناس، ووسَّع عليهم في الرزق، من غير إسراف، فهذا لا يدخل في النصيحة. والله أعلم.

الحديث الثامن : هما حديثان في موضوع واحد رواهما أبو يعلىٰ؛ وقال محقق المسند أبو سليم الداراني: إن إسنادهما ضعيف.

قلتُ: بل هما موضوعان: فالحديثان يتنبَّأان بأن أمر الأمة يفسده رجل من بني أُميّة، وقد سمَّاه في إحدى الروايتين بأنه «يزيد»، وقد جاء في بني أمية ثلاثة رجال اسم كل واحد منهم «يزيد»: يزيد بن أبي سفيان، ويزيد بن معاوية، ويزيد بن عبد الملك. ولكن واضع الحديث، يريد يزيد بن معاوية. والأخبار والأحاديث التي تُروى في ذمّ بني أميّة بعامة، ويزيد بن معاوية بخاصة، ليس لها أصل، وإنما هي موضوعة في أعقاب الفتن التي حدثت في القرن الأول. وأعدل المذاهب في يزيد بن معاوية ماقاله الذهبي: «لا نسبُّه ولا نُحبُّه». وقال آخر: القول

في يزيد، لا تُنقِص ولا تزيد. فشأنه شأن غيره من سلاطين المسلمين ـ غير الخلفاء الراشدين الأربعة، وعمر بن عبد العزيز ـ لهم سيئات وربما كانت لهم حسنات ظاهرة أو مستورة. ولو أنَّك وضعتَ القداسة عن المدينة التي كان فيها ما كان أيام يزيد، وعددت الحسين بن علي رضي الله عنه، رجلاً من المسلمين، ثم وازنت بين أفعال يزيد، وأفعال غيره من السلاطين، فإنك ستجد عند الآخرين أضعاف ما كان زمن يزيد بن معاوية، ومع ذلك لم يُشنَّع عليهم. هذا، والغلوّ في الحب والغلو في الكره، يولّد الأكاذيب. والله أعلم.

والذي جاء في الحديث الصحيح أن الثلم يحصل من قرشيين دون تعيين، لما روى البخاري[1] عن عمرو بن يحيى بن سعيد بن عمرو بن سعيد قال: أخبرني جدّي قال: كنتُ جالساً مع أبي هريرة في مسجد النبي ﷺ بالمدينة، ومعنا مروان، قال أبو هريرة: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: هلكة أمتي على يَدَيْ غلمة من قريش. فقال مروان: لعنة الله عليهم غِلْمةً، فقال أبو هريرة لو شئتُ أن أقول بني فلان، وبني فلان لقلتُ.

والذين فسَّروا الغلمة من قريش، بأنَّهم من بني أمية، اعتمدوا على روايات هالكة، وحوادث ظهرت في زمنهم أو

(١) كتاب (٩٢)، باب (٣).

ظهرت في الزمن الذي سبقهم، وكان فيها بعض الأمويين، ونحن اليوم في القرن الخامس عشر الهجري ١٤١٨هـ، إذا نظرنا خلفنا، وقلَّبنا صفحات التاريخ فإننا نجد أمثلة كثيرة لما أخبر عنه رسول الله ﷺ، في زمن بني أمية، وزمن بني العباس، وفي القرون التي تلت بني العباس، وهذه الأمثلة تشمل بطون قريش: من الأمويين والهاشميين، ومن بطون أخرى. مع العلم أن الأمَّة لم تهلك بسبب الأحداث التي جرت في عصر بني أُميَّة، فقد كانت فتنة أو وعكة صحيَّة ألمَّت بالأمة، ثم عوفيت منها، وبقيت قوية معافاة إلى آخر عصر بني أُمية، والفتن التي أحدثها العباسيون قُتِلَ فيها أضعاف أضعاف مَنْ قُتِل في الفتن السابقة، وفي عصر بني العباس بدأت الدولة الإسلامية بالتفكك، حتى وصلت إلى الحضيض، عندما استولى الصليبيون على الشام، في ظل الخليفة العباسي... وأحسن جوابٍ عن الحديث أن نقول: الله أعلم مَنْ يكونون هؤلاء الغلمة.

١٣ - فقه الجهاد في سيرة أبي عُبيدة بن الجرَّاح:

لقد اجتمت في شخصية أبي عُبيدة خصلتان: الخلق الرفيع الذي طبعه الله عليه، والتربية الإسلامية التي انبعثت عن الصحبة الطويلة للنبي ﷺ، والفهم الثاقب لمقاصد الإسلام.

وقد أمضى أبو عبيدة حياته مجاهداً في سبيل الله، ومات

في أرض الفتوح.. وإذا استقرأنا سيرة أبي عبيدة الجهادية، جندياً أو قائداً، فإننا نستنبط المعاني الفقهية الجهادية التي تُعدُّ مدرسة للمجاهدين.

* كان من البدريين: وكلّ مَنْ حضر بدراً من الصحابة، أبلى بلاءً حسناً.. وقد نقل المؤرخون أن أبا عبيدة قَتَلَ أباه يوم بدر. وظهر لنا من خلال مناقشة هذه الرواية أنَّ الخبر لا يصحُّ، فأبو عبيدة لم يقتل أباه، ولكنَّ المؤرخين نسبوا إليه هذا الخبر لما وصلهم من شجاعته وإقدامه في حرب المشركين، ولعلَّه قتلَ أحد أقاربه أو قتل مشركاً اسمه عبد الله، فظنَّ المؤرخون أنه أبوه، مع أنَّ ابن حجر نقل عن صاحب نسب قريش أن أبا أبي عبيدة اسمه الجرَّاح، ولهذا لا يُذكر إلا منسوباً إلى الجرَّاح في النصوص الصحيحة. وقد كانت غزوة بدر اختباراً لمدى تمكُّن العقيدة في نفوس المهاجرين خاصة، ذلك أن المهاجرين في الجيش الإسلامي، والمشركين القادمين من مكة أبناء قبيلة واحدة هي قريش، واجتمع في المعركة رجال من جميع بطون قريش، مع رجال من البطون نفسها في حرب لا يفصل فيها إلا السيف.. مع العلم أن بطون قريش في سِلْم دائم دائماً، منذ تولّي قصيّ قيادتها، ولم تثر بينها الحروب والمنازعات التي كانت تثور بين القبائل العربية، أو البطون العربية ذات الأصل الواحد، فالأوس والخزرج من أصل واحد، وأبناء أب واحد،

وقامت بينهما حروب دامية.. وبكر وتغلب أبناء ربيعة قامت بينهما حرب البسوس المشهورة.. فظهر في بَدْر أن العقيدة تسمو فوق الأنساب، كما ظهر أيضاً أن الحروب بين الأقارب لا تحرّكها إلا العقيدة، فإذا اتّفقنا في العقيدة فإن الحرب محرّمة مهما كانت الأسباب. ولذلك عدَّ المؤرخون الحروب التي قامت بين فئتين من المسلمين فتناً، ولا يوصف القتيل فيها بأنه شهيد، ويُترك أمره إلى الله يحكم فيه يوم القيامة.. والحرب التي تقوم بين فئتين من المسلمين، لا ينتصر فيها أحد الطرفين، فكلاهما خاسر ومهزوم.

* **في غزوة أُحد**: ثبت أبو عبيدة في مرحلة النكسة، مع قلَّة من الصحابة ودافع عن رسول الله ﷺ، ولعلَّه أُصيب يومها إصابة أسقطت ثنيتيه. فعلَّلها المؤرخون بانتزاع حلقتي المغفر من وجه رسول الله ﷺ.. وقد بيَّنا سابقاً تهافت هذه الرواية، أو هذا التعليل لهَتْم أبي عبيدة، ولكن الذي ثبت بإجماع الروايات أنَّ أبا عُبيدة كان فذّاً في دفاعه عن رسول الله ﷺ، وفي صموده حيث فرَّ جَمْعُ المسلمين. والثبات في ساعة الشدَّة، دلالة على الشجاعة وقوة الإيمان، ولا شكَّ أن هذه الشيمة مستمدَّة من شجاعة النبي وثباته في كل موقف يفرُّ منه الناس، وإذا فرَّ القائد من ساحة القتال دبَّ الرعبُ إلى قلوبِ جُنْده.

* **في غزوة ذات السلاسل**: أوصى النبيُّ ﷺ أبا عُبيدة عندما أرسله مدداً لعمرو بن العاص، أن يتطاوعا ولا يختلفا، وعندما طلب عمرو بن العاص الإمارة والإمامة تنازل أبو عبيدة عن حقّه في الإمارة، وقال له: إنَّ آخر ما أوصاني به رسول الله ﷺ أن تطاوعا ولا تختلفا، فأنا أُطيعك إن عصيتني.. وفي سلوك أبي عبيدة فقهٌ جهاديٌّ رفيع: حفظ وصية القائد الأعلى للأمة، لأنَّ الالتفاف حول كلمة القائد من أسباب قوة الأُمّة. وفيه حرص أبي عُبيدة على وحدة الجماعة، ونبذ الفرقة التي تكون من أسباب الهزيمة. وفيه الأنموذج أو المثل الأعلى في الجهاد الذي تذوب ذاته في المجموع، ولا يبحث عن المراتب والمناصب والإمارة، فيكفيه أن يكون جندياً مجاهداً، لأنَّ الهدف الأعلى هو إرضاء الله تعالى وخدمة العقيدة، وطلب الشهادة في سبيل ذلك، ويستوي في هذا الجنديّ والقائد، لأن الشهيد الجندي، والشهيد القائد في منزلة واحدة عند الله.

* **في غزوة الخبط أو غزوة سيف البحر**: كان أبو عُبيدة أمير الجماعة، وقد ظهر فقهه في تدبير شؤون الجند عندما يقل الزاد، وتفنى المؤونة. فقد انطلق الجيش ومع كل جندي زاده من التمر، منهم المقلّ، ومنهم المكثر، وعندما اقترب الزاد من النفاد، أو نفد من بعضهم، وبقي عند الآخرين، جمع أبو عبيدة

التمر في مزود واحد، وصار يعطي كل جنديّ تمرة في اليوم، فلما نفد التمر أكلوا ورق الشجر، ثم ظهر لهم الحوت فأكلوا منه، حتى انتهت المهمة الموكلة إليهم.

وفي هذه القصة:

ـ جواز جمع الأقوات إذا شحّت، وإشراف القائد على توزيعها بالتساوي بين أفراد الأمة.

ـ إنَّ الفقر وشحَّ المال لايمنعان من الجهاد، ولا يتأخر فرض الجهاد حتى يكثر المال.

*** فقه أبي عبيدة بن الجراح في فتح الشام:**

لقد تمَّ فتح الشام كله على يد أبي عبيدة، وكتب أبو عبيدة عهود الصلح مع القرى والمدن، على غير مثال سابق ولا سنَّة سابقة، فليس في القرآن مما يتَّصل بأهل الكتاب، إلا أخذ الجزية منهم إذا بقوا على دينهم. فلما فتح المسلمون الشام، اجتهدوا في شروط الصلح، ووضعوا نظاماً عُدَّ سنَّة لما بعده من الفتوح، وعمل به المسلمون في العصور التالية.

وقد سأل هارون الرشيد أبا يوسف عن أمر أهل الذمَّة، وكيف تُركت لهم البيع والكنائس في المدن، حين افتتح المسلمون البلدان ولم تُهدم، وكيف تُركوا يخرجون بالصلبان يوم عيدهم.

فأجاب أبو يوسف هارونَ الرشيد بما سنَّه أبو عبيدة في فتح الشام.

فقال أبو يوسف: حدَّثني بعض أهل العلم عن مكحول الشامي، أنَّ أبا عبيدة بن الجرَّاح صالحهم بالشام، واشترط عليهم حين دخلها: على أن تترك كنائسهم وبيعهم على أن لا يحدثوا بناء بيعة ولا كنيسة.

وعلى أن عليهم إرشاد الضال وبناء القناطر على الأنهار من أموالهم، وأن يضيفوا مَنْ مرَّ بهم من المسلمين ثلاثة أيام.

وأن لا يشتموا مسلماً ولا يضربوه.

ولا يرفعوا في نادي أهل الإسلام صليباً.

وأن يوقدوا النيران للغزاة في سبيل الله.

ولا يدلوا للمسلمين على عورة.

ولا يضربوا نواقيسهم قبل أذان المسلمين ولا في أوقات أذانهم، ولا يخرجوا الرايات في أيام عيدهم.

ولا يلبسوا السلاح يوم عيدهم، ولا يتَّخذوه في بيوتهم.. فكان الصلح على هذا الشرط.

فقالوا لأبي عبيدة: اجعل لنا يوماً في السنة نُخرج فيه

صلبانا بلا رايات وهو يوم عيدنا الأكبر، ففعل ذلك وأجابهم إليه، فلم يجدوا بُدّاً من أن يفوا لهم بما شرطوا.

ففتحت المدن على هذا.

فلما رأى أهل الذمَّة وفاء المسلمين لهم وحسن السيرة فيهم، صاروا أشدَّاء على عدوّ المسلمين، وعوناً للمسلمين على أعدائهم، فبعث أهلُ كلّ مدينة ممن جرى الصلح بينهم وبين المسلمين رجالاً: يتجسسون الأخبار على الروم، وعن ملكهم وما يرون أن يصنعوا.

قال أبو يوسف: وإنما كان أبو عبيدة يجيبهم إلى الصلح على هذه الشرائط، ويعطيهم ما سألوا يريد بذلك تَأَلُّفَهُم وليسمع بهم غيرهم من أهل المدن التي لم يطلب أهلها الصلح، فيسارعوا إلى طلب الصلح.

قال أبو يوسف: وكتب أبو عبيدة إلى عُمر بهزيمة المشركين، وبما أفاء الله على المسلمين، وما أعطى أهل الذمة من الصلح.

وما سأله المسلمون من أن يقسم بينهم المدن وأهلها والأرض وما فيها، وأنَّه أبى عليهم، حتى كتب إليه فيه ليكتب إليه برأيه منه.

فكتب إليه عمر: أقرّ ما أفاء الله عليك في أيدي أهله واجعل الجزية عليهم بقدر طاقتهم.. ويكونون عُمّار الأرض فهم أعلم بها وأقوى عليها.. ووفِّ لهم بشرطهم الذي شرطت لهم في جميع ما أعطيتهم، وأما إخراج الصلبان في أيام عيدهم، فلا تمنعهم من ذلك خارج المدينة.. يوماً في السنة.

* **من حِكَم الجزية**: حماية أهل الكتاب من كلّ ما يغولهم بعد أخذ الجزية، فإذا عجز الأمير عن الحماية، بطلت الجزية.. وكان أبو عبيدة أول مَنْ طبّق هذا المفهوم في قصة فتح حمص أول مرّة، ثم خروج المسلمين منها بَعْدَ جمْع الجزية، فأعاد أبو عبيدة الأموال إلى أهلها قبل أن ينصرف المسلمون إلى وجهتهم.

١٤ ـ مهنة أبي عبيدة بن الجرّاح في مكة والمدينة:

هل كان أبو عُبيدة بن الجرّاح حفَّار قبور؟ لا نستطيع الإجابة، بنعم، أو بلا، إلا إذا تأكّدنا أنَّ حَفْرَ القبور كان مهنة يختص بها أفراد من أهل البلدة، كما هو حاصل في أيامنا.

وقد روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: كان بالمدينة رجلان يحفران القبور، أبو عبيدة بن الجرّاح يحفر لأهل مكّة (المهاجرين) وأبو طلحة يحفر للأنصار ويلحد لهم. قال: فلما

قبض الله رسول الله بعث العباس رجلين إليهما، فقال: اللهم خر (اختر) لنبيّك، فوجدوا أبا طلحة، ولم يجدوا أبا عبيدة فحفر له ولحد...»[1].

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: «لما اجتمع القوم لغسل رسول الله، وليس في البيت إلا أهله: عمه العباس، وعلي بن أبي طالب، والفضل بن العباس، وقثم بن العباس، وأسامة بن زيد، وصالح مولاه. فلما اجتمعوا لغسله، نادى من وراء الباب أوس بن خوليّ الأنصاري، ثم أحد بني عوف بن الخزرج، وكان بدْريّاً، عليَّ بن أبي طالب، فقال له: يا عليُّ، نشدتك الله[2] وحظنا من رسول الله، قال: فقال له عليٌّ: ادخل، فحضر غسْلَ رسول الله، ولم يل من غسله شيئاً[3]... حتى إذا فرغوا من غسله، وكان يُغْسل بالماء والسدْر، جففوه.. ثم أُدرج في ثلاثة أثواب.. ثم دعا العباسُ رجلين

---

(١) المسند (١/ ٢٩٢).

(٢) وإنما قال الخزرج ذلك: لأنهم أخوال رسول الله، فأم عبد المطلب بن هاشم من الخزرج، ولذلك أيضاً نزل في حيهم يوم الهجرة.

(٣) وفي طبقات ابن سعد ٣(/ ٥٤٢): «ولما قبض النبي وأرادوا غسله، جاءت الأنصار فنادت على الباب: الله الله، فإنا أخواله، فليحضره بعضُنا. فقيل لهم: أجمعوا على رجل منكم، فأجمعوا على أوس بن خَوليّ، فدخل فحضر غسل رسول الله.. مع أهل بيته».

فقال: ليذهب أحدكما إلى أبي عبيدة بن الجرَّاح، وكان أبو عبيدة يضرّح لأهل مكة، وليذهب الآخر إلى أبي طلحة الأنصاري، وكان أبو طلحة يلحد لأهل المدينة.. ثم قال العباس لهما حين سرحهما: اللهم خِرْ لرسول الله .قال: فذهبا، فلم يجد صاحبُ أبي عبيدة أبا عبيدة، ووجد صاحب أبي طلحة أبا طلحة، فجاء به، فلحدوا لرسول الله ﷺ.

فلماذا لم يحفر القبر واحدٌ ممن حضر من المهاجرين والأنصار، ونحن نرى أنهم يتنافسون لنيل حظّ أوفر من تجهيز رسول الله ﷺ.

يظهر من السياق، أن حَفْر القبور مهنة اختصاصية، لها رجالٌ مختصُّون بهذه الصنعة. وهذا ما فهمه الكتاني في كتاب «التراتيب الإدارية» أو «نظام الحكومة النبويّة» فعنوَن: «في الحفَّار للقبور» وعدَّ وظيفة «حفَّار القبور» من التراتيب الإدارية التي كانت في العهد النبوي. وذكر أبا عبيدة وأبا طلحة.

وفي ترجمة أبي سعيد المقبري من الإصابة: أنه كان له إدراك ـ أي أدرك النبي ﷺ ـ وكان على عهد عمر، فجعله على حَفْر القبور بالمدينة. وهذا الخبر يدلُّ على أن حفر القبور مهنة يُرزق العامل عليها.

وإذا كان أبو عبيدة يحفر قبور أهل مكة في المدينة، أليس

من المعقول أنه كان يفعل ذلك في مكة، وخصوصاً أنه هاجر وعمره حوالي أربعين سنة.

فتأمَّل في قصة أبي عبيدة يا رعاك الله. حفَّار قبور، يكون قائد سريَّة، وجندياً في جيش، ويكون تلميذاً في حلقة العلم، ويكون معلّماً مبلّغاً شريعة ربّه، ورسالة نبيّه، ثم يكون القائد العام لجيوش فتح الشام.. ويستولي عليك الإعجاب عندما تعلم أنه بقي حفَّار قبور حتى بَعْدَ أن تقلَّد المناصب العليا، وتولَّى أعظم سفارة في أعظم مهمَّة، لأعظم قائد على وجه الأرض.

لقد أحببت حفاري القبور بعد أن قرأتُ سيرة أبي عُبيدة، فما أروعها من مهنة إذ عمل بها أشراف أمتنا.

١٥ ـ أسرة أبي عبيدة:

في أسرة أبي عبيدة غموض لا يتناسب مع الشهرة والوضوح اللذين يتهيئا لترجمة أبي عبيدة.

فأبوه: عبد الله، لا يُعرف، ولم يُذكر إلاَّ في قصته مع ابنه أبي عبيدة يوم بَدْر. وقد بيَّنا سابقاً أن خبر قتْل أبي عبيدة أباه يوم بدر ليس له سند، ولم يثبت من وجه صحيح، ولم يرد بسند متصل، وربما كان موضوعاً.

وفي كُتُب الأنساب اضطراب في سوق نسب أبي عبيدة.

قال ابن حجر في الإصابة: أبو عبيدة بن الجرَّاح، مشهور بكنيته وبالنسبة إلى جدّه. ومنهم مَنْ لم يذكر بين عامر والجرَّاح «عبد الله» وبذلك جزم مصعب الزبيري في (نسب قريش)، والأكثر على إثباته.

ومعنى كلام ابن حجر المنقول عن مصعب أن «الجرَّاح» هو والد أبي عبيدة ورجعت إلى (نسب قريش) لمصعب الزبيري فلم أجد نصّ الكلام الذي نقله ابن حجر، ولكنني وجدت اضطراباً في النص يغاير الأسلوب الذي يجري عليه المؤلف: حيث قال: «فولد هلال بن أهيب: الجراح، ويزيد، وعبد الله» ثم قال: «وولد عبد الله بن الجرَّاح أبا عبيدة».

وكان من السياق المعتاد أن يقول: فولد الجرَّاح عبد الله، ثم ينتقل إلى ذكر عبد الله. وقد ورد اسم عبد الله في نسبه ثلاث مرَّات:

الأولى: عبد الله بن ضبة بن الحارث.

الثانية: عبد الله بن هلال بن أُهيب.

الثالثة: عبد الله بن الجراح.. ولكن الأخيرة ليست مستريحة في سياقها. وفي السياق حذْفٌ لعبت به أيدي النساخين.

ومما يقوّي ما قاله مصعب الزبيري الذي نقله ابن حجر، أنه يرد دائماً في سياق الأحاديث والأخبار منسوباً إلى الجرَّاح.

ومصعب قريشي وعالم بنسب قومه.

وأم أبي عبيدة: أُميمة بنت غَنْم بن جابر. وفي جمهرة النسب لابن حزم أُميمة بنت عثمان.

ونقل ابن حجر عن خليفة أن أُم أبي عبيدة أدركت الإسلام وأسلمت.

وإذا كانت قد أسلمت، فإنَّها عاشتْ في العهد النبويّ.. ولكنني لم أجد لها ترجمة في الأقسام الأربعة التي ذكرها ابن حجر في الإصابة، مع أنه يترجم لكل مَنْ ورد فيه خبر صحيح أو ضعيف.

وزوجه أم أولاده هند بنت جابر بن وهب، لم تذكر في الصحابيات أو التابعيات، ولا نعرف لها حياة أو موتاً.

وذكروا له ولدين: يزيد، وعُميراً؛ ولم نعرف لهما ترجمة.

وقد قال مصعب الزبيري: وقد انقرض ولد أبي عبيدة وإخوته مع أننا لم نعرف له إخوة؛ فهل مات ولدا أبي عبيدة في الطاعون وهما صغيران قبل أن ينجبا ذريةً؟

ليس عندي جوابٌ.. ولكن مصعباً الزبيري الذي أخبر بانقراض ولد أبي عبيدة، عاش في النصف الثاني من القرن الثاني، وهذا يعني أن انقراض ولد أبي عبيدة كان في وقت مبكر، لم نستطع تحديده.

١٦ ـ صفته وحليته:

في طبقات ابن سعد، وسير الأعلام «كان أبو عُبيدة رجلاً نحيفاً، معروق الوجه، خفيف اللحية، طوالاً، أجنأ أو (أحنى) أثرم الثنيتين.

وقال الذهبي: إنه كان يخضب بالحنَّاء، والكتم، وكان له عقيصتان.

١٧ـ وفاته رضي الله عنه:

توفي أبو عبيدة سنة ثمان عشرة، أو سنة سبع عشرة، وله ثمان وخمسون سنة.

هذا آخر كتاب أبي عبيدة بن الجرَّاح
وكان الانتهاء من تصنيفه، آخر جمعة
من جمادى الآخرة ١٤١٧هـ،
الموافق ثامن أيام تشرين الثاني ١٩٩٦م
في داريَّا الشام من الغوطة الدمشقيّة
والحمد لله رب العالمين.
وكتبه: محمد محمد حسن شُرَّاب
نزيل داريا الشام.



الفهرس

الموضوع	الصفحة

الفصل الثاني
أبو عبيدة بن الجرَّاح في دار الهجرة

الموضوع الصفحة

الفصل الثالث:
أبو عبيدة بن الجرَّاح في الديار الشامية

الموضوع — الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الفصل الرابع

أبو عُبيدة بن الجراح في سجل الخالدين

الموضوع	الصفحة



كتب للمؤلف

١ ـ المدينة النبوية في العصر الأموي.
٢ ـ أخبار الوادي المبارك (العقيق)
٣ ـ المعالم الأثيرة في السُّنَّة والسيرة.
٤ ـ تميم بن أوس الداري ـ راهب أهل عصره وعابد أهل فلسطين.
٥ ـ معجم بلدان فلسطين.
٦ ـ معجم الشوارد النحوية.
٧ ـ في أصول التاريخ الإسلامي.
٨ ـ الإمام محمد بن شهاب الزهري.
٩ ـ المدينة النبوية فجر الإسلام وعصر الراشدين.
١٠ ـ بيت المقدس والمسجد الأقصى.
١١ ـ الشواهد الشعرية في أُمهات الكتب النحوية.

تحت الطبع

* عز الدين القسام.
* حسان بن ثابت.
* التضليل التوراتي في المصادر العربية.